

خوان كروث إغبرايدي

# ما تبقى من رماد

ترجمة

محمد صبري عبد الفتاح

تقديم

عبد الهادي سعدون



# خوان كروث إغراييدي

ترجمة

محمد صبري عبد الفتاح

تقديم

د. عبد الهادي سعدون

د. عبد الهادي سعدون

عن رماد الحكايات الإنسانية

عرفت خوان كروث آغراييدي من أبرز كُتّاب الأطفال والشباب، بل إنه عن هذه الفنون الكتابية الخاصة قد حاز على جميع الجوائز الوطنية في بلاد الباسك وإسبانيا، وتعدت شهرته في مجال الكتابة للطفل والناشئة خارج حدود إسبانيا والباسك لترجم أعماله للغات عدة مثل الفرنسية والإنكليزية. إضافة إلى معرفتي الشخصية به من خلال اشتراكنا في أكثر من كتاب وملتقى أدبي، كنت قد ترجمت له مجموعة من الأشعار ونشرتها في سنين سابقة في كتيبات طبعت ووزعت في إسبانيا. كما أعددت وترجمت له كتابه الحكائي المهم عن القصص الشعبية في بلاد الباسك، وهي الحكايات التي تتقاطع وتتشابك مع تراثنا العربي في نواح كثيرة، وهذا الكتاب نشرناه هذا العام أيضاً في دار الرافدين بعنوان معروف هو (حكايات بلاد الباسك الشعبية).

المؤلف الباسكي آغراييدي ولد في مدينة أدونا الباسكية بإقليم غيبوثكوا عام 1956، ويعتبر من أهم كُتّاب بلد الباسك في آداب الأطفال روايةً وقصةً وشعراً، وقد حاز على الجائزة الوطنية للآداب وجائزة النقد الوطنية في أكثر من مناسبة كما عليه في أعوام 1994 و1999 و2003 و2018. كما أنه يكتب الرواية والقصة، ومن أكثر المهتمين بتدوين الآداب الشعبية لمنطقته ولعموم بلاد الباسك، وقد كتب فيها الكثير من الدراسات والمؤلفات. عمل أستاذاً للغة والآدب الباسكي في مدارس وجامعات بلاده حتى تقاعده. كل نتاجه مكتوبٌ ومنشورٌ بلغة بلاده (الباسكية - الاويسكيرا)، على الرغم من أنه يقوم أحياناً بترجمة أعماله إلى الإسبانية. من بين إصداراته الأدبية المعروفة: قمر بين الشفاه 2006، وداعاً جوناس 2007، ما تبقى من رماد

2008، نفق الريح 2009، ماء: كتاب المطر 2014، والقطرة التي ترفض السقوط 2017.

روايته هذه التي نقدّم لها، والتي يترجمها لنا هنا ببراعة المترجم الشاب محمد صبري عبد الفتاح بعنوان (ما تبقى من رماد)، وهي التي تحتمل ترجمات عديدة لا تخرج عن المعنى نفسه: ليس سوى رماد، الرماد ما تبقى لي، أو رماد كل ما تبقى، لعلها الأكثر شهرة من بين أعماله الروائية والموجهة لجمهور أكبر من جمهور الشبيبة والفتية الذي اعتاد الكتابة له في أغلب نتاجاته. في تراسل خاص بيننا، وجّهتُ له السؤال نفسه عما تمثله الرواية له وكيف يراها الآن، فأجابني بقطعة أدبية قيمة، من الأفضل أن أوردّها هنا كاملة، إذ يقول:

« بقي لي وحسب رماد طفولة سنوات الحكم الفرانكوي، طفولة النظرة غير المؤكدة ووهم هزات العاصفة. بقي لي وحسب رماد أولئك الذين جازفوا، ومن نظروا عبر السياج، ومن دفعوا في الاتجاه المعاكس. بقي لي وحسب رماد المعلمين المتيقظين، من كتب الأبجدية المتيقظة، ومن العمل الصامت للصدى العميق. بقي لي وحسب رماد الآمال المحطمة، والأحلام الطفولية والصحوة القاسية، والثورات الملتوية المبتلعة بسبب زوبعتها الخاصة وبراعمها من الغباء المخدر. بقي لي وحسب رماد العائلات التي تحملت، خائفة، لكنها لم تستطع حمل أطفالها حتى لا تلطخ قمصانهم بالدماء التي انتفخت بريح الحرية. بقي لي وحسب رماد الرايات الملونة الأخرى وشعارات الصحوة، وكذلك رماد العنف الجامح.

أريد أن أتحدث عن الشخصيات اليومية التي ارتبطت بروحي منذ الطفولة، أتحدث عن أولئك الذين تركوا أثراً بي وأيضاً أولئك الذين تركوني مصعوقاً. أريد هنا أن أرسم هيئةً مثاليةً في شخصية المعلمة أديلاً مثل الكثير من النساء اللاتي وضعن أعينهن على مستقبل كان موجوداً بالفعل هنا ولكنهن وُلدن مُجهضاتٍ مما أُرِدن القيام به. أريد أن أرسم هيئةً مثاليةً، على العكس من ذلك، في شخصية الفقير البائس ماّرّو عن كل أولئك الذين لم يعرفوا كيفية السيطرة على غضبهم. الجميلة والوحش، الجمال والوحشية، المتجسدة في القصة التي نحتت روعي في جغرافيا واضحة، ما أهمية الاسم؟ وماذا يهم إذا كانت المنطقة التي ولدت فيها أو استنساخها منتشرة في جميع أنحاء العالم؟ في عموم بلاد الباسك وإسبانيا قاطبة، والجمهورية المحبطة، ومؤسسة التعليم الحرة المحبطة، والحرية المحبطة... ولكن ليس إلى الأبد، وليس إلى الأبد. بقي لي وحسب رماد أديلاً، الرمز، ولكنه أيضاً لحم من لحمي، إذ كانت قريبة مني لدرجة أنها كانت أمي الثانية، التي أنارت

ضميري وعلمتني طريقة أخرى للنظر إلى العالم والوجود. آديلا، الإسبانية التي كرمها الشاعر أرسني، شهيدة رماد الكرامة».

هذه الشهادة الأدبية، أو لنقل الرؤية الخاصة بمؤلف الرواية، إنما تحيلنا لمفهوم التوافق ما بين المبادئ والحس الأدبي، فالأديب مهما كان بعيداً أو غير منغمس إيديولوجياً بقضايا المجتمع، فهو في الحقيقة مندمج كلياً من خلال الكلمة والموقف، ولعل أفضل وسيلة لفهم ومعرفة مبادئ وقضايا الكتاب، هي تلك النصوص الأدبية الطويلة والقصيرة والتي ينشرها الكاتب في كتب وروايات وقصص وحوارات. ومن هنا نستشف الكثير من آراء وأفكار خوان كروث المبتوثة في صفحات هذه الرواية أو روايته الأخرى.

الرواية تحدث في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وهي الفترة التي حركت وأنعشت القواعد الثقافية وهياكل العلاقات الاجتماعية في بلاد الباسك المضطربة سياسياً، لكنها في الوقت نفسه منفتحة على تأثيرات كل رياح التغيير. والحق إنها فترة تبدو بعيدة، لكن آثارها في المجتمع الإسباني عموماً ما تزال حاضرة ومؤثرة، بل نكاد نقول مغرية للكثير من الكتاب على تناولها والغوص فيها والتجوال في مواضيعها الشائكة العميقة، تلك المواضيع الأزلية عن علاقات البشر في أزمنة الخراب والبحث عن طوق نجاة. هذه الرواية تعيد خلق أزمنة التحول تلك من خلال تجارب صبي وعلاقته بمعلمته في بلدة صغيرة في غويوسكوا الباسكية الداخلية، والتي كانت حتى ذلك الحين بمثابة منطقة ريفية منعزلة عن التأثير المدني. البطل صبي يكبر ليصبح شاباً بالغاً يتحدث وجهاً لوجه مع معلمته السابقة، وهي امرأة من ذلك الجيل وهو الجيل الذي جلب معه التجديد التربوي الأولي وعمليات البحث الشخصية المستمدة من التجربة والعيش اليومي.

الروائي خوان كروث يمنحنا عوالم مدهشة من العلاقات البشرية وصوراً عن أزمنة غائبة وحكايات لن تختفي من أذهاننا بسهولة. شخصيات وعوالم وأزمنة ولت، لكنها هنا في صفحات الرواية تولد وتكتسب حياة جديدة من خلال قراءتنا وتمعننا بها وبمناخها، وكذلك بأسلوب الروائي المتجدد والتممكن. قراءة هذه الرواية لن نخذلنا، بل ستمنحنا فرصة العودة لأوقات مضت، لكنها ما تزال تؤثر فينا وتقود خطوات أيامنا القادمة.

**(مدريد 2023)**

الكلمة كل ما تبقي لي

**(بلاس دي أوتيرو)**

لقد مُتّم، ولم يبقَ منكم غيرُ ذراتِ غبارٍ ورمادٍ.

(م. آريغي)

## 1

سقطتُ عبر الهواء مع طبقات لا حصر لها من الجلد الممزق في جذعي منغمساً في الفراغ، ثم منجرفاً داخل دوامة مثل فوهة بركان، محاطاً بنابي ذئب، يطاردني حفيف همسات مهددة بنذير موت. تفكك وشيك لجسدي في اصطدام حتمي بالأرض، طالّت المدة لدرجة أنها بدت وكأنني أغرق بشكل دائري نحو هاوية لا نهاية لها. السقوط، الذي بالكاد استمر ثانية، بدا لي أدياً. للحظة، انتابني شعور بأني أحلق في وسط حالة من انعدام الوزن في ظلمة دامسة، محفوفاً بتلك الغفلة التي تغشى السقوط. ولكن، على الفور، شعرت بشيء يمتصني بعنف حرفياً، كما لو أن فم الذئب المرعب يبتلعني، والذي طالما تخيلته عندما كنت طفلاً يأكل الخراف الستة، الضحايا العاجزين الذين تعرفت عليهم بعد ذلك عن كثب لدرجة أنني كنت أشعر كما لو أنا من يلتهمه الوحش، على الرغم من أنني في اللحظة الأخيرة دائماً ما أحرر نفسي، إذ تحولت إلى الخروف السابع المحتمل خلف الساعة، حيث اختبرت هذا الشعور القوي بالراحة في أقصى درجاته. حتى ذلك السقوط المشؤوم، تمكنت من النجاة منه بأمان وسلام، لقد عشت طفولة سعيدة، دون أن يأكلني ذئب سوء الحظ، لأنني لم أعان من تلك الحوادث العادية لطفل يركض ويقفز ويطارد الأطفال الآخرين أو يتعرض للاضطهاد من قبلهم خلال لعبهم معاً، ومن ذلك الحين، لن يعاني من سقوط آخر بهذه الخطورة. واحد كاف.

– ماذا تفعل هناك بحق الجحيم؟

جمد صوت مارو المعدني ساقِي، مثل منجل حاد. الخطوة التي استقرت عليها قدمي، خلال محاولتي الوصول إلى عليّة السقيفة، تفككت فجأة مع البخار الحمضي لتلك العبارة التي نطق بها دون أن يضطر إلى رفع صوته كثيراً. لم يكن بحاجة إلى ذلك، أبداً لم تدعُه الحاجة إلى رفع صوته. صوت جهور، مع تلك الحشجة التي دائماً ما أرعبت أطفال الحي، ليس فقط شديدي الخوف مثلي، ولكن أيضاً أولئك الذين امتازوا بقوة شكيمتهم. سمح لي السقوط السريع والدائري أن أختبر للحظة نشوة الطيران المفاجئ، شعور بنشوة معين يصاحب عادة الانهيار البشري بشكل عابر، لكن على الفور تمددت الأرض بعنف، وضربتني مثل قبضة معدنية عملاقة نبتت من

أحشاء الجحيم، مما أدى إلى انهيار تلك البراءة الطفولية بلا رحمة، ما جعلني أشعر وكأنني جبان بين يدي غول قام بتقطيع ساقي وكسرها إلى جزأين أو ثلاثة أو إلى ما لا يمكن عده من الشظايا.

– ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟

نظر مارو إليّ بازدراء. لم يتحرك قيد أنملة، علي الرغم من تمددي عند قدميه بعينين فارغتين، من الرعب. لم تبد عليه أيُّ بادرة تعاطف. أمسك سترتي بأحد كفيه، كالممسك بجرو من فراء ظهره، ورفعني للأعلى، ثم أدار رأسي باليد الأخرى، ونظر إليّ بعينين ملتهبتين.

– ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟ كيف دخلت، عليك اللعنة؟

كان يلقب بـ «مارو»، اختصاراً لأكيل مارو، تجسيداً لإبليس، الغدر، الشيطان. نحن الأطفال لم نعرف اسمه الأول ولا اسم عائلته، حيث لم يستخدمه أحد من الجيران لمناداته من قبل. لم يُسمع سوى لقبه في جميع أنحاء الحي، مارو، مارو، مارو، وكررته الأمهات لتخويف الأطفال الأشقياء. لم يبلغ مارو في ذلك الوقت أكثر من عشرين عاماً، لقد حصل على لقبه في مدة قصيرة جداً.

– هيا ابتعد عن هنا، أيها الجرذ!

المرات القليلة التي تلتف فيها مارو في حديثه مع طفل في أقصى درجات لطفه أو مع أدنى حس فكاهي كان يدعو بالجرذ. صبية وفتيات الحي، دون تمييز، كانوا جرداناً بالنسبة إليه.

– إذا رأيتك هنا مرة أخرى، أيها الجرذ، سأقوم بتعليقك بهذه المسامير!

لم تكن أظافر مارو على درجة كبيرة من الطول، ولكنها صلبة وحادة مثل المخالب. في المعارك المتكررة التي وجد نفسه متورطاً فيها، ليس كثيراً في الحي، ولكن في مدن بعيدة قليلاً، أذاق أكثر من شخص مداعبات تلك الخطافات التي لم تتوان عن نقش بصمة شيطانية على وجوه أعدائه.

– غادر أيها الجرذ!

أطلق سراحي فجأة، من ثم سقطت على الأرض. لم أقو على الوقوف على قدمي، لكن الألم منحني القوة الكافية لجر جسدي عبر الأرضية الترابية إلى

خارج السقيفة، ثم الاستمرار في الزحف في الشارع، في اتجاه منزلي، على ما أعتقد، لأنه في حالة الرعب التي اعترتني وبساق مثقوبة بقطعة حديد كالخنجر الملتهب، لم أتمكن من التمييز بوضوح بين مكان وجودي أو إلى أين أذهب.

قلت: «لقد ضرب بعرض الحائط كل براءتي الطفولية». كما يحدث في المسارات الأولية للهبوط والصعود، يرتبط كل نزول وكل امتصاص ناري بشعور بحنين للعودة إلى المصدر، إلى رحم الأم، إلى البراءة الأصلية، ومع ذلك، في تلك الرحلة إلى أعماق الرحم، الشيطان ينتظرنا بقبضته الحديدية، تلك الحماسة التناسلية التي توقظ فينا عاطفة أنانية تدمر براءتنا، على الرغم من أنها توفر لنا أيضاً النار، ذلك اللهب الذي نسمو به لأعلى، بنور خاص. طوال الحياة، يهزنا الوقت، ويرفعنا ويغمرنا في منتصف الأمواج، عادة، عند الهبوط الذي تسببه الخطيئة، وعلى العكس من ذلك، علينا أن نزحف إلى أعلى المنحدر، لنستمتع بلحظات من التتويج غير المستقر على الموجة التي تتوافق معنا في كل لحظة.

لا بدّ أنني فقدت وعيي. استيقظت على أريكة غرفة المعيشة، تجلس والدتي بجواري، تفرك صدغي وكتفي وصدري، وتراقبني بعينين متوسلتين. ثقوب حادة في قدمي اليمنى، كما لو هرول جيش على ظهور الخيل فوقها، جعلني ذلك أتلوى من الألم.

– «انتظر، خوانيتو، انتظر!» همست لي والدتي، أمسكت بي بإحكام من كتفي. لقد ذهب والدك بحثاً عن البيتريكيو<sup>(1)</sup> ستكون بخير. انتظر قليلاً.

رَبَّتْ كلمة «البيتريكيو»، المعالج المحلي، في أذني كصوت إنذار مرعب.

سمعت للمرة الأولى عن البيتريكيو عندما كنت صغيراً جداً. لم يتعد عمري ثلاث سنوات. كان يوم الأحد، مثل العديد من أيام الآحاد تسير حينئذ حياتي بوتيرة جيدة، اعتدت نزول تلة الحي جنباً إلى جنب مع والدي، نحو حي آخر قريب، أكبر وأهم من حيننا، حيث البارات والمحلات ومتاجر المعجنات والسينما... اعتبره البعض العاصمة الصغيرة للأحياء والمدن التي يتألف منها هذا الوادي. في أسفل المنحدر، يؤدي منحني حاد إلى مفترق طرق ثم ينضم إلى طريق مسطح، يحده رصيف تنتشر فيه أشجار الحور التي تصطف على ضفاف نهر واسع وعميق إلى حد ما في ذلك الجزء، حيث تقام سباقات القوارب في الصيف.

أحتفظ بذاكرة حية لتلك السباقات، ويرجع ذلك جزئياً إلى حدث مأساوي، تم بعده تعليق السباقات: لم يتم التجديف في تلك المياه مرة أخرى. أمطرت السماء بغزارة في الأسبوع السابق، في نفس الوقت انخفض مستوى النهر، على الرغم من أن قوة التيار قد هدأت. لكن مع ذلك، فقد تقرر عقد سباق القوارب، لأن الكثير من المياه كانت قد ركبت هناك مكونة بركة واسعة مما أخفى مستوى انخفاض المياه الشديد. خلال التجربة الحرة، انجرف أحد القوارب وانقلب، سقط الطفل الذي يركب القارب في وسط النهر مع اثنين من المجدفين، الذي لا يكبرني كثيراً. كان الآخرون محظوظين بما يكفي لسقوطهم على الجانب الآخر، مما أتاح لهم فرصة التثبيت ببعض الفروع على الشاطئ، تمكنوا من الخروج من الماء بمساعدة بعض المشاهدين. اختفى الصبي واثنان من المجدفين على الفور تحت الماء وسرعان ما جرى جرهم بواسطة تيار المياه السفلي، دون إعطاء الوقت لأي شخص على مساعدتهم. من وقت لآخر، كانت الذراع تبرز عند نقطة، ثم سرعان ما تبرز أبعد من تلك النقطة بكثير. على بعد بضعة كيلومترات أدناه، في المياه الراكدة، دفعهم النهر نفسه إلى الشاطئ، بالفعل جثث. عندما تم اكتشافهم، نقلوهم إلى أحد المروج، حتى جاء الطبيب والقاضي. كانت المرة الأولى التي أرى فيها جثثاً في حياتي، منتفخة ومصابة بالكدمات، المجدفان والطفل... الطفل، الطفل، اللبن الأسود للبلاء يمر عبر عروقي ويؤلم أكثر ثانياً جسدي الخفية.

كنت أسير جنباً إلى جنب مع أبويّ على المنحدر، وكنا على بعد حوالي خمسين متراً من المنحنى الحاد الذي يؤدي إلى التقاطع المجاور للنهر، عندما مر بنا خوسيه ماري، جارنا، على دراجة، حيث اعتاد على مقابلة صديقه في الحي أدناه. عند مروره بنا، قام بعزف سيمفونية تحية على جرس الدراجة.

بمجرد أن غاب عن ناظرنا عبر دخوله المنحنى الضيق، وصل إلى آذاننا صوت احتكاك صفائح معدنية تجر على الأرض، مصحوبة بانفجار متكرر ينذر بنتيجة خطيرة. بمجرد توقف الضجيج، نما إلى سمعنا صراخ خوسيه ماري. حرر والدي يدي وبدأ يركض نحو أسفل التل. أتذكر تأثري الشديد بطريقته في الركض، والتي كانت مختلفة تماماً عن طريقته المعتادة في الحركة. كان الأمر كما لو أن زنبركاً قد انكسر مما أطلق العنان لتلك القوة المخفية بداخله منذ سنوات شبابه. عندما هرعت أنا وأمي إلى المنحنى، رأينا خوسيه ماري ممدوداً على كتفه، ووالدي راكعاً بجانبه. توقفت سيارة والسائق في محاولة لنقل الدراجة. أتذكر أنني بقيت أراقبها. لم تبد إصابتها بعطب جسيمة، يمكن فقط رؤية الجنزير مفككاً ومرفرفاً غير ثابت. في البداية،

ظننت أن خوسيه ماري اصطدم بالسيارة، لكن في تلك اللحظة علق السائق:

– لا بدَّ أنه انزلق هناك.

فصل الخريف. أوراق الأشجار المتساقطة نصف مبتلة بسبب الأمطار المستمرة في الأيام القليلة الماضية جعلت بعض المناطق في الشوارع، لا تزال رطبة، زلقة، كما لو يغشاها الزيت.

قام السائق بركل أوراق الأشجار مرة أخرى باستياء.

– قال والدي لخوسيه ماري محاولاً طمأنته: «سنأخذك إلى بيتريكيو».

أوماً خوسيه ماري بالموافقة، وأضاف:

– لقد خلعت كتفي.

عرض السائق نقل المصاب. ثم بحرص شديد ساعداً خوسيه ماري على المشي إلى السيارة وقاما بوضعه في مقعد الراكب. ذهبت إلى الخلف مع والدتي، بينما أخذ والدي الدراجة سيراً على الأقدام بنية ركنها في أحد القضبان، حتى يتمكن خوسيه ماري من استلامها ونقلها إلى ورشة التصليح. في الطريق، انتاب خوسيه ماري شعور بالم شديد في كتفه، وتسببت وضعية جلوسه في وكز مستمر، مما جعله يتنفس بصعوبة. عندما وصلنا إلى منزل بيتريكيو الذي كان يعيش بالضبط في الحي أدناه، توقفنا أمام الباب وركضت والدتي نحو البوابة، بينما ساعد السائق خوسيه ماري على الخروج من السيارة.

نزل بيتريكيو على الدرج، وكان وجهه كما لو أنه لم يمر وقت طويل على استيقاظه من غفوته.

قال لخوسيه ماري وهو يتحسس كتفه في موضع الخلع: «هذا لا شيء يا فتى».

قام بإبعاد ذراعه قليلاً عن جسده، ووضع سترة مطوية تحت الإبط، وبحركة حادة، جعل الذراع يصدر صوتاً اخترق جمجمتي واستمر صداه في ذاكرتي كما لو أسمعته في هذه اللحظة بالذات. لقد ترك انطباعاً لدي بأن اسم

«بيتريكيو» سيظل مرتبطاً إلى الأبد في ذهني بذلك الصدع الذي أصابني بالقشعريرة.

لم يصرخ خوسيه ماري. ظل شاحب الوجه، مما اضطر كلاً من والدتي والسائق إلى محاولة تهدئته، معتقدين أنه على وشك الانهيار.

– «هذا كل شيء»، قال بيتريكيو.

بعد ذلك، وقف أمام خوسيه ماري الباهت، وأمسك بكلتا يديه، كما لو كان يحييه بكلتيهما، ونظر إليه كما لو يتفحص ارتفاع وشكل كتفيه، وفجأة ألقى بإحدى يديه إلى الأسفل آخذاً خوسيه ماري على حين غرة، الذي صرخ هذه المرة، كما لو أخذ ضربه فجأة دون أن يتوقع ذلك، ثم بعد فترة، عاد اللون إلى وجنتيه.

قال خوسيه ماري، بعد أن شعر بتحسن: «شكراً لك. بكم أدين لك؟».

رفع بيتريكيو يده بإيماءة إنكار إنه لا يدين له بشيء.

– أنا لا أعمل أيام الأحد، يا فتى.

بذراع معلق في رقبته، ذهب خوسيه ماري إلى موعد صديقه التي لا بد أن انتابها قلقٌ شديدٌ بالفعل من التأخير. وصل والدي على الفور، وتركنا الدراجة في حانة وذهبنا إلى متجر المعجنات، حيث تناولت كعكي المفضل: قنبلة كريمة.

ظل هذا «الصدع» في البروز داخل جمجمتي لفترة طويلة، وقد نحت نوعاً من النقش في ذاكرتي. صوت مثل هذا يشير بالنسبة إليّ شيئاً مثل مواجهة الموت وجهاً لوجه، مثل صوت ينطق بـ «افتح يا سمسم» عند المدخل، ليس لفتح كهف مليء بالكنوز، ولكن للسماح بدخول كآبة رهيبة، شيء عنيد لا يرحم. منذ ذلك اليوم فصاعداً، ارتبط اسم «بيتريكيو» في ذاكرتي بصورة تمزيق الحاجز الذي قادني عبر أبواب هاديس من خلال صدع قطع خيط الحياة.

لم يكن غريباً إذن، بينما كانت والدتي جالسة على حافة الأريكة ثم ذكرت اسم بيتريكيو، أن دوى ذلك الصدع المرعب في رأسي مما أدى إلى منع تدفق الحياة في جمجمتي مرة أخرى. على أية حال، انمحت ذكرى ذلك الضجيج المهدد من ذاكرتي على الفور فقط عندما رفعت رأسي ونظرت

إلى ساقِي حيث شعرت بألم شديد. صرخت لدرجة أن والدتي قفزت عليّ، في محاولة لحمايتي، وكأنها تضع نفسها بيني وبين الوحش الذي يجهز عليّ.

الرعب الذي شعرت به من ظهور مارو المفاجئ في السقيفة والسقوط الناتج عنه لم يبد شيئاً تقريباً مقارنة بالرعب الذي شعرت به عندما رأيت قدمي تنفصل من الداخل إلى الخارج، من الأسفل إلى الأعلى، وساقِي تنثني بزاوية عكسية، مكسورة في المنتصف مثل فرع نبات قد ينفثق.

عندما رأيت البيتريكو يظهر على عتبة باب غرفة المعيشة، لم تتمكن والدتي من احتضاني، وتوجب على والدي مساعدتها لمنعني من النزول من على الأريكة ومحاولة الزحف بعيداً، وحبس نفسي في الحمام، الصدع، الصدع، الصدع.

– يا الله! ما هذا؟ انزعج بيتريكو بمجرد رؤية مظهر ساقِي.

دون أن يتوقف لحظة أو يمنحني الوقت للتفاعل مع كلماته، أمسك بقدمي وجذبها.

لم يكن هناك صوت صدع واحد فقط، ولكن ثلاثة أو أربعة، سريعة، حادة... ثلاث أو أربع هزات تسببت لي في ألم لدرجة أنني أوشكت على الجنون.

– يا لك من غبي! صرخت بكل قوتي، ثم فقدت وعيي.

عندما استعدت وعيي، كانت ساقِي في جبيرة صلبة. أعطى بيتريكو زجاجة لأمي.

أفركي ساقه بهذا بلطف شديد مرتين يومياً، ثم وضعها في الجبيرة مرة أخرى.

– لمدة كم يوم؟ سأل والدي.

– أربعين. أربعين يوماً. ثم تقوم بإزالة الجبيرة ثم يبدأ في المشي شيئاً فشيئاً. إذا ما طرأت مشكلة ما، أحضره إليّ على الفور.

– ثم؟ سأل والدي، مستهجنًا.

لم ينبت بيتريكو بنبت شفّةٍ.

– إنه كسر سيئ للغاية. من الأسوأ. سيكون أعرج مدى الحياة.

غطت والدتي فمها بيديها مانعة صرخة من الصدور.

بعد أربعين يوماً من المعاناة، اضطررت للذهاب عدة مرات إلى منزل بيتريكيو، الذي دلكني بمراهمه الغامضة واستطاع استعادة ساقي بشكل أفضل مما توقع البعض، لكنه لم يمنع ذلك من أن تكون أقصر وأنحف من الأخرى، وبهذه الطريقة حُكم عليّ بأن أعرج لبقية حياتي. منذ ذلك الحين، ارتديت كعباً مزدوجاً ونعلًا إضافياً بداخل حذائي الأيمن، وأصبح عرجي أقل وضوحاً، لكنه لم يمنعني من الجري والقفز، على الرغم من أنني أفعل ذلك بطريقة غريبة جداً. في باطن الأمر، من الواضح أنني كنت محظوظاً. قام بيتريكيو بعمل جيد.

لم يخطر ببالي أن أقول كلمة واحدة في المنزل عن لقائي مع مارو في السقيفة التي تقع بالقرب من خوسيه ماري، في منتصف صف من الأكواخ التي تحدد بعض البساتين وتستخدم لتخزين الأدوات أو تربية الحيوانات سواء كانت أرانب أو دجاجاً أو بعض الخنازير...

قلت في المنزل إنني سقطت من عليّة سقيفة خوسيه ماري، ذات الباب المفتوح دائماً، لأنه لم يكن يحتفظ بأي شيء ذي قيمة بداخلها. ذكرت قصة معقولة للغاية. في كوخ خوسيه ماري، هناك شيء ما يجذب جميع الأطفال في الحي: عربة قديمة عديمة الفائدة كنا بها نلعب، خاصة في الأيام الممطرة. لذلك، ابتلع والداي القصة التي أخبرتهم بها دون مزيد من الأسئلة.

كنت قد تسللت إلى سقيفة مارو من خلال حفرة، تلك التي في الماضي يستخدمها الدجاج الذي رباه والد مارو في الدخول والخروج، الذي مات بسبب السرطان عندما كان مارو مجرد صبي، ثم في منتصف فترة المراهقة فقد والدته أيضاً وكتب عليه البقاء وحده في المنزل المتهدم الذي ورثه مع السقيفة والبستان.

حدث أن دخلت من خلال الفتحة التي اعتاد الدجاج على المرور عبرها. لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لي. أولاً، أدخلت رأسي، ثم بعد ذلك مددت ذراعيّ على طول جسدي، معتمداً في عملية دفعي إلى الأمام على قدمي، تمكنت من تمرير كتفي، والباقي كان سهلاً يسيراً. ذهبت إلى الدور العلوي، حيث صعدت بعناية سلماً مكسوراً نصفه. بمجرد صعودي إلى الطابق العلوي، انتظرت حتى تتأقلم عيناى مع الظلام في العلية المضاءة بشكل خافت

بواسطة بعض أشعة الضوء التي دخلت من خلال الشقوق بين البلاط ومن خلال بعض الشقوق في الجدار. عندما بدأت عينا في تحديد ما تراه أمامها بوضوح، رأيت بعض الصناديق الخشبية، واثنين من الصناديق المتهالكة، أقمشة وملابس قديمة، وبعض القمامة التي لا قيمة لها. فتحت أحد الصناديق وبحثت فيه بدقة: لفت انتباهي كتابٌ يغشاه الغبار الكثيف، الذي أزلته لقراءة العنوان، ولم أتمكن من رؤية سوى جزء منه: «... شوت دي لا مانتشا»، وجدت أيضاً بعض المناظير مكسورة الزجاج، وساعة جيب بدون زجاج أو يد... ولكن بغض النظر عن مدى صعوبة البحث في الصندوق، لم أتمكن من العثور على ما قد تكبدت عناء الصعود إلى هنا لأبحث عنه، لأنني علمت أنه إذا فاجأني مارو داخل السقيفة فأنا في خطر التعرض للضرب المبرح، وذلك في أفضل الحالات، لأنني كنت متأكداً من أن مارو قادر على إخفاء شخص ما دون أن يعرف أي شخص موقعه، إن الصورة التي صنعناها نحن الأطفال لهذه الشخصية قائمة للغاية.

كنت على وشك البحث في الجانب الآخر، عندما سمعت خطى تقترب من السقيفة. ركضت نحو الدرج واستعددت للنزول للفرار من الطريق الذي دخلت منه، لكن الصورة البشعة لمارو غطت المدخل بالفعل:

– ما الذي تفعله هنا، بحق الجحيم؟

## 2

انقلبت حياتي رأساً على عقب عندما وصلت المعلمة الجديدة، امرأة سمراء شابة صغيرة ذات ابتسامة رائعة:

أديلا. أرادت أن ندعوها بذلك: أديلا، بدون ألقاب. ليس مثل السيد خوليو، مع «السيد»، الذي بدا لي وكأنه رنين إنذار الجدية، على أي حال، بالنسبة لي، ترددت في مناداته بـ السيد خوليو، بالنسبة لي كان خوليو هكذا ببساطة، رفضت أن أعتبره أفضل من المعلمة اللطيفة. على الرغم من معارضة خوليو، الذي كان مدرس الصبيان، تمكنت أديلا من جعل الإدارة تسمح بالتدريس المختلط، وضم الفصلين الوحيدين في مدرسة الحي وتقسيم الطلاب حسب العمر. بقي خوليو معنا، كبار السن، لكن أديلا علمتنا الفرنسية والموسيقى والجرف اليدوية. بالإضافة إلى أولئك الذين تقدموا للحصول على البكالوريا مجاناً، فقد منحتنا ساعة أخرى يومياً، دون أي مقابل ماديٍّ إزاء ذلك، وهو أمر لم يكن ذا وقع جيد على خوليو، لأن هذا يعني سحب الطلاب خلال الساعة الخاصة التي كان يدرسها يومياً بشكل جماعي.

في سن العاشرة، قبل وصول أدبلا، فضلت أن أظل على الهامش في المدرسة، ليس بسبب حالة العرج لدي على وجه التحديد، على الرغم من أن الأمر لم يكن في صالحه أيضاً، ولكن بسبب المضايقات المستمرة والقاسية التي عانيت منها، من خوليو والأطفال الآخرين ضاحكين مصفقين دون إبداء أدنى تضامن نحوي. حدث في ذلك الوقت، قبل بضعة أشهر من وصول أدبلا، لا أعرف كيف، أن نشأ في داخلي حب لنظم الشعر لم أقو على كبتة، ربما كطريقة للتعويض من خلال الخيال عن الإعاقة الجسدية التي أحملها معي. الحقيقة أنني حفظت الأبيات القليلة التي وقعت في يدي، سواء من القصائد الهزيلة التي وجدتتها في الكتب المدرسية ومن الأغاني التي سمعتها في الكنيسة أو في الراديو. لقد قلدت تلك النصوص بكل طريقة يمكن للمرء تخيلها، بحيث امتلأت دفاتر ملاحظات صفي بالقصائد في كل مكان، بالإضافة إلى قطع لا نهاية لها من الورق التي احتفظتُ بها على منضدة غرفتي. ذات يوم، بينما يصحح خوليو كشكول الاختبارات الخاص بي تراءى له تصفح صفحات أخرى. عندما صادف قصائدي، ارتسمت على وجهه ملامحٌ سخريةٍ لم تخفِ حالة الدهشة التي اعترته تماماً.

– أوه! ماذا لدينا هنا؟

ثم بدأ في قراءتها بصوت عالٍ، بألحان وتنغيم مبالغ فيهما، مستهزئاً حتى بالفواصل التي كتبتها. شارك الأطفال الآخرون في السخرية مع المعلم المخيف، ولكن هذه المرة ليس خوفاً من انتقامه، ولكن طواعية، وضعوا أيديهم على قلوبهم، وأعينهم تنظر نحو سقف الغرفة، متكئين في مقاعدهم، كما لو صدموا. رأيت نفسي ضائعاً. عرف خوليو كيف يزعجني لأقصى الدرجات، اعتماداً على أهوائه. مرت العديد من الأيام وجد خوليو نفسه في حاجة إلى مهرج ويختار أحد الأطفال كمادة للسخرية، باحثاً عن أي تفاهة ليسخر منه أمام الآخرين، وحقنه بكل ما لديه من سُم. هذه المرة جاء دوري. شعرت كأنني محكوم عليه أمام جلاده. المعلم الغول، الوحش المخيف من ناحية، الساخر السخيف من ناحية أخرى، أشار إلى أنه لا ينظم الشعر إلا المخنثون. أسوأ ما في الأمر هو أن الأطفال الآخرين وجدوا الأمر على قدر من التسلية أكبر من الأوقات الأخرى، لأنه لا يوجد شيء أكثر تسلية من رؤية شخص يغرس فينا خوفاً رهيباً وهو يلعب دور المهرج.

– «يا له من فتى أعرج! انظروا من أين لنا بشاعر غاضب في الفصل. ولسنا على دراية بذلك يا لك من أقزل!»، أنهى جوليو سخريته عندما توقف عن القراءة.

سبب سماع تلك الكلمة الصغيرة، المجهولة للأطفال، في إضحاك الصف بأكمله لدرجة أنني احتفظت بلقب أقزل لسنوات عديدة. منذ ذلك الحين، عندما أراد خوليو الاستمتاع على حساب الشاعر الأقزل، ممسكاً بالمفكرة التي اختطفها في ذلك اليوم المؤسف، يقرأ إحدى قصائدي، ويفخم النعمة، ويظهر مهاراته التفسيرية الرهيبة. بعد تلك الحلقة حرصت على عدم كتابة القصائد في دفاتر التدريبات الخاصة بي. لقد فعلت ذلك في دفتر ملاحظات منفصل، أحتفظ به في المنزل بأمان. تخيل خوليو بالفعل أن هوايتي لن تتوقف، مطالباً بإبداعاتي الجديدة من وقت لآخر، بمزيد من الإصرار في كل مرة.

– «دعونا نرى، أقزل. اقرأ لنا آخر قصيدة كتبتها. أين تحتفظ بها؟ ألا تلتخ دفاتر الفصل بروائعك... هذا الهراء، بعد الآن؟».

انفجر الفصل بأكمله ضاحكاً.

– أجبت ورأسي لأسفل: «لم أعد أكتب».

– حسناً، حري بك فعل ذلك. سيفوتنا الكثير من المرح. هل تفهمني يا أقزل؟

سخر الأطفال الآخرون مع المعلم، مستغلين المناسبات النادرة التي يسمح لهم الغول بالمرح دون الاضطرار إلى البقاء متوترين ويقظين في انتظار من سيحصل على الصفة أو الضربة التالية. عند إصرار المعلم على طلب قصائدي، اعتاد الآخرون على الرد بالتصفيق وترديد لقبني: «أقزل، أقزل، أقزل». كان خوليو بوجه راضٍ وابتسامة متنمرة يقرأ قصيدةً أو أكثر من الدفتر المصادر، مع إيماءات مسرحية سيئة الذوق.

لم أبح بشيء من ذلك في المنزل، لقد احتفظت بكل شيء في أعماقي وتحملت قدر استطاعتي، ولم أترك الدموع تتدفق ولو مرة واحدة، وهو أمر اعتبره خوليو بطريقة معينة تحدياً، وهكذا، زاد من حدة الضغط عليّ يوماً بعد يوم، مثل رمي زجاجة في الهواء ليرى متى ستنكسر. عقد العزم على هدم آخر معاقل كبريائي وإهاتني تماماً. لكنني صمدت، بينما تمادى، حتى بعد ظهر أحد الأيام، وصل في حالة مزاجية سيئة سكران بعض الشيء، أصر على أنه يتعين على الأقزل إظهار إبداعاته الجديدة للصف كله، لأنهم لم يعودوا مستمتعين بالقديم، يرغبون في المزيد. رد زملائي بالتصفيق: «أقزل، أقزل، أقزل». أبقيت رأسي منخفضاً، ونظراتي ثابتة على ركبتيّ، لقد كان شيئاً ساعدني على التركيز والشعور بأنني بعيد عن هذا الجحيم، كانت أفضل

طريقة للدفاع عن نفسي ضد تهكمات خوليو الخرقاء وهجماته الكلامية. أصر المعلم، بدا عليه الغضب. أمر اثنين من رفاقي بتفتيش حقيبتى لمعرفة ما إذا كان بإمكانهم العثور على أي شيء. أطاعوه دون سؤال، وسط ضحكات متوترة من بقية الفصل، لكنهم لم يحصلوا على شيء. أبقيت نظري ثابتاً على ركبتي طوال الوقت.

– قال رفيقاي عندما انتهى من تفتيش حقيبتى: «لا يوجد شيء يا معلم».

– «ارفع رأسك!»، أمرني خوليو بنبرة فسرّها الفصل بأكمله على الفور: النكات انتهت.

كان هناك صمت مكهرب. رفعت رأسي وركزت نظري على شعر خوليو لتجنب النظر إلى عينيه. لم يستطع أن يكسرني بنظرته، أدركت ذلك، حيث إن بصري لم يقابل بصره مطلقاً، لكنني لم أخفض عيني أيضاً.

– «في التو تذهب إلى منزلك ثم تعود ومعك الأبيات التي كتبتها، أعطيك خمس دقائق»، أمرني بصوت منخفض.

خفضت نظري، ثم ثبته على ركبتي مثل الأظافر، ولم أبرح مكاني.

– أربع دقائق.

تفوح رائحة الخوف من صمت رفاقي. لم يعودوا سعداء بالوضع. بقيت جالسا، رأسي إلى الأسفل.

– ثلاث دقائق.

عندما انقضت الدقائق، نهض خوليو ببطء واقترب من طاولتي. كنت أعرف ما سيأتي، مثل رفاقي تماماً، لذلك ثبتت مرفقي على المنضدة وغطيت رأسي حتى أذني. أمسكتني إحدى يدي خوليو من شعري، ثم رفعت رأسي بعنف، بينما أفرغت الأخرى صفة على خدي، وأخرى في الاتجاه المعاكس على الآخر.

– إلى المنزل، تأتي بالقصائد!

مع الدموع في عيني، لكن متجنباً البكاء، وقفْتُ فجأة وصرخت في وجهه بكل قوتي:

– ابن العاهرة!

فقد «خوليو» السيطرة، وبدأ في ضربني بقبضتيه. قاومت وابل اللكمات بأفضل ما أستطيع ثم سقطت مثل الذبيحة في الممر بين المقاعد، موشكاً على فقدان الوعي. عندما تعافيت قليلاً، رأيت الأطفال الآخرين متشبثين في مقاعدهم مثل التماثيل، يحدقون إلى الأمام مباشرة، ولا يجرؤون على تحريك عضلة في وجوههم. ظل خوليو بلا حراك، يتنفس بصعوبة ويشد قبضتيه. بعد فترة، أمسك سترتي ورفعني، وأجلسني على المقعد مثل الدمية.

– «اقرأوا!»، أمرنا.

أخذ كل واحد موسوعته وشرع في القراءة. الصغار، الكراسيات. ظللت ساكناً، رأسي لأسفل، ولم أتحرك حتى لفتح الحقيبة.

– «أنت أيضاً يا أقزل!» اقرأ!

لم أتحرك. فتح زميلي بجواري حقيبتى وبدأ بإخراج الموسوعة.

– «دعها!، اتركها يأخذها بنفسه»، أمره خوليو.

– «ابن العاهرة» همست بين أسناني، لكن مسموعة بوضوح، في خضم ذلك الصمت الجبري، لم أكن أعرف بالضبط ما إذا كنت أتحدث أم أن هناك صوتاً آخر يقوم بذلك من داخلي.

سلط خوليو عينيه نحوي، محاولاً تقييم الأمر، غير مصدق ما أدركته أذناه للتو. ثم نهض، وفكر في الأمر بشكل أفضل. بقي الأطفال الآخرون وأعينهم مثبتة على الكتب، دون قراءة سطر واحد، متوترين، منتظرين ما سيأتي مرة أخرى.

أخيراً تحدث خوليو: «يا أقزل، أيها المثير للاشمئزاز. اخرج من الفصل، واذهب إلى المنزل، ولا تعد إلى هذه المدرسة اليوم أو أبداً إذا لم تكن قصائدك الصغيرة الغامضة معك».

لم أتحرك من مكاني هذه المرة أيضاً. ثم، وقف خوليو، وجاء إلى طاولتي، ورفعني عن مقعدي بيد واحدة، وأمسك الحقيبة بيد أخرى، وأخزني خارج الفصل، وألقى بحقيبة في الممر، ودفعني، ورجع إلى الخلف عدة خطوات

ثم أغلق الباب. كان لا يزال أمامنا ساعة قبل انتهاء الدروس. ذهبت مباشرة إلى المنزل ووجدت والدي مستلقياً تحت الشاحنة المتوقفة أمام البوابة، مشغولاً بإحدى عمليات الإصلاح التي يقوم بها بشكل متكرر. عمل كناقل في شركة تعدين في الوردية الصباحية. في فترة بعد الظهر، كان يحصل أحياناً على بعض التوصيلات، وفي أحيان أخرى يبقى في المنزل يتفقد الشاحنة أو يزرع الحديقة. بالمرور بجوار الشاحنة، لم أنحن مثل الأوقات الأخرى للنظر حولي - أحببت أن أشاهد كيف يعمل والدي، لأن الميكانيكا جذبتني حقاً - لكنني واصلت السير بسرعة نحو البوابة.

- ناداني والدي «خوانيتو، تعال. لماذا لست في الفصل؟».

أخرج رأسه من تحت الشاحنة، ثم عندما رأى وجهي المتورم، قفز مثل نمر، مرتدياً قميصه الملطخ بالدهون، وبداه السوداوان تلوحان بمفك براغي في إحداهما.

- «ولكن، من فعل ذلك بك؟ هل تشاجرت؟».

لم أجه، وأبقيت رأسي منخفضاً، ولم أنظر إليه. ثم نظر إلي والدي، الذي عادة لا يمهلني حتى أجيبه عندما يسألني عن شيء ما، بصرامة، وأمسك يدي بيده الدهنية، وأعادني إلى المدرسة. دفع باب فصل الأولاد بمقبض مفك البراغي.

- هيا ادخل!

فتح والدي الباب ودخلنا الفصل. ظل خوليو مرتبكاً في مقعده. تغير وجهه ظلت عيناه الخائفتان تنظران إلى اليدين المسودتين لوالدي الذي كان يلوح بالمفك مثل خنجر.

- أعد ابني، أيها المعلم. الصف لم ينته بعد. إذا ما ارتكب خطأ ما، أرسل لي ملاحظة إلى المنزل.

اصطحبني إلى مقعدي وغادر دون أن يقول وداعاً. بالطبع، لم يتم استلام أي ملاحظة من المعلم في المنزل. منذ ذلك اليوم فصاعداً، لم يقرأ خوليو قصيدة أخرى بصوت عالٍ ولم يمد يده عليّ مرة أخرى، لكن الأمر بدا كما لو أنني مت بالنسبة إليه، لم يتحدث معي مرة أخرى، باستثناء إعطائي بعض الأوامر المقتضية، فقط في حالة الضرورة القصوى. منذ ذلك الحين، أصبحت قطعة أثاث في الفصل. من ناحية، كان ذلك مصدر راحة بالنسبة

لي، لأن المضايقة والسخرية قد انتهتا، ولكن من ناحية أخرى، من الواضح أن مثل هذا الموقف لم يكن مريحاً على الإطلاق، وهو مثبط للهمة بالنسبة لطالب ذي فضول واهتمام بالتعلم. في مثل هذه الظروف حضرت امتحان القبول للبيكالوريا وكانت النتائج متوقعة.

لكن في سبتمبر، وصلت المعلمة الجديدة، أديلا، ودودة ومبتسمة، ومهتمة بكل الطلاب، سواء كانوا من الأولاد أو الفتيات. معها تغيرت حياتي. في الأشهر التالية، شغلت شخصية المعلمة الجديدة ذهني بالكامل. الآن أدرك إلى أي مدى رسمت لها صورة مثالية، لكن كيف لا أمثل شخصاً رفعتني إلى الجنة، وأنقذني من حليم مضايق بشكل متزايد! مرت بضع سنوات منذ ذلك الحين، بدت لي قروناً، وعلى الرغم من أن الحياة أضفت على الصورة المضيئة والدافئة لمعلمتي لوناً أسود، مثل صورة عذراء متألّمة، إلا أن التعبير المحبوب لوجهها لا يزال حياً ونقياً في ذاكرتي، دون أن تفقد ولو ذرة من قوتها العاطفية، التي ما زالت تحركني من الأعماق.

في اليوم الأول من شهر سبتمبر، ظهرت أديلا في المدرسة وحدها، لأن خوليو لم يكن يحضر عادة حتى عشية بدء المدرسة. اتصلت المعلمة الجديدة بالطلاب الذين فشلوا في امتحان القبول بالمدرسة الثانوية، وتحدثت إلينا على النحو التالي:

– تبقى لنا خمسة عشر يوماً على الامتحان في سبتمبر. دعونا نحاول مرة أخرى، سنعمل بجد. حسناً؟

أعطتنا طريقتها في التحدث إلينا، والتي اختلفت تماماً عما اعتدنا عليه حتى ذلك الحين، شعور بالسعادة الفورية. لم يكن لدي أمل في النجاح في سبتمبر. لم أفكر حتى في تقديم نفسي. لقد تجاهلني خوليو تماماً، وكان الخيار الوحيد المتبقي لي في المدرسة هو الاستفادة مما كنت أسمعهم وأقرأهم، والصمود حتى بلوغ الرابعة عشرة من عمري. وذهبت إلى العمل كمتدرب ميكانيكي، وهو أكثر ما أعجبنى في ذلك الوقت، لدرجة أنني أمضيت الصيف كله في تجميع وتفكيك دراجة نارية قديمة كانت تخص عمي والتي تولى عنها في مرآب والدي. في بعض الأحيان، زاد شغفي تجاه سيارات والدي تحمساً، حتى أنه بدأ يساعدني ويعطيني التعليمات. حاضرتني قائلاً: «لكي تصبح ميكانيكياً جيداً، بالإضافة إلى كونك ماهراً جداً في استخدام يديك، يجب أن تكون لديك أذن حادة جداً». الميكانيكي الجيد، فقط من خلال الاستماع إلى ضجيج السيارة، يخمن أين يكمن العطل.

بدأت ألاحظ الأصوات المختلفة الصادرة عن محركات المركبات التي تمر عبر الحي. اكتشفت أن شاحنة والدي لا تصدر نفس الصوت عند تشغيلها لأول مره أو عند العودة من رحلة طويلة، أو عند العودة إلى الخلف أو عند الحركة البطيئة للسرعة الأولى، عند الاتجاه صعوداً أو هبوطاً... تمكنت من تخمين أي جار يمر في سيارته بجوار منزلي، بسبب ضجيج المحرك: الدراجة المستعملة التي اشتراها خوسيه ماري للتو، من نوع بولتاكو ميترايا دي مارو<sup>(2)</sup>، دراجة من نوع فيلوسوليكس<sup>(3)</sup>. للجار الآخر ضخم الجثة ذات الإطارات التي تكاد تلامس الأرض بسبب الوزن الذي يكاد يحطم العجلات.

وصول أديلا أثار شيئاً بداخلي، تأجج بروبتها فقط، بداخلي شعور بأصوات لا حصر لها تكافح من أجل شق طريقها، ليس عن طريق الحلق، ولكن مباشرة عن طريق القلب، حيث عانت من سجن قاس، محكوم عليهم فيه بحبس عنيد ومهين، حيث غرقت جميعها في إهانات شخصية. الابتسامة الأموية والخرقاء في نفس الوقت أزالتي بلطف رداء الاحتقار الذي يعتريني. عندما نظرت إليّ أديلا، حولتني إلى شخص آخر. تجولت عيناها على وجهي وشكلته بضربات خفيفة. بمجرد وجودها تختفي الملامح المتجهمة لوجهي. بمجرد أن التقيتها، علمت أنني سأعود إلى كتابة القصائد بحماس متجدد، بعد عدة أشهر من الجفاف والعقم. منذ اليوم الأول من شهر سبتمبر كنت أعمل بجد للدراسة، مثل رجل ممسوس. في الليل، اعتادت والدتي الدخول إلى غرفتي عدة مرات، لتحتني على النوم، وفي النهاية اضطرت إلى إطفاء الضوء، على الرغم من عدم غضبها، مع بعض الصداقة الحميمة المتبادلة.

حصلت على امتياز في اختبار الدخول. في المنزل أقمنا حفلة. أمي، التي ظلت صامتة لأشهر طويلة، تشهد بلا حول منها ولا قوة فشلي في المدرسة، كانت سعيدة جداً بالتغيير الذي حدث في ابنها لدرجة أنها دعت أديلا لتناول العشاء وأعدت لوح حلوي ذراع عجري<sup>(4)</sup>، فقط وحدها تعرف كيف تصنعه. في ذلك اليوم، فاجأتني أديلا: أخبرتنا أنها نباتية، على مدار تلك السنوات، كان ذلك شيئاً لم يسمع به في منطقتنا. ازدادت الصورة الغامضة لأديلا التي زورتها في مخيلتي غموضاً يوماً بعد يوم.

بعد العشاء، ذهب والدي إلى الفراش، لأنه كان عليه أن يستيقظ في الرابعة صباحاً، حبست أمي نفسها في المطبخ لغسل الصحون. بقيت أنا وأديلا في غرفة المعيشة، نبحت في ألبوم صور أحضرته والدتي، تم ترتيبه بطريقة تجعلني أظهر بينما أنمو منذ طفولتي المبكرة. في ذلك الوقت، دفعت أديلا الألبوم جانبا، وحدثت في وجهي:

– كيف أخفقت في يونيو؟

التزمت الصمت، وكانت إحدى الصور تصل إلى أنفي.

– أنا فقط لا أفهم ذلك، خوانيتو.

اكتسب اسمي على شفيتها نعمة ملائكية. من بين الأطفال في الحي، يمكن عد أولئك الذين نادوني خوانيتو على أصابع اليد، الذي في ذلك الحين تم استبداله بالفعل بلقب الأقرع، على الرغم من أنه كان أمراً شائعاً أن ننادي بعضنا بعضاً بالكنية، حيث كان لكل طفل كنيته: كان هناك لحم خنزير مقدد، شوربة، جريل، حمار، ضفدع، فرخة، حذاء...

– أصرت أديلا: «لديك أكثر بكثير مما أظهرته في اختبارات العام الماضي. شيء ما حصل؟ ألا تريد أن تخبرني؟».

انتفضت مثل سوسته، وركضت إلى غرفتي وعدت مع دفترين مليئين بالقصائد التي حفظتها من براثن خوليو.

– يكمن هنا كل شيء يا معلمة.

أمسكتهما بيديها اللطيفتين، وقرأت بعض القصائد بشكل عشوائي.

– هل كتبت هذا يا خوانيتو؟

أوماًتُ مؤكداً. نظرت أديلا في عيني بهذا الوهج النفاث الذي أذابني في الداخل.

– بالنسبة لعمرِكَ فهي جيدة جداً، رغم أنني لا أفهم علاقة هذه القصائد ب...

أمسكت بيدها بحسم وسحبتهما إلى غرفتي، حتى لا تسمع والدتي ما كنت سأعترف به. بمجرد دخولي، أغلقت الباب وجعلتها تعدني بعدم التحدث عن ذلك مع والدي أو أي شخص آخر. ثم أخذتُ نفساً عميقاً وأخبرتها بكل شيء بالتفصيل. ارتسمت على وجه أديلا ملامح جدية مفرطة. اكتسبت الملامح الناعمة لبشرتها الداكنة حزماً شديداً.

– «لا تخف، خوانيتو. سأساعدك... أقسم بأبي!».

فهمت بعد عدة سنوات معنى تلك الكلمات، «أقسم بأبي». أردت أن أجيها بأنني لا أحتاج إلى مساعدة، وأن هذا الأحمق جوليو لم أعد أعيره أي اهتمام، وأنه خسر احترامي وخوفي منه، وفي أعماقه يهابني أكثر مما كنت أهابه...، ولكن اختنقت الكلمات في حلقي بسبب الانفعال، ولم أتمكن إلا من إيماء رأسي موافقاً على كل ما قالته لي أديلا.

في بقية الدورة، استمر جوليو في معاملتي كقطعة أثاث. من ناحية أخرى، اهتمت أديلا بي أكثر فأكثر، تحدثت إلى والديّ واخبرتهم بأنها رأت إمكانيات كبيرة لدي، وأنها ستقدم لي كل المساعدة. تحولت إلى حاميتي. استفدت من الساعات التي كان عليّ أن أقضيها مع جوليو لأقوم بالمهام التي أرسلتها لي أديلا ولأدرس المواد التي أشارت عليّ بها. عندما كان لدي وقت فراغ، كنت أكرس نفسي لقراءة نسخة دون كيشوت التي أعارتني إياها أديلا، رأيتها على الرف في غرفة المعيشة بشقة المعلمة في مناسبة معينة عندما صعدت لأحضر لها بعض الخضراوات التي وضعتها والدتي في كيس من أجلي.

– هل يمكنك إقراضها لي؟ سألتها على الفور.

بمجرد أن رأيتها قمت بالربط بين تلك النسخة ونسخة أخرى مغطاة بالتراب داخل صندوق بين ظلال ذكرياتي.

– حاولت أديلا إقناعي بابتسامة: «الأمر صعب بعض الشيء عليك يا خوانيتو».

لكنني أصرت. ظهرت في ذهني صورة الكتاب المغبر من الجذع القديم في علية كوخ مارو.

وافقت قائلة: «حسناً. إنه أحد أفضل الكتب في العالم. إذا تابرت، فسوف تفهمها في النهاية وستقضي وقتاً ممتعاً».

وقد كان. في البداية، كان من الصعوبة بمكان بالنسبة لي أن أسلك درب ذلك الخطاب الذي بدا لي غريباً وقديماً، لكنني تابرت: قرأت الفصل الأول عشرات المرات، ثم سارت الأمور بسلاسة، حتى أصبح من أفضل الكتب التي قرأتها في حياتي وأكثرها إثارة. لقد اجتذبتني لدرجة أنني اضطررت لقراءة فقرة كل يوم. فهمت البداية الشهيرة عن ظهر قلب. منغمساً في القراءة، شعرت أنني كنت أعيش في منزل دون كيشوت، وأني من يغادر برفقته مع سانشو لتصحيح الأخطاء، معلقاً في ريش طواحين الهواء، أتناول

العشاء في منزل صاحب الفندق، وأتسم إلى دولسينيا السمينة... عشت في ذلك العالم، كنت أحد أبطال الرواية، في مثل هذه الحالة النقية، كنت أذوقها بكل أعضائي من بطني، مروراً بمعدتي وقلبي، إلى فمي... طعم لم أذوقه منذ أن كنت طفلاً صغيراً جداً ألعب مع من هم من نفس عمري أمراء وأميرات وسائقي شاحنات وخياطين وطهاة وأطباء... شعرت بسعادة عارمة. الآن أنا على يقين بأنني كنت سعيداً في ذلك الوقت، لا أرى ما يمكن أن تكون السعادة أيضاً: أراد عقلي أن يلم بكل شيء، وأن أتعلم كل شيء، وأن أعرف كينونة كل شيء، امتلاً قلبي حتى التضخم بالرضا، أحببت بكل جوارحي، خاصة أدبياً، ولكن أيضاً والدي، كما لم أحبهما من قبل، وحتى زملائي في الفصل، أولئك الذين نادوني بأقزل، وأعتقد حتى أنني أصبحت أكن تقديراً لخوليو الذي بدا لي في حينه رجلاً مسكيناً، مدرساً حزيناً متجهاً إلى موت سيئ، بدون صديقة، بعيداً عن أرضه، يعاني من مشاكل تعيق تكوينه صداقاتٍ، وحيداً، يهوى الصيد لقتل الوقت، ومولعاً تماماً بالكونياك.

في العديد من الأيام، اعتدت الصعود إلى منزل أدبياً لأسألها عن بعض القضايا، أو لأطلب منها كتاباً، أو لأعرض عليها قصيدة، لأنني عدت الي الكتابة مرة أخرى بوابل متجدد. في ذلك الوقت، كنت قد كتبت قصيدة خرقاء إلى حد ما، وصممت أدبياً على صقلها. في بعض الأحيان، في منزلها، تمسك بيدي مساعدة إياي على تحسين فن الكتابة. شعرت بقرب وجهها جداً من خدي، ودفء شفيتها يكاد يلمس أذني، وشعرت بطعم السعادة يغمر حلقي مرة أخرى، وينقلني إلى جنة أكاد أشعر بها، حيث وددت البقاء إلى الأبد، مثل تلاميذ يسوع على جبل طابور. عندما استمعت إلى هذا المقطع الإنجيلي في قداس الأحد، كنت أعرف بالضبط إلى ما يشير، وعرفت ما شعر به الرسل الثلاثة الذين اختارهم السيد، وعرفت المذاق الذي تثيره تلك النشوة في الحلقي، في سقف الفم، كنت أعرف سبب رغبتهم في البقاء هناك إلى الأبد، لأنني أردت أيضاً استدامة تلك الحالة من السعادة الفائقة.

– «هذا يكفي اليوم، خوانيتو. عليك أن تعمل بمفردك».

كمقابل للوقت الذي كرسته أدبياً لنا نحن ذوي الدراسة المجانية في المدرسة الثانوية ولأولئك الأطفال الذين واجهوا صعوبات في مواد معينة – لأن خوليو تخلى عن أولئك الذين لم يتبعوا الوتيرة التي حددها، متهماً إياهم بعدم بذلهم المجهود المرجو منهم، لأنه لم يكن على استعداد للتعامل مع مستوى أقل من المحدد، لأنه على حد قوله، هو إن الشيء الوحيد الذي تم تحقيقه هو أن الكسول يمسي أكثر كسلاً، كانت تلك نظريته – طلبت هي منا التحدث إليها بالباسكية، وسألنا عن هذا وذاك، وشيئاً فشيئاً كونت قاموسها

الخاص وقواعدها اللغوية. بعد بضعة أشهر، بالفعل تمكنت من التواصل معنا باللغة الباسكية في المواضيع البسيطة، بالإضافة إلى ذلك، مع أولياء الأمور ومع الناس في الشارع، اعتادت على بذل الكثير من الجهد للتحدث معهم بلغتهم، على الرغم من اضطرارها بعد فترة للتخلي عن ذلك والتحول للتواصل باللغة الإسبانية، خاصة مع الأشخاص قاطني الريف. ومع ذلك، لم تتوان أدبلا عن تحقيق هدفها، بنفس الطريقة التي حثتني بها على المثابرة، فعلت ذلك في مجالها، تكيفت أذنها الموسيقية الجميلة بسرعة مع النطق بالأصوات المعقدة جداً، حتى تتمكن من التواصل بحرية مع الجميع. استمتعنا جداً نحن الأطفال بالطريقة التي نتحدث بها لغتنا، خاصة بسبب طريقة نطقها الغربية، والتي كانت جداً غير مألوفة، ولا تشبه على الإطلاق اللحن المميز لأطفال المهاجرين من الأندلس أو إكستريمادورا الذين تعلموا الباسكية من خلال التفاعل معنا، ولم تكن تشبه لا من قريب ولا من بعيد طريقة تحدث العجر الذين دأبوا على الذهاب كل عام لشراء الخردة المعدنية أو الخردة القديمة أو المراتب الصوفية. كانت نغمة أدبلا فريدة وغريبة، ولم أتفهم الأمر إلا بعد سنوات، لقد جاءت من كتالونيا، وعندما تعلمت لغة الباسك مع الأطفال، استحضرت نغمات وطريقة نطق من طفولتها، والتي أدرجتها – ربما دون وعي – فيما علمناها إياه. طريقتها في التحدث إلينا بدت مضحكة، حلوة، محببة للغاية في نفس الوقت، إذا ما قد حازت على عواطفنا بمجرد وصولها، فكم بالأحرى استحوذت على قلوبنا بهذه الطريقة الغربية في محاكاتها، كان الأمر أشبه بالتحدث إلى شخص من عالم القصص الخيالية، مع نوع سنووايت.

على وجه التحديد، في أيام الشتاء الملبدة بالغيوم عند انقطاع التيار الكهربائي، قبعت المدرسة في ظلام دامس.

– «لا يمكن للشخص التدريس في ظروف مثل هذه». في ذلك الوقت دأب خوليو على الغضب وإرسالنا إلى المنزل بينما يذهب هو إلى الحانة.

بعد ذلك، عوضاً عن العودة إلى المنزل، طرقتنا بأطراف الأصابع باب فصل أدبلا. كنا نعلم باعتبارها رواية قصص وحكايات من طفولتها عندما تنقطع الكهرباء.

في الشتاء، في كل مرة تهدد السماء فيها بعاصفة، ندعو من أجل «أن يحالفنا الحظ» وتنقطع الكهرباء، حتى يذهب خوليو إلى الحانة بوجهه المقرف، وتتمكن من الفرار واللجوء إلى فصل الأطفال... الصغار، للاستماع إلى قصص أدبلا.

من جانبه، لم ينظر خوليو بإيجابية موقف شريكته من التحدث معنا بالباسكية، مطالباً إيانا بالتحدث باللغة الإسبانية فقط خلال الفصل، لأن هذا ما يلزمنا به القانون معرباً عن عدم رغبته في التعرض لمشكلات مع التفتيش، لأنه كان مدير المدرسة. بالنسبة لخوليو امتزجت بداخله الغيرة مع العناد الأيديولوجي. الغيرة، كونه انزعج من نجاح أدبياً بين الأبناء والأهالي، من ثم عناد أيديولوجي، كونه ضد أفكارها، حيث إنه أحد أنصار النظام. وفي نفس الوقت، شعر خوليو بشيء آخر تجاه المعلمة.

### 3

ظننت أنني اكتشفت قصة خفية في نظرة أدبياً كان لها صدى مثل سلسلة من متناقضات، حينئذٍ تذكرت كلمات والذي الذي قال إن الميكانيكي الجيد لا بدّ وأن يكون ذا أذن جيدة قبل كل شيء، مثل تلك الخاصة بالموسيقي الذي يستنبط النغمات والإيقاعات الأساسية من مختلف مظاهر الحياة اليومية.

أفضل موسيقي عرفته في طفولتي كان عازف الأرغن من الحي الذي أسكن فيه، ريميخيو، الذي اعتبرته ساحراً، لأن إخراج الموسيقى من خلال الأصابع على لوحة من الأزرار، في رأيي، كان سحراً، طالما حضرت عاجزاً عن الكلام. في مناسبة معينة، كنت ألعب بمقلعتي، عندما مر ريميخيو، ظل ينظر إليّ ليرى الهدف الذي عليه أصوب. صوبت على بوابة، وأطلقت وأصبت أحد القضبان العمودية.

– «ري!» – لحن ريميخيو.

انتابنتي حالة من الذهول، أمسكت بحجر آخر واصبت صفيحة مستديرة من أسفل البوابة.

– «مي!» – غناها وابتعد نحو الحانة.

مفتوناً، ركضت إلى المنزل للحصول على مدرج الموسيقى الذي أعطيته في احتفال الحكماء الثلاثة، معتقداً أن ريميخيو ربما كان قد سخر مني بمقاطع اسمه، ري مي. ركضت عائداً، وأمسكت بحجر وضربت الحديد الرأسي أولاً. لقد بحثت عن ري في السلم الموسيقي التي تتفق مع درجة الصوت الطبيعي، ولدهشتي وجدت أنها تتوافق ودرجة الصوت التي صدرت من

الحجر عند اصطدامه بالقائم الحديدي. نفس الشيء حدث للقشرة: لقد تزامن مع النغم.

بدأت في استقبال الواقع كشبكة من الأصوات واكتشفتُ المراسلات الصوتية في كل ما يحيط بي. المواقف، الناس، الأحداث... كل شيء كان له موسيقاه الخاصة. بنفس الطريقة التي تمكنت بها من تمييز المركبات عبر الضوضاء الصادرة عنها، اعتقدتُ أنني ألتقط ألحاناً مختلفة في جميع الكائنات التي تربطني بها معاملة. كانت هذه هي الطريقة التي اكتشفتُ بها في أدبها نغمة خفية ومأساوية سحيقة، تطغى على نغمة حلوة وملائكية أخرى.

– أدبها، أوصفي لي نفسكِ حينما كنتِ طفلة؟ سألتها ذات يوم، وشعرت أنني أطرق باباً يختبئ وراءه خطر جم.

نظرت في عيني:

– ليس هناك الكثير لروايته يا خوانيتو. قصتي هي الأكثر شيوعاً: طالبة، مدرسة...

لقد ترددت قليلاً، لكنني رميت بالجملة التالية:

– في عينيك الكثير من الحزن...

– «ماذا تقول؟» ضحكت أدبها، لكنني لاحظت اضطراباً معيناً في نبرة صوتها.

أمسكت وجهي بين يديها، ناظرة في عينيّ بذلك التألق النفاث، ثم قالت:

– ترددت قليلاً قائلة: «خوانيتو. يوماً ما... عندما تكبر قليلاً...، الحياة أحياناً...».

أفلتت وجهي وصمتت. ثم أخذت ذراعي بلطف، وسحبته نحو المطبخ، ثم فتحت الخزانة، وأخذت قطعة من الشوكولاتة، وكسرتها إلى قطعتين.

– هل تريد القليل من الشوكولاتة؟

قدمت لي إحدى القطعتين وأخذت قزمة صغيرة من الأخرى، اقتربت من النافذة ثم رمت بناظرها بعيداً في الأفق الممتد، وعيناها تنبشان الماضي.

– الحياة مثل الشوكولاتة، خوانيتو. لها جانبها المر والآخر الحلو، ولكن عليك تذوق كليهما في نفس الوقت.

أحياناً ما يحدث أن تذوق الحلو في الحياة يقودنا إلى طريق الهلاك، والمر إلى طريق النجاة، أحياناً. كما في أسطورة أوديب<sup>(5)</sup>، الذي أدى به انتصاره ومجده إلى الهلاك. ظن أوديب أنه حل لغز أبي الهول: «أي الكائن ذو الصوت الواحد» يمتلك في بعض الأحيان أربعة أقدام، وفي أحيان أخرى قدمين، وأخرى ثلاثة أقدام؟ الرجل، يمشي على أربع وهو طفل، عندما يكبر في السن يمشي على اثنتين، وكرجل عجوز يحتاج أيضاً إلى عصا. كانت الإجابة واضحة وبينة، ولكن داخل اللغز كان هناك لغز آخر، ولم يدرك أوديب ذلك: «أن تكون بصوت واحد». حذره أبو الهول من شيء مخفي في اللغز. كان لأوديب صوتان، مثل الشوكولا التي تحتوي على حلاوة ومرارة في نفس الوقت، لو كان لقصته مقصد واحد فقط، لما جلب أوديب سوء الحظ لمدينة طيبة. تماماً مثل أوديب، نال البشر أصواتاً متعددة: أنا، أنت، هو، ذلك، هويتنا تتعثر تحت رحمة ذلك العيب الأصلي الذي يهدد بإصابتنا بالعمى.

الإنسان ذو الصوت المزدوج أو الثلاثي. قصة مخفية تتدلى دائماً من وراء بصره، حياة معلقة، لغز لا يعرف حتى هو نفسه الإجابة عليه.

– أخبرتني أديلا وهي تقضم قطعة أخرى من الشوكولاتة: «الأمور ليست دائماً كما تبدو، خوانيتو».

وأضافت أنهم ليسوا حتى كما يقولون. وفقاً لها، عندما ناداني الأطفال الآخرون بـ الأقرع، على الرغم من اعتقادهم بتحقيقي، ففي أعماقهم يبدو إعجابهم بي، لأنهم رأوني كشاعر، لكنهم تصرفوا بهذه الطريقة لأن الأمر بدا غريباً بالنسبة إليهم. متأثراً، ثبتُّ نظري على شعرها الأسود، المجدد والمعلق على الجانب، فوق عين واحدة، ويسترسل بهدوء على عظمة وجنة واحدة. كنت في حالة سكر بين، صدقت كل ما قالته لي، وشعرت أنني بحالة جيدة، متخلصاً من الألم والعجز الذي اعتدت حمله معي.

– إلى جانب ذلك، لا يناديك الجميع بالأقرع، أنا لا أفعل ذلك، ولا والداك. وهذا يعني أيضاً شيئاً. حاول أن تفهم ما يعنيه ذلك.

التمت الصمت. بماذا يمكنني أن أجيب؟ شعرت بأنها تتحدث معي بلغة أخرى.

– هذا، يا خوانيتو، يعني شيئاً لا نهائياً. عليك أن تتعلم كيف تتكئ على ما هو جدير بالاهتمام وتنحي الآخر جانباً، دون ازدراءه.

– نعم، لكنني لن أتوقف عن كوني أعرجاً طيلة حياتي، ليس هناك من تحول في ذلك، لقد جاء من العدم.

– بالنسبة لقدمك لا، لكن عقلك...

نظرت إليها في حيرة من أمري. ما علاقة عقلي بالعرج؟ أخبرتني أن أنظر حولي، وأتابع الأشخاص ذوي الأرجل القوية، وأن أستمع جيداً إلى ما يقولونه وأن أنتبه إلى طريقة تصرفهم، وسأرى كيف أن جميعهم تقريباً عرجي: عرجي الكلمات، عرجي المشاعر، عرجي الأفكار، عرجي الخلق.

– استمع بعناية لما سأقوله لك يا خوانيتو: في الكتابات المصرية القديمة يقال إن الإنسان يحتفظ بداخله بماسة خشنة. لزام علينا صقل هذا الكنز، والعناية به، والعمل على إنمائه، وعدم تركه يضيع.

– لا أعلم أي شيء عن هذا الكنز، أدبلاً.

– إذا لم تحيا حياة البلهاء، فسوف تكتشف ذلك يوماً ما. ستري.

هزرت كتفي.

– «حسناً، لقد أنجزنا ما يكفي من الواجبات المنزلية لهذا اليوم»، قالت وهي تمسك بي من كتفي وتدفعني بلطف نحو المخرج. «هيا، اركض إلى المنزل، لقد تأخر الوقت».

بعد عدة سنوات – ربما قرون، حيث إن الزمن يتحرك بسرعة الأمواج، بين قمم السعادة وصدوع المحنة، وتعيش مثل العلكة بلا نهاية – أدبلاً، في سريرها، تعاني من مرض خطير، في أحد الأيام بينما جالسين بمفردنا قالت لي: «خوانيتو». بلغ طولي ستة أقدام بالفعل، لكنني ما زلت خوانيتو بالنسبة لها. لماذا توجب علينا أنا وأنت أن نولد في أزمنة وأماكن مختلفة؟ تقاطعت أقدارنا مثل مصير الأم والابن.

تنهدت بعمق.

– الأوقات، خوانيتو، الأوقات. لا يوجد وقت واحد. هناك أوقات لا نهائية تفصلها الهاويات.

أمسكت بإحدى يديّ مداعبة إياها.

– هل تتذكر اليوم الذي سألتني فيه، بكل جدية، بعيون متفحصة ونظرة نقية كطفل، عن طفولتي، وأخبرتني أنك رأيت شيئاً في عيني، حزناً خفياً؟

– أجبها: « نعم أتذكر ».

– « لقد اكتشفت بالفعل ماهيته ».

لقد اكتشفت فعلاً يا للأسف.

– لم تكن قصة طفولتي طويلة جداً، لأنهم عندما يقصوا طفولتك بالمقص، لا يمكن حينئذ أن تطول الرواية.

كنت في سن المراهقة عندما أدركت تاريخ عائلتها. كان والدها مدرساً وناشطاً شيوعياً وعضواً بارزاً في معهد التعليم الحر. خلال الحرب الأهلية قاتل مع الجانب الجمهوري، وأصبحت أفكاره الشيوعية أكثر راديكالية، وانتهى به الأمر بالانضمام إلى حزب العمال الماركسي، وهو حزب يساري متطرف لم تبقَ منه أيُّ آثار بعد هزيمة الجمهوريين. عندما دخل الفاشيون إلى برشلونة، حاول والد أديلا الفرار، أخذاً زوجته معه، لكنه تعرض للخيانة على وجه التحديد من قبل مدرس آخر، زميل في معهد التعليم الحر، عضو في الحزب الشيوعي، وهو حزب شارك فيه والد أديلا قبل الانضمام إلى حزب العمال الماركسي. عرفه هذا المعلم على شخص للتواصل معه لعبور الحدود، لكنه في الواقع كان يرسله مباشرة إلى عرين الأسد، إلى منزل الفاشي الذي سلمه على الفور إلى جيش فرانكو. ما حدث أن والدة أديلا كانت محظوظة، لأنهم سمحوا لها بالعودة إلى المنزل دون مزيد من اللغط. من اللافت للنظر أن الحزبين الشيوعيين كانا عدوين لبعضهما بعضاً عندما اعتادوا القتال في نفس الجانب والقتال من أجل الهدف الأسمى للشيوعية. لكن مثل هذا الحدث لم يكن أكثر من نسخة مصغرة من الإبادة التي نفذها ستالين<sup>(6)</sup> ضد المعارضة بدءاً من رفيقه تروتسكي<sup>(7)</sup>. عانت والدة أديلا من محنة ما بعد الحرب، حيث حُكِم على زوجها بالإعدام وكان على وشك الإعدام عدة مرات، حتى توصل رجل داهية إلى طريقة أفضل للقضاء عليه: لقد جعلوه مدرساً غير مدفوع الأجر في معسكر شبابي لفرانكو. مكلفاً بتوجيه السهام الشابة وترسيخ روح الوطنية ورفع راية الفاشية وغناء النظر

نحو الشمس (8). وغيرها من الأناشيد النابية، تحت التهديد بالانتقام من زوجته ومولودته. لم يعيش طويلاً في تلك الحالة، حيث توفي بنوبة قلبية، عندما كانت أديلا صغيرة. عملت الأم بشدة لإعالة ابنتها ودفع مصاريف دراستها، وقد تمكنت من ذلك وحققت الهدف الذي حددته لنفسها: تمكنت من جعل أديلا تتعلم التدريس وأصبحت امتداداً لأبيها، عاد للحياة مرة أخرى داخل تلك الفتاة الصغيرة، ولكن المليئة بالحياة. بمجرد حصول أديلا على وظيفة، لم تعش والدتها عاماً. ماتت كمن ينام بعد يوم مرهق.

من تلك القصة المريرة استخرجت أديلا شيئاً وجدته مطمئناً: الابتسامة العريضة التي ارتسمت على محيا والدتها لحظة وفاتها، مما يعني أنها حققت هدف حياتها الذي عوضها عن الضرر الذي بدا يتعذر إصلاحه وأعاد زوجها إلى الحياة بطريقة ما. كانت تلك هي القصة التي عكستها عيني أديلا عندما كنت طفلاً، والتي عزفت لحناً مأساوياً في عينيها.

عززت الرائحة النفاذة للمرض من الذاكرة اللاذعة للأزمة الماضية. مدت أديلا ذراعيها نحوي وطلبت مني احتضانها.

– أمسكت بي بقوة من رقبتني ثم قالت: «خوانيتو. لا تصبح أعرجاً عقلياً أبداً. ترى كيف تعرقلت. لقد ضربت عرض الحائط بحلم أمي، لقد طمست تلك الابتسامة التي ارتسمت على شفثيها على فراش الموت...».

– لم يتح لك فعل ذلك بأي طريقة أخرى، أديلا. لم يتح لك ملئ الفراغ بأي طريقة أخرى.

– لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك، فقط لم أستطع.

#### 4

أنساءل كيف شغلت ثغراتي، حيث إنني قد تمكنت من تصحيح أخطائي أو تقليلها على الأقل. أديلا حكمت عليّ بحنان، بعيون أم، وقللت من عيوبي، ومع ذلك، تمكنت لاحقاً من رؤية كيف كنت مخطئاً، وكيف عرج عقلي بنفس القدر مثل جسدي، وكيف كنت على وشك ارتكاب – حيث إن دفعنتي الحياة إلى حافة الهاوية – أعظم موقف همجي حياتي.

يقول سينيكا في رسالته الأربعين إلى لوسيل إن الروح المقدسة تقبع في داخلنا، وتراقب شرورنا وتحرس بضائعتنا. ما هو الله؟ غير معروف، لكن الله

يغشانا. ربما يكون هذا الإله هو الذي يرشدنا إلى السير باستقامة داخل أنفسنا، دون أي عرج. هذا الإله ليس دائماً إلهاً خيراً ورحيماً، ولكن في مناسبات وظروف معينة يصبح على النقيض تماماً، أكيلي مارو، مثل الإله الشيطاني الذي يهيمن على مارو، وأيضاً داخل كل واحد منا، أيما كانت درجة صلاحنا وعدلنا.

بعد ظهيرة كل يوم، عندما أغادر الفصل، كنت أحجز نفسي في المراب لأتدرب على الدراجة النارية القديمة وعلى محركين حصل عليهما والدي من إحدى مزارم السيارات. طلبت من والدتي أن تعيرني دراجتها القديمة التي ظلت في العلية لسنوات عديدة، دراجة نسائية كانت تذهب إليها للعمل في مصنع للورق على بعد بضعة كيلومترات من مقر إقامتنا. لقد تركت وظيفته عقب ولادتي، ولم تعد تتركها بعد الآن. بصبر قمت بتفكيكها، ثم تنظيفها قطعة قطعة، ثم إعادة تجميعها، طلاء الهيكل، وضع إطار داخلي وخارجي جديد عليها، وكذلك تيل الكابح، وثبت العجلات على دعامة ساعدني والدي في صنعها ببعض الألواح، وتركتها جاهزة للسير وزيارة الأحياء والبلدات المحيطة. انتهزت والدتي الفرصة لتستخدمني كصبي جلب وتوصيل، وهو شيء أحببته، إلا عندما أرسلتني إلى الخردوات، لأنني شعرت بعدم الارتياح محاطاً بالنساء اللواتي يتهاوسن فيما بينهن، وينظرن إليّ بشكل جانبي، في ذلك الوقت، كان من غير المعتاد أن يدخل جنس آخر غير النساء محلات الخردوات.

بعد ظهر أحد الأيام، عقب انتهاء اليوم الدراسي، قضيت وقتاً أطول من العادي في مرآب والدي، محاولاً تشغيل إحدى تلك المحركات القديمة، دون النجاح في ذلك. عندما صعدت إلى الطابق العلوي، أعدت والدتي كيساً من الكرات والسلق السويسري كي أحمله إلى المعلمة، كإشارة تقدير لمساعدتها لي في دراستي. على الرغم من أن الوقت قد تأخر قليلاً، أصرت والدتي على أن أذهب به إليها، لأنها قد تحملت عناء التحضير. اغتسلت، غادرت المنزل وذهبت إلى الفناء الذي يتم من خلاله الوصول إلى كل من المدرسة ودرج منازل المدرسين والمراحيض العامة. صعدت الدرج اثنتين اثنتين حتى وصلت لاهتاً إلى باب شقة المعلمة. توقفت أمام الباب وانتظرت حتى تهدأ وتيرة تنفسي وضربات قلبي. بعد فترة، كنت على وشك طرق الباب، عندما سمعت صوتاً قادماً من منزل أديلا، صوت رجل. وضعت أذني على الباب وحبست أنفاسي.

– اصمتي، أيتها الحيوان، سترين ما سأفعله بك!

سمعت ذلك بوضوح شديد. رفعت رأسي بعيداً عن الباب من الرعب. ردت أديلا ضاحكة على بذاءات، من... من خوليو! لا يمكن أن يكون صحيحاً، ليس من الممكن أن يجمع هذين الشخصين غير المتوافقين، بل الأعداء، مكان واحد. كان قلبي ينبض بشدة لدرجة أنني شعرت بأنني على وشك الإغماء، كنت خائفاً من الانهيار على الباب. أخذت نفساً عميقاً، محاولاً السيطرة على توترتي، تركت الحقيبة على جانب الباب ونزلت الدرج، مرتبكاً بين شعورين متضادين يتقاتلان مع بعضهما بعضاً مهددين بتفجير صدري: من ناحية، شعرت بالغضب لدرجة أنني أردت أن أعود أدراجي، وأصعد الدرج بغضب ثور، وأكسر الباب وأرمي نفسي على ذلك الكائن البغيض والخسيس، وأضربه بلا رحمة، ثم أبصق على كليهما، نعم، أيضاً على أديلا، من ناحية أخرى، امتلأ صدري بحزن عميق لدرجة أن عقلي لم يحتج لأكثر من ثوانٍ بالنسبة لي لفقدان الشعور ومن ثم السقوط على الدرج.

بغض النظر عن عدد المرات التي فكرت فيها بالأمر، لم أستطع فهم ما يحدث: خوليو، رجل النظام، وإش، كما يشاع في الحي، كائن أناني غير قادر على التفوه بكلمة طيبة مع الأطفال، كائن من هذا القبيل، «على علاقة» بفتاة ثورية مثل أديلا، حتى إذا تركنا جانباً أيديولوجية أستاذتي وتاريخها العائلي، الذي كان الكثير لتجاهله، في السلوك النفسي، في السلوك المدرسي وفي الحي، في التعامل مع الأطفال، كانا غير متوافقين تماماً. لم أفهم ذلك من أي وجهة نظر، ولكن قبل كل شيء ما يؤلمني هو الشعور بالنزوح والاحتقار والسخرية، يؤسفني...

– خطأ، أكثر من خطأ! – قمعت صوت صراخي بقبضتي قبل الخروج إلى الشارع، في زاويا المدخل، عاصماً أصابعي حتى أدميتها.

بمجرد وصولي إلى المنزل، أخبرت والدتي أنني أعاني من صداع ودخلت السرير. عندما دخلت الغرفة ثم بعد فترة دخلت والدتي مع كوب من الحليب الساخن والأسبرين، تظاهرت بالخلود للنوم، ولم تزعجني هي. لم يغمض لي جفن طوال الليل، أخذت في إدارة رأسي من جانب إلى آخر، وكذلك جسدي، تمكنت من تهدئة نفسي لوهلة، مفكراً في أن أديلا يمكنها أن تفعل ما تريد في حياتها، وأني كنت مجرد صبي صغير مدلل بعد كل شيء، وأن هذا كل ما في الأمر، وليس لي من حق في التدخل في شؤون معلمتي. ومع ذلك، بعد فترة، عاودتني نوبة الغضب مرة أخرى وكنت أقمع صراخي عن طريق عض الوسادة والضغط على وجهي حتى أكاد أختنق. في إحدى لحظات الهدوء القصيرة، مع غرق ذهني في نوع من الذهول، تجولت في الغرفة مثل إنسان آلي، واقتربت من رف الكتب، والتقطت كتاباً

عشوائياً، والذي تبين أنه مجموعة مختارة من خرافات إيسوب<sup>(9)</sup>، وبدأت في القراءة بشكل عشوائي: «أوراكل والأشرار». تدور الحكاية حول رجل شرير يريد أن يسخر من أوراكل ويظهر في معبد دلفي<sup>(10)</sup> مع عصفور في يده، مخبأ تحت العباءة، بقصد سؤال أوراكل عما إذا كان الطائر حياً أم ميتاً، إذا أجاب أوراكل أنه على قيد الحياة، فسوف يضغط على عنق الطائر ويقتله على الفور، وإذا أجاب أنه ميت، فسيظهره حياً. ومع ذلك، فإن الإله، الذي يتكهن بنوايا الأشرار، يجيب عليه:

– هو حي أو ميت، كما تريد، لأنه في يدك لقتله أو تركه على قيد الحياة. يعلن إيسوب حقيقة أنه لا يمكن إخفاء أي شيء ولا يمكن لأحد أن يخدع الألوهية.

من الممكن أن خوليو الشرير لن يخدع الألوهية (أو الشيطان) المقيمة في روحه لفترة طويلة، من الممكن أن أدبلا لم تخدع إلهها الخير أيضاً. وهكذا، سيعود كل شيء إلى سابق عهده، كما كان من قبل. ولكن ماذا عني؟ من سيتذكر الأقزع الآن؟ هل سيكون هناك إله داخل الأقزع، إله حكيم، بدون عرج عقلي، مثل واحد من أوراكل دلفي؟ أم أن الأقزع لن يكون أكثر من عصفور، طائر عاجز عاش أو مات حسب إرادة الرجل الشرير؟ هل هناك أفضل من صورة الرجل الشرير في الحكاية للتعبير عن خوليو؟ وأنا، عصفور عاجز بأجنحة مكسورة، وأرجل مكسورة، ومنقار مكسور، وقبل كل شيء، ذو قلب مكسور. لم يتكلم الله إلا إلى الأشرار أو المتدينين، لا إلى العصافير.

في الليلة التي سعدت فيها إلى منزل أدبلا مع الخضار، كنت لا أزال غير مدرك لوجود مسخ كافكا<sup>(11)</sup>. إذا كنت قد عرفت القصة، لكنت قد تعرفت على الفور على غريغوريو سامسا، الذي لم يعد عصفوراً، بل خنفساء محبوسة في غرفة مقززة، تمقت من قبل أخت كان ذات يوم سواد عينها. في اليوم التالي، مكثت في السرير، متظاهراً بأنني أعاني من صداع. شربت عصير البرتقال الذي أحضرته لي والدتي وأخبرتها أنني أريد البقاء والنوافذ مغلقة، وأن الضوء يزعجني.

– «سيتعين علينا إخطار الطبيب» – نهتني إلى ذلك.

أجبت بغضب:

– «سيمر الأمر، اللعنة!»

بقيت أُمي جامدة. لم أجبها على هذا النحو من قبل قط. التقطت الأكواب الفارغة وغادرت الغرفة، محاولة إحداث أقل قدر ممكن من الضوضاء. في وقت الغداء، فقط شربت بعض الحساء، في السرير. أظهرت لي والدتي مقياس الحرارة، ولم تجرؤ على أن تطلب مني استخدامه. أخذته من يدها ووضعتَه تحت إبطيني. خرجت مع الطبق وأدوات المائدة، بعد فترة، عادت للتحقق من مقدار مقياس الحرارة المحدد.

– ليس لديك حمى.

لم أجبها. انسحبت بهدوء. بعد ظهر ذلك اليوم كان لدى والدي عملية شحن، ولم يأت لتناول الغداء، أخبرنا بأنه سيحضر على العشاء. قررت أن أستيقظ عند وصوله وددت إخباره بأنني بدأت أشعر بتحسن، لتجنب سماع الأسئلة من كليهما والإصرار على ضرورة استدعاء الطبيب. كانت تلك هي خطتي، في الوقت الحالي، لأنني لم أكن أعرف ماذا سأفعل في اليوم التالي إذا ما سأذهب إلى المدرسة، أو سأذهب في فترة ما بعد الظهر إلى فصل التقوية الذي أنشأته أديلا لطلاب المدارس الثانوية. لم أكن في وضع يسمح لي بوضع خطط لليوم التالي، لأنني حبست نفسي لأتجرع غضبي وبأسني، مثل شخص يقع في بئر موحل ويبدأ في الدوران داخله في يأس، دون التفكير في كيفية الخروج من هناك.

في حوالي الساعة السابعة بعد الظهر، رن جرس الباب. ظننت أن والدي نسي المفاتيح، لذلك نهضت وارتديت ملابسني، لأنه يحب تناول العشاء على الفور، يصل جائعاً ومرهقاً، ولا يريد التحدث في غير الأساسيات، أمر يناسبني تماماً، لأنني بهذه الطريقة أتجنب المحادثات المزعجة. في تلك اللحظة، انفتح باب الغرفة.

– «خوانيتو»، نظرت والدتي. «لقد حضرت أديلا».

– «هل يمكنني الدخول؟» – تقدمت أديلا بثقة، دون انتظار الإجابة. كنت جالسا على حافة السرير، عارياً من الخصر إلى أعلى. وضعت على تي شيرت وسترة، وظللت صامتا. دخلت أديلا الغرفة، وغادرت والدتي بتكتم، وأغلقت الباب خلفها.

– ما أمرك، يا خوانيتو؟» – سألتني أديلا بلطف. جاءت وجلست بجوارني. بدا عليها التردد، لكنها قررت أخيراً وضع ذراعها على كتفي. بقيت صامتا. بقينا

هكذا لفترة طويلة دون أن تتحرك، دون أن أتحرك، جامدين كتمثالين.

– كسرت أديلا الصمت قائلة: «هل هذا بسببي، خوانيتو؟ هل أنت في هذه الحالة بسببي؟».

تسارعت ضربات قلبي، لكنني تمكنت من البقاء ساكناً وهادئاً، مثل ذلك العصفور في أيد الرجل الشرير، وحياتي معلقة بخيط رفيع.

– أحضرت الخضار، خوانيتو. لماذا لم تطرق الباب؟

أدرت رأسي مثل زنبك، ونظرت في عينيها بغضب. ثم خفضت هي نظرتها.

حينئذ عملت أذن الميكانيكي لدي، تم تطبيقها على ظروف الحياة، عند اكتشاف أي خطأ فيها، يا له من ألم، ألم الروح!

تسارعت أنفاسي، كنت على وشك أن أصرخ فيها وأحاسبها، ماذا كانت تفعل مع خوليو؟ لماذا تتصرف كعاهرة؟

وقفت أديلا، أمامي.

– انظر، خوانيتو: أنا أكن لك وداً لم أكنه لشخص آخر، لكنني لن أسمح لك بالتدخل في شؤوني. إلى جانب، لا يوجد شيء جدي بيني وبين خوليو، هل تفهمني؟

تنهدت أديلا وواصلت الحديث:

– لا، أنت لا تفهمني الآن، لكن يوماً ما ستفهمني. الآن أريد فقط أن أبقى أفضل صديقة لك.

طبعت على جبتي قبلة مودعة وخرجت من الباب.

– سأكون في انتظارك في الصف بعد ظهر غد. لا تتغيب.

وصل والدي منهكاً، ولم نتحدث كثيراً على الطاولة، أفضل لي.

في الليل، حلمت بسقيفة مارو، سقطت على الدرج عدة مرات، لكنني لم أصل إلى الاصطدام بالأرض، وغرقت مراراً وتكراراً في حفرة بلا قاع. استيقظت غارقاً في نهر من العرق، قررت على الفور أنه كان يتعين عليّ

البحث في الدور العلوي لسقيفة مارو بشكل أوسع، لمعرفة ما إذا كنت سأجد ما بحثت عنه في زيارتي الأولى.

## 5

حب كما لو يجب أن تكرهه، أكره كما لو يجب أن تحب.

### سينيكا

على الرغم من حقيقة أن أدباً حادثتني ذات مرة عن سلامتي العقلية، فقد لاح لي بألم شديد أن استقامتي المزعومة ليست أكثر من صارٍ ممزق لا يحمل أيّ شرعاً لفترة طويلة عندما تصبح الأمور قبيحة.

في طفولتي وفي سن المراهقة، كرهت شخصين على وجه الخصوص، ضبعان أدياني أكثر من أي شخص آخر وألحقا بي جروحاً لا تمحى على الجسد والروح. حكم عليّ أحدهم أن أكون أعرج مدى الحياة، والآخر، وهو يفضح الأطفال، أحرقني من الداخل.

إذا لم أعرج في الداخل، لنسيت كلاهما، حتى سامحتهما، ومع ذلك، بعد فترة طويلة، لا يزال تتأجج داخلي حمم من تلك الضغينة المسببة للتآكل. مع مرور الوقت، تتشكل الكراهية الحقيقية، مثل الحب الحقيقي، مثل مادة غير قابلة للذوبان في الماء، والتي كلما زاد خلطها، زادت لزوجتها.

بعد اللحظة التي اكتشفت فيها العلاقة بين أدبلا وخوليو، واصلت حضور الفصل كذي قبل، على أي حال، انكسر شيء بيني وبين أستاذتي. كانت تحاول إعادة الأمور إلى نصابها بلطف، وكنت أترك نفسي أعاملها على هذا النحو، لكن النشوة والسعادة التي شعرت بها إلى جانبها لسنوات اختفت بجرة قلم. لا أستسيغ صداقتها، لا أتمكن من ذلك، وحتى في بعض الأحيان كنت أضغط على نفسي من أجل تعويض الوقت الضائع. على سبيل المثال عندما شاركت مع أستاذتي قطعة الشوكولاتة الداكنة المليئة بالذكريات الجميلة التي خلقت مزاجاً مشابهاً لتلك التي وصفها بروسست فيما يتعلق بالطعم المثير للذكريات. بدا أن الشوكولاتة توقظ حميميتنا القديمة وترابطنا، لكن المعجزة لم يكتمل إلا نصفها.

في ذلك الوقت تقريباً دخلت سقيفة مارو للمرة الثانية، بحثاً عما لم أجده في غارتي الأولى. راقبت السقيفة لأيام، أي درست حركات مارو، وجدوله

الزمني، وراقبت تفاصيل السقيفة، في انتظار أن يرتكب مارو خطأ من شأنه أن يوفر لي فرصة الوصول إلى مكان اختبائه السري للمرة الثانية، لأن جسدي قد تطور ولم يعد مناسباً لثقب الدجاج. وقد كان. يوم واحد ترك نافذة صغيرة مفتوحة جزئياً، فصل الشتاء، وبحلول السادسة بعد الظهر ألقى الظلام بظلاله بالفعل. حوالي الساعة السادسة والنصف، شققت طريقي إلى السقيفة بجانب البساتين، حتى لا يراني أحد. لم يكن من الصعب عليّ الوصول إلى النافذة الصغيرة، ليست عالية جداً، من خلال تسلق الحواف البارزة لجدار الباستا الحجري. ثم بمجرد دخولي، أغلقت النافذة، وقمت بتشغيل المصباح اليدوي الذي أحمله معي، ووضعت إحدى يدي أعلاه، كستار، بحيث أسلط الضوء على الأرض فقط، وصعدت الدرج. أطفأت المصباح، ووضعت في جيبتي، وصعدت إلى الدور العلوي في الظلام، قمت بالتأمين بعناية كل خطوة اتخذتها وأتحقق بهدوء من صلابة الدرجات. عند الوصول إلى الطابق العلوي، أشعلت المصباح اليدوي للتحقق مما إذا كانت الصناديق لا تزال هناك. كل شيء على حاله، كما لو أنه في كل تلك السنوات لم يضع أحد أقدامه هناك. فتحت الصندوق الأول ووجدت نفس الأشياء كما في المرة السابقة. أزلت الغبار عن الساعة القديمة ووضعتها في جيبتي. بعد بضعة أسابيع، أخرجت الساعة من درج مكتبي وقضيت عدة أيام في تفكيكها وتنظيفها جيداً، باستخدام مفك براغ جيد صنعته بسلك، ثم أعدت بناءها قطعة قطعة. آلية الساعة عملت، لكن ساعة الجيب لم يكن بها زجاج أو أذرع، لذلك كانت عديمة الفائدة بالنسبة لي. على أي حال، كان الغطاء في حالة جيدة، وعندما فتحته بدأت القليل من الموسيقى في الصدور، ذكرتني بفيلم غربي، كان للموت ثمن، حيث يواجه الأبطال بعضهم بعضاً في مبارزة، ثم يطلقون النار عندما تنتهي الموسيقى القصيرة.

في ذلك الوقت، في أيام الأحد، اعتدت الذهاب إلى سينما الحي حيث ألتقي أصدقائي من سكان الوادي، زميلين في الفصل، أحدهما أكبر والآخر في مثل عمري، قبلاني بشكل طبيعي تماماً على الرغم من سمعتي كشخصية غريبة. لقد كانت صداقتي الأولى في نطاق الشباب، على الرغم من أنها لم تؤت أكلها، إلا أنها ساعدتني على الأقل على الخروج من الدائرة الضيقة التي انحصرت فيها. لم أفتقد أبداً فيلماً غربياً، وأصبحت مغرمًا جداً بهذا النوع، بالإضافة إلى تلك التي شاهدتها في السينما، أتحت لي فرصة مشاهدة القصص الغربية على شاشة التلفزيون، لأن والدي اشترى جهازاً بالأبيض والأسود وأحضره في الشاحنة. يبدو أنها كانت صفقة، لأن صديقاً له عمل في بيانكي، وهي شركة مكرسة للإلكترونيات، قام بتجميع أجهزة التلفزيون في أوقات فراغه وبيعها بسعر جيد جداً. تحدث والدي كثيراً عن صديقه، على الرغم من أنني لم أتعرف عليه شخصياً، إلا أنه اعتبر فرداً من

العائلة. بدا لي هذا الشيء المتمثل في صنع أجهزة التلفزيون أكثر سحراً من تجميع وتفكيك المحركات الميكانيكية المتسخة.

– أين يمكن للمرء تعلم كيفية تصنيع أجهزة التلفزيون؟ – سألت والدي ذات يوم.

– من أجل ذلك، عليك دراسة الإلكترونيات يا بني، بل أفضل، الهندسة الإلكترونية.

في العلية، في الظلام، فتحت غطاء الساعة عدة مرات، للاستماع إلى المقطوعة الموسيقية الصغيرة، كما لو كنت أريد أن أثبت لنفسي أن لدي الشجاعة لمواجهة كل ما يأتي أمامي، أخطر شخص مسلح. نغمات المقطوعة الموسيقية تنبش الظلام، مثل مسامير صوتية لفتت انتباهي نحو السقف، على أمل أن تضيء فيها سماء من النجوم من لحظة إلى أخرى، هذا هو الشعور الذي أنبتته الألحان بداخلي.

قبل إغلاق الصندوق، أخذت في يدي كتاب دون كيشوت القديم، الذي لم يعد محتواه مفهوماً بالنسبة لي. من أنا؛ دون كيشوت أم سانشو؟ أو ربما شمشون كاراسكو الحاصل على درجة البكالوريوس؟ أو شخصية بائسة بلا اسم، مهمشة في أحداث الرواية؟ أعدت الكتاب إلى الصندوق، وأمسكت بالمنظار المكسور ونظرت عبره، مع ضوء المصباح، تم رسم منظر مختلف الألوان على الجانب الآخر. الآن أتذكر عدد المرات التي نظرت فيها من خلال مناظير الحياة، مكسورة وغير مجددة عبر الوقت وعبر المصير المظلم، أخدع نفسي بالشظايا الملونة التي أميزها كما في المشكال. مهجورة في هذا الصندوق القديم، تمثل المناظير بطريقة معينة كل جهدي لتذكر الماضي في نفق الزمن المكسور والمظلم، كل جهدي لاستعادة قطع الزجاج الملونة من ذاكرتي بتجاربي السعيدة أو غير السعيدة، لرسم مشهد من شأنه أن يضيء بعض المعنى على حياتي.

بعد أن أغلقت الصندوق الأول، فتحت الآخر، الذي لم تتح لي الفرصة للبحث فيه في زيارتي الأولى. هذه المرة كنت قد خططت لذلك، إذا ظهر مارو بأي فرصة في السقيفة، فسأقوم بإطفاء المصباح اليدوي والمكوث حيث أنا. هل سيكون انعكاس المصباح مرئياً من الخارج؟ الأمر ليس محتملاً، لأنني أبقيت إحدى يدي أعلاه عند الحركة، مركزاً الضوء داخل الصندوق. كان الصندوق الثاني مليئاً باللوحات القديمة والصور الأثرية لأشخاص لم أكن أعرفهم وبعض الصحف من الثلاثينيات، وتحديداً صوت غيبوسكوا، التي لم أسمع بها

من قبل. قرأت بعض الأخبار، بما في ذلك القضية الغامضة لاختفاء امرأة من قرية في موتيلوا. عكست تلك الصحف عالماً غير معروف تماماً بالنسبة لي، خيالياً مثل فيلم غربي. أخرجت كل تلك الأشياء من الصندوق، حتى، في غور الصندوق، وجدت أخيراً ما كنت أبحث عنه. قلت لنفسني: «ها هو ذا بالفعل».

أخبرني والدي ذات مره أن جد مارو كان يحمل سلاحاً إبان الحرب. شغل منصب كاتب المدينة وكان معروفاً بأفكاره المناصرة للجمهورية. من ناحية أخرى، عاش ناشط شيوعي أيضاً في الحي، وكانت علاقته بجد مارو على وجه التحديد هي الأسوأ على الإطلاق، كانت لديهما نزاعات سياسية مريرة في نقابة المحامين، المنتدى الوحيد للنقاش في تلك السنوات المضطربة. والدي، أحمق في ذلك الوقت، لا يتذكر ما كان يتجادل حوله ذلك اليوم كل من جد مارو والشيوعي حتى وصل الأمر إلى الاشتباك بالأيدي. كان الشيوعي يصرخ ويهدد الجمهوري، محتجزاً من قبل رجلين أخذه إلى الخارج بصعوبة، بينما حافظ جد مارو على هدوئه المتوتر، متكئاً على المشرب، دون أن تحرك فيه شيئاً إهانات الشيوعي، مع وهج في نظرتة يلاحظ عبر الجدران. تحدى الشيوعي، من الشارع، الجمهوري في مبارزة، الذي ما لبث أن أجاب على الفور: «متى وأينما تريد!». اتفقا على اللقاء في الساحة، في الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي.

بحلول الظهيرة، لم يكن من الممكن رؤية روح في ساحة الحي، لا طفلاً، ولا عجوزاً، ولا امرأة مع دلو الغسيل في طريقها إلى المغسلة، وهو أمر جرت عليه العادة في تلك الساعة. في بعض النوافذ، كانت الستائر مفتوحة قليلاً، وفي حالات أخرى، تم تمييز الوجوه المتربصة بوضوح. كان والدي ومراهقون آخرون قد سعدوا إلى كومة قش حيث يمكنهم مراقبة الساحة من فجوة بين الجدار والأفريز.

في الساعة الثانية عشرة ظهر جد مارو، وقف وظهره متكئاً على إحدى الأشجار في الساحة، وأخرج ساعة جيبه بيده اليسرى، وفتح الغطاء ونظر إلى الوقت. دوت الموسيقى القصيرة في الساحة الصامتة، كما لو كان حصان من الورق المقوى يطير في الهواء كتعبير بريء. احتفظ الجمهوري بيده اليمنى داخل جيب سترته، حيث يمكن للمرء تخمين ما بداخلها، مسدس، لم يره أحد من قبل، لكن لم يراود أحداً الشك في وجوده. سأله أحدهم قبلاً بشكل مباشر في الحانة، لكن الجمهوري كان دائماً ما يتجنب الإجابة، ويخرج دونما رد.

ظل جد مارو بلا حراك، متكئاً على الشجرة، مثل نمر يتربص خلف الأدغال. حوالي عشر دقائق خلت بعد الثانية عشرة، فتحت بوابة صغيرة من نهاية الطريق المؤدي إلى القرية حيث يقطن الشيوعي. قام هذا الأخير بإخراج رأسه، ورأى الجمهوري متكئاً على الشجرة، واضعاً يداً واحدة في جيبه، وتقدم إلى مركز الجبهة، ضابطاً حزام البندقية التي يحملها على كتفه. مشى على طول التل بوتيرة بطيئة، حتى السور، ثم عاد أدراجه، ثم كرر المشية، مثل ديك رومي يظهر «أسلحته». شاهده جد مارو دون أن يجفل، بيد واحدة في جيبه، مستعداً لسحب المسدس في أي لحظة. ومع ذلك، ذهب الشيوعي، بعد أن أخذ بعض الدورات بوتيرة بطيئة، نحو البوابة. قبل أن يختفي على الطريق، التفت على عقبيه، أمسك قبضته في البوابة وصاح:

– تحيا الجمهورية!

رفع جد مارو قبضته هو الآخر، دون أن يصبح بأي شيء. ذهب الشيوعي بالطريقة التي بها جاء، ولم يحدث شيء. أخرج جد مارو ساعة جيبه، ونظر إلى الوقت، وانتظر حتى انتهاء الموسيقى، وأغلق الغطاء، ووضعها في جيبه، وذهب بهدوء إلى الحانة، دون أن يرفع يده من جيب سترته طوال وقت.

في المساء، ظهر الشيوعي في الحانة وكان شيئاً لم يحدث، لكنه لم يتجادل مع الجمهوري مرة أخرى. بعد بضعة أيام، اندلعت الحرب. عندما دخلت المعارضة عن طريق نافارا، وصلوا إلى الحي في لمح البصر. كان الشيوعي وجد مارو في الحانة عندما أبرز أحدهم رأسه عبر الباب صائحاً:

– «النافاريون! إنهم يصعدون التل!».

ركض الشيوعي إلى الباب الخلفي للحانة، وقفز فوق جدار بستان مجاور وهرب في الاتجاه المعاكس للمنحدر الذي كان يتسلقه المعارضون، والذين فروا من الجيش في هذه الحالة، نحو الجبال. كانت تلك آخر صورة تركت في الحي عن الجار الشيوعي الوحيد في ذلك الوقت. لم يسمع عنه مرة أخرى. وقف جد مارو ينتظر في الحانة دون إبداء أي ردة فعل، حيث قبض عليه هناك.

أخذت المسدس في يدي، يزن الكثير. كان في يدي المسدس الأسطوري التي اعتقد الجميع في وجوده، ولكن لم يره أحد بعينه بتاتاً. وضعته في جيبى وواصلت البحث في الصندوق، في إحدى الزوايا، وجدت طلقتين. فحصتهما بعناية. أسيكونون في حالة جيدة؟ قمت بوضعها في جيبى أيضاً، ثم أعدت وضع الصحف واللوحات والصور الفوتوغرافية وبعض الأوراق مرة أخرى

داخل الصندوق. من بين الأوراق، كانت هناك بعض الأوراق التي تحتوي على أبيات مكتوبة بلغة الباسك بأسلوب أدب كورديل<sup>(12)</sup>. أبهرتني بعض الأبيات المخصصة لقتل كانوفاس<sup>(13)</sup>، التي ألفها بيرتسولاري تكسيريتا الشهير، الذي توفي قبل الحرب، ونسخها من الذاكرة الشفوية على الأرجح جد مارو، حيث تمت كتابتها بخط اليد. تم اختيار أحد المقاطع الموسيقية الفردية: «ثلاث ساعات، ثلاث سلاسل بثلاثة روابط/ثلاثة تيجان على الرأس، ثلاثة دبابيس على الصدر، حب في ثلاث طيات، حاد مثل البرق، ثلاث طلقات قتلت زوجك، ثلاثة سيوف مدببة، سيدتي، قلبك».

طويت الورقة ووضعتها في جيبي، جنباً إلى جنب مع المسدس والرصاص والساعة. ثم أغلقت الصندوق، ذهبت إلى الدرج، أطفأت المصباح ونزلت في الظلام، مع التأكد من كل خطوة. خرجت من النافذة، إحدى قدمي على الحافة والأخرى على الجدار، ثم الأخرى، أغلقت النافذة بقدر ما أستطيع، وقفزت. تحملت ساقي السقوط بصورة جيدة، لكن الضربة على الأرض ارتفعت من خلال ساقي إلى فخذي، مما تسبب لي في ألم حاد في خصيتي، وهو أمر أجبرني على الانحناء والبقاء في تلك الوضعية لفترة من الوقت. البساتين مهجورة، وبدت السماء المرصعة بالنجوم تستعد لصقيع وشيك. غمرني حلول الليل، هناك في السماء، خلال صمت مطبق، والأحلام تنتظر دورها مثل دقيق تم تجهيزه لشخص ما ليعجن ويصنع، تنعكس في عري الليل كما في المرأة التي تم فيها تثبيت القدر بدبابيس خفيفة في الشمع اللانهائي.

في الأيام القليلة التالية اعتمدت، في كتمان شديد، تنظيف وتزييت المسدس. الزناد والقادح كانا يؤديان عملهما بشكل جيد. لم تظهر الرصاصات أي علامات تشير إلى كونها في حالة غير جيدة، على الرغم من قدم البارود. باستخدام المخرز نقشت حرفاً على كل رصاصة: خ، لخوليو، م، لمارو.

في دولا ب ملابسي احتفظت بملابس الزواج لوالدي: ارتدت هي تنورة وسترة رماديتين، ارتدي أبي بنطالاً وسترة رماديين لكن أغمق قليلاً، وربطة عنق سوداء. كانت أثراً لم يتم استخدامه مرة أخرى وتم الاحتفاظ به كتذكارة. بحذر شديد، باستخدام المقص، وسعت فتحت بطانة سترة والدي قليلاً، مجرد فجوة صغيرة، وأخفيت المسدس والرصاصتين بالداخل.

لا ننحاز إلى طرف أو دين لأسباب معرفية بحتة، وعند وداعهم، لا ينبغي أن يؤثر موقفنا تجاههم علينا.

## نيتشه

عندما نتبنى أيديولوجية أو ديانة، فإن الظروف البيئية، والعلاقات الودية، وتأثيرات بعض الأشخاص، وجميع أنواع الروابط العاطفية ذوات ثقل أكبر من عقلانية المناهج الأيديولوجية.

خلال السنوات الأخيرة من نظام فرانكو، أصبح الحي مرتعاً للأيديولوجيات والنشطاء. أتخذ ثوار المنطقة من الحي مقراً للتخطيط لأساليبهم الثورية. عرف الجميع أن الكاهن يلتقي في الكنيسة مع مجموعات من الشباب، لتلقينهم، ليس على وجه التحديد طريق الإنجيل. من ناحية أخرى، لاحظت أن المزيد من الزوار اعتادوا الذهاب إلى منزل المعلمة على غير العادة، ثم أدركت لاحقاً أنه يجري تكوين ما يسمى بـ «الخلايا» هناك. في بعض الأحيان «شخص ما» يدعو إلى التجمع، والأخبار تنتشر من فم لـ فم. عند الغسق، جاء بضع مئات من الأشخاص من قرى المنطقة الذين تجمعوا في الساحة المغطاة للتناقش حول هذا الإضراب أو ذاك الذي تمت الدعوة إليه، حول الموقف الذي يجب اتخاذه في مواجهة الاعتقالات التي يقوم بها النظام على نطاق واسع في بعض الأحيان. في أحياء ومصانع الوادي، احتشد، قبل كل شيء، مقاتلو المنظمة الثورية العمالية «أورت»، وهي منظمة ماوية نالت في وقت قصير تعاطف معظم الشباب المتمردون في المنطقة. هم الذين قادوا التجمعات، والوحيدون الذين تمكنوا من تعميم إضراب في المصانع والمدارس والأحياء، وأولئك الذين تمكنوا من جمع ما يكفي من المؤيدين لتنظيم تظاهرة كبيرة. في اللقاءات، أجروا محادثة صاخبة مع رجل رفيع المستوى من القطاع القومي، مغرور وكثير السباب، كلمتان من كل ثلاث كلمات تخرج من فمه كانت إهانات لفظية ضد الأورت وبقية «الإسبانيوليستاس». كان النشطاء القوميون الآخرون الذين شاركوا أيضاً في اللقاءات أكثر تحفظاً وتصرفوا بشكل مختلف تماماً عن ذلك الشخص رفيع المستوى، دون السعي إلى الشهرة، ومع ذلك، فقد تركوا دائماً بعض العلامات الواضحة القائمة على الدعاية أو الأعمال التخريبية التي أثرت بشكل كبير على الناس، لم يحترموا عادة قرارات الاجتماع كثيراً، لأنهم اعتقدوا أن الاجتماعات قد تم تزويرها من قبل المحكمة العليا، لذلك في التظاهرات أخرجوا لافتاتهم الخاصة وصرخوا تحياً إيتا<sup>(14)</sup>، وهي حقيقة أوضحت أن معظمهم ينتمون إلى القطاع الراديكالي، مدعومين سراً من قبل العديد من الأشخاص الذين لم يشاركوا في التعبئة. كان من الواضح

أنهم يشكلون أرضاً خصبة لمقاتلي إيتا ومناصرهم في المستقبل. من وقت لآخر، تم اعتقال بعضهم أو أجبروا على الفرار عبر الحدود. سيطروا على مجموعات رقص الباسك وأكاديميات لغة الباسك (يوسكالتيجي) وبعض القطاعات التابعة للكنيسة.

كما شارك قطاع أقلية، لكنه مؤثر لدرجة كبيرة، في اللقاءات، نظمتها منظمة مناهضة الرأسمالية، وهي منظمة نقابية روج لها حزب منظمة اليسار الشيوعي، الوريث الأيديولوجي لحزب العمال الماركسي ما قبل الحرب، مع مقترحات متطرفة وانشقاكية، وكان رأس المنظمة عجوزاً ذا شارب.

على الرغم من أن والدي منعني من المشاركة في اللقاءات، إلا أنني كنت أبحث دائماً عن طريقة للتسلل للاستماع إلى ما يتم مناقشته فيها. لقد عهدتها كتجربة مثيرة، كان الأمر كما لو أن مستقبل البشرية يجري مناقشته وتقريره هناك، بالنظر إلى الجهد الذي بذله البعض والبعض الآخر في الدفاع عن مواقفهم. اعتدت أن أقف على الجانب الآخر من البوابة التي تؤدي إلى الطريق، انتابني الشعور بأنه في أي لحظة سيظهر الشيوعي الذي فر من ريكيت، مسناً ومنحنياً، ببندقيته المحمولة على ظهره صائحاً «تحيا الجمهورية!»، ملوحاً بقبضته في الهواء، متحمساً من تلك الحركة التي منحتها سبب الحياة بشكل أساسي بعد سنوات عديدة من الإذعان والإبادة. يقبع هناك دائماً اثنان أو ثلاثة حراس خلف البوابة، لأنه من تلك النقطة تتم الهيمنة على كل من الطريق الذي يصل إلى الحي والمسار الذي يقطعه قادماً من مزرعة الشيوعيين.

شاركت أديلاً أيضاً في التجمعات، لكنها التزمت الصمت في أحد الأركان. وكثيراً ما رأيتها تتحدث إلى الرجل القوي في منظمة اليسار الشيوعي مما جعلني أظن بأنها عضوة في تلك المنظمة. سألتها ذات مرة، لكنها أجابت بالنفي. كانت منظمة اليسار الشيوعي مشابهة جداً لمنظمة حزب العمال الماركسي، وهي منظمة كان والدها عضواً فيها، وشعرت أديلاً بالتعاطف مع هؤلاء الناس، لكنها لم تكن تنتمي إلى تلك المنظمة اللينينية<sup>(15)</sup>. لم أجرؤ على الاستمرار في السؤال، لم أرغب في «الضغط» عليها، لأن في تلك السنوات كان العمل السري موضوعاً محظوراً، كان أحدهم في خطر للتعرض للاعتقال والتعذيب والحبس لسنوات عديدة، لمجرد الانتماء إلى حزب سياسي غير قانوني. كان من الطبيعي أن يمتنع الناس عن الكشف عن انتمائهم السياسي.

في إحدى الجلسات، أعلن اعتقال الرجل القوي لمنظمة اليسار الشيوعي، أخذ أحد رفاقه الكلمة، مشيداً بثبات زعيمه الذي منع انهيار هيكل الحزب. القبضة للأعلى، غنى الجميع لا أنترناسيونال وأطلقوا الهتافات تكريماً للرجل القوي. في بعض الأحيان ظهر مارو في الجلسات، واقفاً في إحدى الزوايا، راسماً ابتسامة ساخرة على وجهه. لم أكن أعرف الجانب الذي يؤيد، لأنه يمكن أن نتوقع أي شيء من تلك العينة، حتى كونه واشياً للشرطة. من بين الحاضرين كان هناك دائماً جاري خوسيه ماري وزوجته أنا، وكلاهما جادي الملامح، ومنتبهين لكل ما تمت مناقشته.

في اليوم الذي أعلنوا فيه عن اعتقال الرجل القوي لمنظمة اليسار الشيوعي، عند نهاية الاجتماع، سمعت فتاة تعلق على أن الرجل القوي اعتاد ممارسة اليوغا وهذا هو السبب في أنه استطاع تحمل التعذيب. في المرة الأولى التي سمعت فيها كلمة «يوجا» فنتت بالأمر، افترضت أن أدبلا تعرف شيئاً عن الأمر.

تقع مساكن المعلمين فوق المدرسة مباشرة. في واحد منها عاش خوليو وفي الآخر تسكن أدبلا، الباب في الباب. عندما دعى المجلس للاجتماع، دعمتهم أدبلا ولم يفعل خوليو. أثناء عقد الاجتماعات، أبقيت عيني مثبتتين على نوافذ منزل خوليو، كنت متأكداً من أن عيني خوليو تطاردنا خلف تلك المصاريع المغلقة، بنفس الطريقة التي يراقب بها الثعلب الحظيرة.

في المرة التالية التي صعدت فيها إلى منزل أدبلا، سألتها عن اليوغا. ذهبت هي إلى رف الكتب واختارت كتاباً.

– تفضل. اقرأه لنفسك.

كان دليلاً كتبه اليسوعي جارك إرما سالبني، يوجا للشباب، يعرض مستخدماً العديد من الصور لممارسي اليوغا، الأوضاع غير المحتملة.

– إذا كنت ترغب في ذلك، فسنمارسه معاً لبضعة أيام، حتى تتعلم. لقد اعتدت القيام باليوغا كل صباح لسنوات.

انتابني الفضول، لأن مثل هذه الأمور بدت لي لغزاً مخصصاً فقط لعدد قليل من هواة التجربة، سألتها كيف اشتركت فيه. أجابت أنها على معرفة بمؤلف الكتاب، وهو يسوعي شيوعي كان أحد المتهمين في عملية 1001 (16). الشهيرة ضد القادة النقابيين، وهو حدث أثار حراكاً عمالياً كبيراً. بدت لي لحظة مناسبة لسؤالها عما أثار اهتمامي كثيراً.

– وأنت، يا أديلا... لأي جانب تنتمين؟

نظرت إليّ بعينين يملؤهما الشك، ثم بعد بضع ثوان من الصمت، اعترفت لي أنها من أعضاء الحزب الشيوعي. أصبت بصدمة شديدة. الحزب الشيوعي؟ لم أفهم شيئاً.

– ولكن والدك...

– تعرض والدي للخيانة من قبل عضو في الحزب الشيوعي ينتمي إلى التشيكاك المشهورة، ولكن في ظروف تاريخية مختلفة تماماً عن الظروف الحالية. اليوم قصة مختلفة. وأضافت، رافعة بحركة لطيفة خصلة شعر نزلت من جبهتها إلى خدها: الحياة مفارقة مستمرة، خوانيتو، تجد نفسك دائماً وجهاً لوجه مع أقل الأمور توقعاً، وغالباً مع العكس تماماً.

ما زلت لا أفهمها، قصة أخرى. لم يدخل الأمر برأسي إمكانية أن ينضم أحدهم إلى حزب قاتل حتى الموت بطرق ستالينية ضد حزب العمال الماركسي، مما تسبب في مصرع والده. لم أفهم ذلك، كنت أتوقع شيئاً أكثر منطقية من أديلا.

وتابعت حديثها: «أنا شيوعية، مثل والدي، الحزب الذي أنضم إليه ليس هو نفسه حزب الحرب، حتى لو شارك فيه بعض القادة وتسببوا في أخطاء جسيمة. الآن الحزب الشيوعي هو حزب يقاتل في الخفاء ضد الفاشية ومن أجل الديمقراطية، مع ما يكفي من القوة الوطنية والدولية لزراعة استقرار النظام. هذا ما يهمني الآن.»

– ولماذا لا تنضمين إلى منظمة اليسار الشيوعي؟

لم تجبني على الفور، غرقت نظرتها كما لو كانت تفتش في الماضي، اعترفت لي أن منظمة اليسار الشيوعي تعيد إليها ذكريات جميلة عن والدها، ومع ذلك، لم نعد في أوقات الحرب: «في الظروف الحالية، فإن أيديولوجية منظمة اليسار الشيوعي ليست أكثر من حلم يوتوبي عظيم.»

منذ ذلك اليوم بدأت في إدراك جزء خفي لدى أديلا، مثل صديق مقرب يكشف لك النقاب عن أعماق طيات روحه. شرحت لي أفكارها بثقة: لماذا هي شيوعية، ولماذا أصبحت مولعة باليوغا والفلسفات الشرقية، ولماذا هي نباتية، ولماذا ناضلت من أجل تعليم متحرر وكريم...

على الرغم من أن عقلي المراهق في ذلك الوقت لم يدرك بعد العديد من تبعات كلمات أدبلا، إلا أنها قدمت لي يد العون في تكوين رؤية للحياة والواقع تدريجياً، والتي غمرني تعقيدها وتراكمت تناقضاتها. انطوت شيوعية أدبلا على جرعات مركزة من البوذية وفلسفة اليوغا، وهو أمر على درجة عالية من الغرابة في المنطقة التي نقطنها، أمر شائع في بعض البيئات اليسارية الأخرى في ذلك الوقت.

غادرت منزل أدبلا ورأسي في حالة من الفوضى، حبست نفسي في مرآب والدي لتفكيك وتجميع المحركات القديمة، بينما حاولت التفكير ببعض الترتيب حول ما كشفته لي أستاذتي.

مرت الأشهر وواصلت دراسة البكالوريا بمفردي. عندما بلغت الرابعة عشرة من عمري، تم تعييني كمتدرب في ورشة ميكانيكية، في الصباح. في المساء، واصلت الدراسة بمفردي. اعتادت أدبلا على مساعدتي حال مواجهتي صعوبات في بعض الموضوعات، لكنني عادة ما توليت أمر نفسي.

في ذلك الوقت تقريباً، قتل كاريرو بلانكو (17) في هجوم مذهل. زرعووا الحي بمنشورات تشرح كيف تم القيام بالهجوم وتنفيذه، وقدموا تفاصيل أسكتت الصحف: تفاصيل عملية بناء النفق تحت الأرض، لحظة الانفجار والهروب... في بيئات معينة، تم الترحيب بالمنفذين كأبطال، ثم في وقت لاحق، في الحفلات، أنشئت أغنية تلمح إلى السيارة التي تطير في الهواء أمر مألوف، في جزء من الأغنية حيث يقال: « نعم، لارا!»، يلقي الناس الذين يتراقصون في الساحات بقبعاتهم في الهواء، محاكين الانفجار ومسار سيارة كاريرو بلانكو. كانت أدبلا حزينة على كل هذا، وبمجرد أن أخبرتني:

– هذا أمر من فساد الجنس البشري. نحن النوع الوحيد الذي يرتكب جريمة قتل ويتفاخر بها لبقية حياته. حتى الكلاب لا تفعل ذلك، بمجرد أن تهدأ غريزتهم العدوانية، يموت الخصم أو يصاب بجروح بالغة، يخفض الكلب رأسه كما لو تخجله فعلته. أما الإنسان، فلا، الإنسان يرفع رأسه بفخر ويتغنى بعمله الفذ.

حاولت معارضة قولها بحجة أن كاريرو كان كائناً متعطشاً للدماء، باختصار، هو أحد المسؤولين عن مقتل والدها.

– وأولئك الذين قتلوه، أو «أعدموه» كما يقولون، ما هم؟

– نعم، لكن...

– لا يوجد استثناءات، خوانيتو. في هذا يجب أن نكون صرحاء، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإننا نتجه مباشرة نحو البربرية.

لا أعرف بما أجيبها، لكنني ما زلت لا أرى وجهة نظرها بوضوح. يجب أن ننسى الجلادين، وكأن شيئاً لم يكن؟

– أنت تعرف جيداً أنه لا، خوانيتو. لا تنجرف لمنطقك الخاص. علينا أن نحارب المتعطشين للدماء بكل ما أوتينا من قوة، ولكن ليس بنفس أساليبهم. الوسيلة هي أيضاً الهدف، لا يتساوى الأمر في استخدام وسيلة أو أخرى لتحقيق هدف، لأن الوسائل التي تستخدمها هي أفضل ما يحدد هدفك، حتى ضد كلماتك الخاصة.

– نعم، لكن...

– بالنسبة للمتعطشين للدماء من نوع كاريو بلانكو، أكثر ما يؤلمهم هو أن يتركوا بدون دعم. يتصرفون بالطريقة التي يتصرفون بها لأنهم يشعرون بالدعم والقوة. بمجرد أن تفقدهم دعمهم، فإنهم ينهارون حتى الانتحار. لماذا تعتقد أن فرانكو استمر طويلاً في السلطة؟ لأنه في الواقع لا يزال الكثير من الناس يدعمونه، ومعظم أولئك الذين لا يدعمونه لا يجرؤون على إظهار رفضهم. إذا ما تغير الأمر، فسنرى كم من الوقت سيستمر.

فاجأني ثبات أدبلا على أفكارها، وراء شخصيتها الرقيقة أخفت صرامة بدت لي غير متزعزعة، شديدة الحزم. ذكرتني طريقته بيت في الإنجيل سمعته العديد من المرات في الكنيسة. يشير يسوع، في أحد أمثاله، إلى رجل حكيم بنى منزله على صخرة. نزل المطر، وجاءت الأنهار، وهبت الرياح، وضربت ذلك المنزل. ولم ينهر، لأنه أسس على صخرة. بدلاً من ذلك، بنى رجلٌ أحمق آخر منزله على الرمال، وهبط المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وضربت ذلك البيت وسقط وعم به خراب عظيم. تم بناء أدبلا على الصخور، راجعت ذلك مرات لا تحصى. ومع ذلك، فقد لاحظت جانباً آخر أكثر خفية فيها، مبني على الرمال، وهو أمر هدهدها بانهييار قاتل. عندما بدأت في تجربة حياتي الجنسية واختبار قوتها لرفعي إلى أوليمبوس أو الغرق في أعماق الهاوية المظلمة، اعتقدت أنني فهمت أي جزء من مبنى أدبلا يقبع فوق الرمال.

يجب ألا نريد حالة واحدة، ولكن يجب أن نريد أن نكون حالات دورية، أي أن نساوي بينهم في الوجود.

## نيتشه

يلق كالاسو في كتابه خاتم كلاريس أنه في تلك القطعة، ربما يقدم نيتشه الصيغة الأكثر إيجازاً للبقاء الأبدي.

التساوي في الوجود، لا شيء أقل. نحققه فقط عند لحظة الولادة وعلاوة على ذلك عند لحظة الموت، عندما نتخلى عن أنفسنا تماماً، نفقد كل استقلاليتنا، على وجه التحديد في الحرية المطلقة، ونسلم أنفسنا في أيدي الوجود بحيث يصنع من البقايا، الغبار القليل، الذي ربما ينبعث منه إنسان آخر، أو ربما بعض الشوك البسيط. ومع ذلك، خلافاً لرغبات نيتشه، فإن حياة الإنسان هي على وجه التحديد جهد شاق لرسم ظل له في الوجود، لمحاولة خلق وجود خاص به، مستقل وحر، خارج دائرة العودة الأبدية، على الرغم من أنه يعلم أنه مقدر له حتماً أن يتم امتصاصه عاجلاً وليس آجلاً بواسطة الزوبعة التي تمتص الظلال وتبتلعها.

لا أعرف ما إذا كنا نريد أن نكون حالات دورية، في الواقع نحن كذلك. الحالات، وخاصة تلك المتعلقة بالسعادة والحزن أو الألم، تحدث وتكرر بشكل دوري، مثل اللعنة الأبدية. ضع الرغبة، هل يجب أن نرغب في العقاب ونشعر بالذنب لمجرد حقيقة الوجود؟

لقد ذكرت بالفعل كيف غير وصول المعلمة الجديدة حياتي جذرياً، وعشت في نشوة حلاوة الحنان، وفي لحظات النشوة عشت ولادة جديدة، كما لو أن أدبياً قد أنجبتني مثل أم ومحت كل تاريخي الماضي. لكن خيبة الأمل القاسية جاءت عندما اكتشفت علاقتها مع خوليو: على الرغم من أن العلاقة لم تكسر صداقتي مع المعلمة، فقد أصبح حافزاً للتعامل مع علاقتي معها بطريقة مختلفة، أكثر عقلية، وأكثر أيديولوجية، وهو أمر ربما لم يكن ليحدث لو لم تتواجد تلك القطيعة المؤلمة. فتح لي باب للدخول إلى ذهن أدبياً، إلى طريقة رؤيتها للعالم، إلى تجربتها للتاريخ، إلى أصولها، منطقة رائعة غامرت فيها وسمحت لي بالاقتراب من المراهقة برؤية واسعة للوجود. قدمت لي أدبياً قطع الأحجية الكبيرة التي بدأت في إكمالها جزءاً جزءاً.

أحد الجوانب الأكثر أسراً في إطار أدبياً الأيديولوجي هو رؤيتها الشرقية واليوجية والبوذية إذا جاز التعبير، لأنها قدمت تولىفة خاصة للغاية لمثل هذه الرؤية والالتزام السياسي المناهض للرأسمالية، إلى جانب منظور ثوري

لعلم أصول التدريس. رأى أعضاء «موييدا» في بادئ الأمر مدرّسةً متطورةً ذات أفكار متقدمة، ومناصرةً لعلم أصول التدريس المتحرر، وقبل كل شيء، ناشطةً ملتزمةً بالنضال ضد نظام فرانكو. الجزء الآخر، الجانب الروحي، يعود إلى خصوصيتها والتي شاركتها مع عدد قليل جداً من الناس، ليس لأنها تسعى الي إخفاء شيء ما، ولكن لأنها لم ترَ أيَّ حساسيةٍ أو اهتمام ممن حولها. عندما أخبرتها، بعد اجتماع، سمعت فتاة معينة تقول عن الرجل القوي لمنظمة اليسار الشيوعي إنه تحمل الاستجواب بفضل اليوجا، ابتسمت وأخبرتني:

– هذا ليس يوجا، خوانيتو. ولا أريد أن أقول إنني لم أعجب بثبات رفيق منظمة اليسار الشيوعي، لكن مثل هذه الرؤية لليوجا هي مجرد فكرة سيرك ليس إلا. اليوجا، فقط لتعريفها بشكل ما، هي فلسفة خاصة وليست قوة جسدية. على أي حال، تأطير كل شيء في إطار السيرك هو اتجاه بشري يتجلى في جميع المجالات: المجالس، التحركات، والمدرسة نفسها، ودعنا لا نقول الكنيسة أو الدولة. وسترى السيرك الذي سيتم إعداده عندما يسقط النظام الذي يحتضر. ثم سيكون لديك الفرصة لرؤية سيرك السياسة، وسوف نرى كيف سيغير العديد من الثوار ذلك اليوم من حلتهم وارتداء حلة معاصرة لذلك الوقت والحرص الشديد على جيوبهم أكثر من حرصهم على أفكارهم، مع الوقت.

لأن أدبلا أعارتني كتاب جارتيا سالبى، اعتدت ممارسة اليوجا كلَّ صباح، أستيقظ في السادسة والنصف، وأستحم بالماء البارد وأنظف جسدي كله، ثم أمارس تحية الشمس تجاه الشرق، وبعض الوضعيات التي تسمى «الأساناس» للمبتدئين. لقد تعلمت الأسماء السنسكريتية من خلال التدرّب البحت، أضحكنتني تلك الأسماء: الأرجوحة أو جوشيجوفرانا، البرق أو فاجراسانا<sup>(18)</sup>... كان هذا الوضع الأخير من أصعب الأوضاع بالنسبة لي، لأن كاحلي ومن أسفل ساقي حتى ركبتي من ساقي يؤلمني، استغرق الأمر مني عدة أشهر للتمكن من الجلوس مستريحاً بين الكعبين.

على الرغم من أنني أخذت كل شيء على محمل الجد وحتى مع درجة معينة من الروحانية، إلا أن الأمر لم يفتقر لبعض المرح بالنسبة إلي، شعرت وكأنني مهرج في مثل هذه الأوضاع الغريبة. في بعض الأحيان، كانت والدتي تفتح باب غرفتي لتخبرني بشيء، حيث تتفاجأ برؤيتي في وضع بشع، مرتدياً سروالاً داخلياً فتذهب ضاحكةً في الردهة.

– الباب، اللعنة!

في ذلك الوقت، اخترت نوعاً آخر من النشوة، مختلفاً عن الأولى، ذا بعد آخر، متمركزاً على نفسي، مثل سمكة تسبح في مياه صافية نقاء الكريستال. كان العمل في الورشة صعباً، الجو بارد في الشتاء، بين تيارات الهواء، وحرار في الصيف بسبب تسقيف الأوراليت. ومع ذلك، تلك التجربة دبغت جراحي. في المساء اعتدت الدراسة بشكل مكثف، حصلت بالفعل على درجة البكالوريا التمهيدية وأجهز للدرجة العليا بمفردي، بمساعدة متفرقة من أديلا.

لم أكن أعرف ما إذا كانت أديلا لا تزال على علاقة بخوليو، لكنني خشيت ألا يتوقفوا عن فعل ذلك. كان لدي شعور بأن مبنى أديلا الراسخ به جناح مبني على الرمال، لم أفهم ما يمكن أن يكون قد أعجبت به في خوليو، حيث إن هناك بالتأكيد العديد من الشباب من لا موفيدا تسللوا أيضاً إلى المعلمة، الذين اشتبهوا في أنها يمكنها أن تقيم معهم أيضاً علاقات رومانسية، لأنني شيئاً فشيئاً اكتشفت في أديلا وجهاً محيراً: تحررها الجنسي. لقد حيرتني، ليس من جهة أيديولوجية لأن الأمر متوافق تماماً مع أيديولوجيتها ومع الثورة الجنسية التي تدعو إليها، ولكن من وجهة النظر العاطفية، لأن علاقتي معها جعلتني أكون صورةً مختلفةً أكثر أمومية وروحية، أقل «دنيوية». الآن أدركت كيف استبعدت بعض جوانب شخصية أديلا وقللت من جوانب أخرى، حتى جعلتني تجربة قاسية أراها فجأة. حتى اليوم، يرفض عقلي «تلطيخ» أديلا ويغسل بمسحوق مبيض كل بقعة تطمس صورتها المحفورة في داخلي على أنها شعلة تضيء وتضفي الدفء على وجودي.

صدمت ذات مرة عندما كنت عائداً إلى المنزل وسمعت صوت مارو في الشارع، جالسا على دراجته النارية، ويتحدث إلى الآخرين في عصابته، ويتفاخر بمضاجعة مدرسة اللغة الإسبانية.

– أطلقت صياحاً استهجانياً ثلاث مرات متتالية، اللعنة! هذا شخص لديه فحم محترق بين فخذيته.

اضطرت للالتكاء علي الحائط، حتى لا أقع. استدرت للتوجه نحو البوابة، لكن الوقت كان قد تأخر بالفعل. فان مارو رأني، وأدار الدراجة ولحقني على الفور.

– انظر من لدينا هنا! إلى الأبله! – ودعا أصدقائه – تعالوا، تعالوا!

أمسك بأحد ذراعي بيده الكبيرة، حفر أظافره في داخلها، بينما جاء من دعاهم من عصابته يضحكون بسخرية. حاولت أن أفلت من قبضته، حتى

أنني لكمته، لكنه سحبني نحوه بعنف، كاد أن يلقي بي على الأرض. كانت كفوفه تمرّق جلدي.

– هيا، أيها الأبله، لن أفعل أيّ شيء لك! عليك فقط أن تجيب على سؤال واحد.

نظرت نحو الأرض.

– هيا، أخبرنا بما تفعله بك المعلمة، لأنك كثيراً ما تصعد إلى منزلها.

ظللت أنظر إلى الأرض صامتاً.

– هيا، قل: هل تسمح لك بلمس ثديها؟ هل هما لينان، هاه؟

دفعت يده بقوة، حتى يفلتني.

– توقف، أيها الجرذ! أنت هدفنا الأمثل! لن تغادر هنا حتى تخبرني بما تفعله مع المعلمة. فهل تمتص عضوك؟ أم أنها تطلب منك أن تفعل لها أنت هذا الأمر؟ تكلم يا أبله!

– اذهب عليك اللعنة! – صرخت قريباً جداً من وجهه.

دفعته بكل قوتي وكان عليه أن يتركني لتجنب السقوط هو ودراجته النارية وكل شيء. ثم شرعت في الجري. كان أصدقاؤه يضحكون بصوت عالٍ.

– انظروا إلي طريقة جريه! يبدو مثل الأرنب! اركض يا أبله، سألحق بك! – صاح مارو. ثم شغل الدراجة وتسارع، كما لو كان قادماً من أجلي.

– اركض، أيها الأبله، هيا اركض!

هذه المرة كانت موجة السعادة قصيرة العمر. اللقاء مع مارو جعلني أعيش جحيماً آخر. ومما زاد الطين بلة، أن الأصدقاء الذين اعتدت الذهاب إلى السينما معهم أيام الأحد دارت على ألسنتهم بعض التعليقات الفاحشة حول «المعلمة العاهرة». لم أخرج معهم بعد تلك اللحظة، الآن بعد أن تركوا الذهاب إلى مدرسة الحي، بدأوا في السخرية من أدبنا، نفس الأشخاص الذين اعتدت سماعهم منذ سنوات بأفواه مفتوحة تتغنى بلطافة المعلمة عند انقطاع الكهرباء في أيام العاصفة. أكدوا أن نصف المنطقة كانت تعاشرها، وكلهم تقريباً من «موفيدا»، وأن خوليو كان غاضباً، لأنه لم يعد للمسها

بإصبعه بعد الآن، وأنه في أي يوم سيحدث أمر جلل، لأن المعلم رجلٌ خطير، حتى أنه كان يشتهه في أنه واش سري. كان هناك رأي واسع الانتشار بأن الرجل القوي في منظمة اليسار الشيوعي قد تم القبض عليه عن طريق بلاغ قدمه خوليو، لأن الرجل القوي يعتبر من أكثر الأشخاص الذين تعاملوا مع المعلمة، تاركاً إياه يعض شفثيه.

الشائعات والشائعات والشائعات... لقد سئمت! أغلقت على نفسي وتوقفت عن زيارة أديلا، إلا عند الضرورة الملحة لدراستي أو عندما تعد والدتي كيسَ الخضار المعروف لي.

سواء كان ما تردد في الحي صحيحاً أم لا، فإن الحقيقة هي أنه في غضون بضعة أشهر كانت هناك عدة اعتقالات في المنطقة. ظهرت كتابات على جدار المدرسة، كتب عليها: «خوليو، أيها الوغد، ستذهب إلى الجحيم». كان من الممكن أن يكون مارو أحد المعتقلين، لكنه فر بأعجوبة. كان يدير دراجته النارية بالقرب من منزله عندما توقفت سيارة شرطة سرية بجانبه، سأله عن مارو نفسه.

– «مارو؟ يعيش هناك، في ذلك الكوخ لقد رأيته يدخل من الباب منذ قليل»، أجابهم بهدوء محتال متمرس.

شرع الشرطيون السريون في الجري، بينما أدار الدراجة بهدوء واختفى لفترة طويلة.

في ذلك الوقت، تجاهلت قضايا «موفيدا» والشائعات التي كانت تنتشر عن أديلا، لأنني بدأت علاقة مع ماريسا، فتاة من الحي ذهبت إلى المدرسة الثانوية، إلى نفس الفصل الذي التحقت به، وفي فترة ما بعد الظهر أعارتني كتبها وتمارينها حتى أتمكن من نسخها ودراستها. لقد فعلت ذلك بناء على اقتراح من أديلا، التي كانت تخشى أن ألا أفهم بعض الموضوعات. ماريسا، بعد أن أعارتني دفاتر ملاحظاتها، اعتادت المجيء لزيارتي بعد ظهر كل يوم في المنزل، حتى تتمكن من القيام بالتمارين معاً. كنا نجلس في غرفة المعيشة، وكانت والدتي تقدم لنا الشوكولاتة الساخنة مع الخبز المحمص بالزبدة، وكنا نقضي ساعات في الدراسة، غير مدركين للكارثة التي كانت تحدث من حولنا.

لا توجد زاوية واحدة في الإمبراطورية بأكملها لا تخضع لسيادة الإمبراطور. لا يوجد رجل واحد على الأرض ليس تابعاً للإمبراطور.

**كونغوشيوس**

**أدب، نقلاً عن كتاب الأغاني**

كان مخلب «الإمبراطور» فرانكو يصل حتى أكثر الأحياء المخفية في الإمبراطورية، كانت الخطافات السود تسفك مرة أخرى دماء أحفاد أولئك الذين تم حشو أفواههم بالحديد المنصهر زمن الحرب.

تم تنفيذ تدمير كارثي، تم تدمير أورت عملياً، وتم محو أحزاب الأقليات الأخرى من الخريطة، وسجن معظم نشطائهم أو فروا، وخاصة مع تفكيك الكوادر القيادية. فقط القوميون الراديكاليون، الأكثر دهاء من البقية، والذين كان سقوطهم أقل تأثيراً، نفذوا قدر الإمكان، لأن الكفاح المسلح الذي أيده معظمهم أجبرهم على اتخاذ إجراءات أمنية مشددة.

لم يتم المساس بأديلا. بدا الأمر كما لو أن يداً واقية منعت أيّ شيء سيئ من الحدوث لها. في الحي، رأى الجميع ظل خوليو في كل شيء. جرى على معظم الألسنة المزعجة إاه قرر إخلاء الطريق للحصول على المعلمة لنفسه.

لم أشهد أيّاً من الاعتقالات، إلا اعتقال خوسيه ماري، جاري. في إحدى الليالي، سمعنا زئير أبواب وصراخ في الشارع، ونظرت أنا ووالدي من شرفة غرفة الطعام. فقام أحد أفراد الحرس المدني بتهديدنا بسلاحه.

– ادخلا، عليكم اللعنة!

أغلقتنا الشرفة، وتراجعنا إلى غرفة المعيشة وركضنا إلى غرفتي لننظر من خلال فتحات الستائر. أخذوا خوسيه ماري من منزله، دافعين إياه. حاولت زوجته، المتشبثة بذراعه منعهم من أخذه بعيداً، على الرغم من أنهم كانوا يضربونها على ظهرها، إلا أنها لم تكن لتتركه مقابل أي شيء في العالم. حاول خوسيه ماري حملها على العودة إلى المنزل خوفاً من أن تتعرض للإهانة، لكنها ظلت متعلقة بذراعه بقوة لدرجة أنهم حتى مع الضرب لم يتمكنوا من انتزاعها. ثم صاح الشخص الذي بدا وكأنه رئيسهم:

– بما أنها لا تريد تركه، سنأخذها أيضاً.

أدخلوهما سيارة رباعية الدفع، منكلين بهما، ثم اختفوا بأقصى سرعة أسفل المنحدر. بعد بضعة أيام أُطلق سراحهما. علق والداي بأن خوسيه ماري تبول دماً لمدة أسبوع، ومع ذلك ستراه في الشارع متبسماً كما لو لم يحدث شيء، سيتوقف عن الحديث لفترة من الوقت، وسيهتم بك عند مقابلتك كما اعتاد مع أطفال الحي دون أن ينطق بشيء مما حدث له. منذ أن كنت طفلاً، اعتاد معاملتي كما لو كنت بالغاً. لم يميز بين الأطفال والبالغين، ليس مثل الآخرين الذين يمرون بالطفل كما لو لم يوجد. لقد استقبلنا مثل البالغين مخاطباً إيانا بصداقة حميمة. زوجته مثله، أحببت رؤيتهما يسيران معاً على

الأقدام، ومراقبتهم ينزلان أو يصعدان المنحدر بوتيرة سريعة، متزامنين، ناقلين الحيوية التي بدت كما لو أنهما يتراقصان بدلاً من المشي.

كما جرت العادة، انتابني الخوف من أن تؤخذ أديلاً بعيداً في أي لحظة. من المؤكد أن الشرطة على دراية بتاريخ عائلتها واتصالاتها بأعضاء بارزين في الحزب الشيوعي وأنشطتها الثورية. أقسمت لنفسي أنه إذا حدث لها أي شيء، فإن خوليو سيدفع الثمن، لأنني كنت متأكداً من أن له علاقة بكل تلك الاعتقالات. كان لدي رصاصة عليها نقش «خ» محفوظة له، مخبأة في بطانة بدلة زفاف والدي. إذا ما أخذوا أديلاً، فسأخذ روح خوليو في المقابل. كنت على دراية بأن أديلاً ستستنكر نواياي بشدة، لكن في بعض الأحيان يشعر الشخص بالحاجة لفعل شيء مناهض لأفكاره، شيء لا يمكنه تجنبه، حتى لو حاول عقله طرده بعيداً، وتنتهي الأفكار بسيطرة العاطفة. في بعض الأحيان يجري الأمر على هذا النحو.

بعد ظهر أحد الأيام عندما كنت وحيداً بالمنزل، أخرجت المسدس وأدخلت الرصاصة ذات حرف الـ «خ» المحفور عليها، ثم وقفت أمام المرأة، ممسكاً به بيد ثابتة، موجهاً المسدس نحو القلب.

– «خوليو، أيها الضيع، لقد حان وقتك. لقد حان وقتك، لقد حان وقتك...»، كررت بوجه عابس وإيماءة حازمة.

لكن لم يحدث شيء لأديلاً، فلم يتحتم عليّ قتل خوليو. جرت الأحداث بسرعة كبيرة مثل أسهم الأمل: أولاً، مات فرانكو، ثانياً، خرج الكثير من السجن، خاصةً عندما تم منح العفو العام. تم تنظيم الاحتفالات وحفلات الاستقبال والتكريم في الحي. حضرت مع ماريسا التي لم تعد تسلمني المحاضرات في المنزل فحسب، بل كنا نخرج معاً أيضاً، ذهبنا إلى السينما وتجولنا في الحي أدنى التل. أصبحت علاقاتي مع أديلاً أكثر بُعداً، توقفت عن تدريس طلاب المدارس الثانوية في فترة بعد الظهر، وشاركت في مشاريع بحثية لها علاقةً بالتجديد التربوي من خلال اتصالاتها في كتالونيا مع زملاء روزا سينسات وفي سان سيباستيان مع أعضاء مجموعة أدارا. كما تعاونت مع نقابة المعلمين، قامت بنشاط لو قمْتُ به كاد أن يسبب لي الحمى: غادرت في حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر مع حسانيتها عائدة من سان سيباستيان وبلباو وبامبلونا... في عجل.

من ناحية أخرى، حبس خوليو نفسه في بيت المعلمين الخاص به واعتاد الخروج فقط في مناسبات نادرة إلى الحانة، ولكن بدون تلك الملامح الهادئة

أو المظهر المتحدي كذبي قبل. من المؤكد أنه خائف، أو شعر بأنه لاجئ عفا عليه الزمن ومات حياً، كالنظام الذي طالما دافع عنه. بالكاد رأيته، لكنهم قالوا إنه بعد ظهر كل يوم تقريباً كان ينزل إلى المدرسة في حالة سكر ويتجول بلحية طويلة لعدة أيام، قبلاً كان ذا مظهر لا تشوبه شائبة. احتج أهل الأطفال، الذين لم يعودوا مستعدين للبقاء صامتين، في المفوضية، وعانى خوليو الهوان متلقياً توبيخاً من نفس المفتش الذي أجبره سابقاً على الانتقال والذي تحول الآن، عن طريق السحر، إلى الديمقراطية والأجواء الجديدة. نصحه بأنه إذا ما أراد مواصلة العمل في ذلك الحي حيث يتحدث الأطفال لغة الباسك كلغتهم الأم، فسيتوجب عليه التسجيل في إحدى الأكاديميات اللغوية أو إحدى الجامعات، لأن الأمور ستتغير بسرعة كبيرة.

كنت على دراية بكل ذلك، لكنني عشته على مسافة محددة، انتابني هوسٌ بماريسا وهي بي، كتبت لها قصائد، مستنسخاً نيرودا في «عشرين قصيدة حب وأغنية يائسة»، على الرغم من أن قصائدي لم تكن يائسة، ولكن أغني للحياة التي أعطتني الكثير. في تلك اللحظة كنت أبحر مرة أخرى على قمة الموجة، بدا لي عرجي وكراهية الزمن الماضي شيئاً ضئيلاً. لم نخف أنا وماريسا أسراراً عن بعضنا بعضاً باستثناء مسألة المسدس والرصاص. أرادت أن تعرف عن علاقتي مع أدبلا، إذا كان صحيحاً ما اعتاد بعض الشباب إشاعته – لقد توقفوا بالفعل عن ذلك، لأنهم ربما وجدوا مشاغل أكثر متعة – وأجبت عليها بصراحة.

– كانت مجرد معلمتي، تقريباً مثل أمي، ولكن قبل كل شيء أستاذتي.

نظرت ماريسا في عيني، كنت أعرف أنني أقول لها الحقيقة، لم أكن لأخدعها. سألتني مباشرة عما إذا شعرت بحب تجاهها، وتمتعت بنعم، وما زلت أحبها – خفضت ماريسا عينيها، وتأذت – ولكن ليس مثلك، بل كأماً أو أخت كبرى.

ثم، قرّبت وجهها من وجهي وطلبت مني تقييلها. أنا، مثل الأحمق، قبّلتها بخجل على خدها.

– «ليس هنا، خوانيتو»، ثم ثبتت شفيتها أمام شفتي.

ما زلت أتذكر طعم فمها، سمين، طازج وناري في نفس الوقت.

أبقينا على شفاهنا ملتصقة لفترة طويلة، دون أن يسحب أيُّ منا شفتيه. وقفنا مكتوفي الأيدي، بأفواه نصف مفتوحة، وبخار أنفاسنا يعبر خلالنا. خلال

ذلك أمسكت هي بإحدى يدي ووضعتها على صدرها، بينما بيدها الأخرى قامت بفك أزرار قميصها، سحبت حمالة صدرها ولاح أحد ثدييها مثل فاكهة الجنة. كان قلبها ينبض، بينما قلبي على وشك الانفجار. شعرت بقضيبي يتصلب ورعشة قوية سرت حتى صعدت عبر العمود الفقري، فارتعد جسدي بالكامل وقذفت دون أن أتمكن من فعل أي شيء لمنع الأمر. بدا أن ماريسا ترتجف من شفتي ترتعد تدريجياً، ثم، بلطف، أعادت يدي، وأغلقت حمالة صدرها وارتدت قميصها.

– يجب أن أذهب، خوانيتو.

قبلتني مرة أخرى على شفاهي وغادرت الغرفة. ركضت إلى الغرفة لأغير من ملبسي، قبل وصول والدتي.

تم حفر هذا اللقاء الأول المحب والبريء والطفولي في ذاكرتي، كما لو حفر في الصخر. في الأشهر التالية، مررت بتجارب أقوى مع ماريسا، ووصلت إلى رؤيتها عارية، ولمستها، وتمكنا من ممارسة العادة السرية لبعضنا بعضاً، لكن تلك التجربة الأولى ارتسمت بعمق أكبر من كل الأخرى. لم أشهد أبداً مثل تلك الشهوانية الشديدة والإثارة الجنسية مرة أخرى، لأنها جعلتني أرتجف من شعر رأسي حتى أخمص قدمي، مما جعلني أتلذذ بطعم رائع للغاية في فمي، لذة الحب وبلوغ الحد الأقصى من التوتر الجنسي.

دامت علاقتنا لفترة طويلة لكونها الأولى لنا نحن الاثنين، حتى بعد كو، وهي دورة اضطرت فيها إلى التسجيل رسمياً، لكنني درست دون حضور الفصل، استمرت ماريسا في إقراضي ملاحظاتها وتمارينها واجتزت أنا كل شيء، بما في ذلك الانتقائية. في العام التالي، ذهبت لدراسة الطب في بلد الوليد، وهناك فقدتها إلى الأبد، فقد وجدت شخصاً أكثر إثارة للاهتمام مني، أو لم تتمكن من إبقاء شعلة علاقتنا مضاءة عن بعد، لا أدري. الحقيقة هي أنني فقدتها. وأنا لم أبك، لقد فقدتني أيضاً. أتساءل، لماذا أقول كل هذا؟ هل سأبحث عن تضييع الوقت على سجيتي الخاصة، محاكاة تلك الحبيبة اللامعة المولعة بالكعك؟ أعتقد أن الأمر ليس كذلك بالضبط، لأنني لا أشعر بشوق خاص للوقت الذي مضى، عشته، استمتعت به، عانيت منه، وهذا يكفي. تُسير الريح رماد الأوقات الماضية، الذي يطير في السماء محولة إياه إلى حمائم، أو ربما غربان. أتذكر بعض التفاصيل بدقة أكبر من غيرها، وهذا يشير لي إلى أن الذاكرة بدأت في خيانتني وأني لن أتمكن أبداً من الإدلاء بشهادة دقيقة عما قد اختبرت، حتى على الواقع الذي أعيشه، ولكن ما تقصفه ذاكرتي من حبات الذرة التي تصادفها في رحلتها. هذه القصة هي القصة

التي اخترت أن أتذكرها، أو تلك التي اختارتنى في الذاكرة، ليس بسبب الشوق، ولكن بسبب الحاجة إلى تنفيس داخلي، مثل تلك الشاحنات المحملة بالرمل التي تفرغ حمولتها في نهاية رحلتها ثم تبدأ رحلة أخرى لنقل المزيد من الرمال. شيء من هذا القبيل يحدث لي. يحكي بروس (19) عن سوان إنها تخلت منذ فترة طويلة عن تكريس حياتها لنهاية مثالية من أجل اقتصارها على السعي لتحقيق الرضا اليومي، وأنه كان يعتقد – دون أن يقول ذلك صراحة – أنه لن يتغير بها شيء حتى وفاتها. أعتقد أنني واجهت أيضاً شللاً روحياً مشابهاً لشلل سوان في مرحلة ما، عندما امتلأت شاحنتي عن بكرة أبيها بالرمل، لاحت هناك إشارات تدل على أن الوقت قد جان للتخلص والعودة لجلب مزيد من الرمال، لكن المحرك لم يعمل. أيضاً في هذه اللحظة، وأنا أروي تلك القصة، شاحنتي محملة بالكامل، وبالكاد تتحرك.

ذهبت يوم السبت مع ماريسا إلى السينما لرؤية «عازف الكمان على السطح»، الذي تم إصداره قبل بضع سنوات والذي أخبرني عنه خوسيه ماري بحماس. مشينا مرة أخرى على طول الكورنيش على ضفة النهر، الوقت متأخر بالفعل ليلاً عندما التففنا حول المنحدر في الظلام، مدندنين أغنية الفيلم الجذابة: «إذا كنت رجلاً ثرياً، بوم، بوم...»، ثم صعدنا بوتيرة أبطأ، توقفنا كثيراً، قبلنا بعضنا، تشاركنا لذة الشفاه، داعبنا بعضنا بعضاً. بدأ الطريق القديم الممهّد بشكل سيئ وكأنه صعود إلى السماء، سلم يعقوب الذي لا يقودنا إلى السعادة فقط، بل الذي في منتصفه نغرق فيه.

فجأة، سمعنا بعض الأصوات الشاذة: تاك!، تاك!، تاك!

– أعيرة نارية! – ماريسا مرتعدة – . من الذي يصطاد في تلك الساعة؟

في بعض الأحيان، يخرج بعض الصيادين ليلاً، حاملين الفوانيس، لأن الفريسة تأتي إلى النور أو تقف ساكنة أمام الأضواء، كما لو شلت، ثم تصبح فريسة سهلة.

– هذه ليست أصوات بنادق صيد، ماريسا.

أذني الميكانيكية لم تكن تخدعني. بعد فترة، جاءت ضوضاء المحركات، تقريباً قعقة، تندفع إلى أسفل المنحدر. خوفاً من أن يتم دهسنا، سحبت ماريسا وذهبتنا إلى شاطئ الماء. مرابضين هناك، رأينا سيارتين تتأرجحان، على الرغم من أننا لم نتمكن من تمييزهما بوضوح من موقعنا، إلا أنني تمكنت من تحديد ضوضاء المحركات بوضوح. خرجنا على الطريق وسارعنا

إلى المنحدر. كنا نقطع الطريق بسرعة، عندما رأينا خوسي ماري وأنا، زوجته، يركضان. كان هناك مجموعة من الناس أمام الحانة، وقد أحاطوا بجثة ملقاة على الأرض وسط بركة من الدماء، داخل الحانة كان هناك أشخاص لم يجرؤوا على النظر. أنا وخوسيه ماري اقتربا منا.

– «لقد قتلوا خوليو! يا للمسيح! لقد قتلوا خوليو!»، أخبرتنا أنا.

كان صاحب الحانة جاثماً بجانب الجثة. جاء خوسي ماري وساعده على كتم النزيف بمنشفة. انحنيت أنا أيضاً لتفحص نبضه.

– لا يزال حياً. علينا أن نبقية دافئاً.

دخل صاحب الحانة وعاد مع اثنين من مفارش المائدة، وقام بتغطية الرجل الجريح.

– «أنا ذاهب لاستدعاء سيارة إسعاف» – قال ذلك وأشار بأنه سيعود إلى الحانة.

– حدّره خوسي ماري، «لا يوجد وقت، لا يمكننا الانتظار حتى تصل سيارة الإسعاف. سأحضر الشاحنة».

خرج خوسيه ماري جرياً، بينما كانت أنا تمسك برأس خوليو.

– هون عليك يا معلم، هون عليك. سنحملك إلى المستشفى.

فتح خوليو عينيه، راسماً على محياه ملامح شخص ما زال لا يفهم ما يحدث له، تركت ماري سا، المتعلقة برقبتي، واقتربت. ثبتت عينيه عليّ وأشار إلي. ثم تمت شيئاً. قرّبت أذني من فمه.

– «خوانيتو، خوانيتو»، تمتم بشيء لم أسمعه تقريباً.

تدفق خيطٌ من الدم من زاوية شفثيه وركض على خده حتى رقبته. مطيعاً دفعة من يده، أمسكت بيده ووضعتها على صدري.

– «خوانيتو»، همس مرة أخرى.

وضعت أذني على بعد بضع بوصات من فمه.

– بدا لي قوله، «غورا أديلا» – في منتصف نوع من الحشجة الباهت.

تراجعت ببطء وابتعدت نحو ماريسا، التي عانقتني باكية. على الفور وصل خوسيه ماري مع شاحنته، وضعوا بعض مفارش المائدة في الخلف، وأصعدوا خوليو، ووقفت أنا بجانبه، وجلس ساقبي الحانة وخوسيه ماري في المقدمة. قام خوسيه ماري بخفض النافذة قليلاً، وأخرج منديلاً أبيض، ثم رفع النافذة مرة أخرى مغلقاً على المنديل، وانطلق بسرعة نحو المستشفى.

عندما دخلوا غرفة الطوارئ، كان خوليو لا يزال على قيد الحياة. لكنه لم يصل إلى غرفة العمليات.

قام رجلان مقنعان بإطلاق النار عليه، بينما يغادر الحانة، من سيارة توقفت في مواجهته. حدث كل شيء في ثوان، وهرب المقنعان بأقصى سرعة إلى أسفل المنحدر. بالطبع، شعرت أنا وماريسا بسيارتين تمر – ربما كانت الأخرى تنتظر بيقظة في مكان ما على المنحدر – وأنا متأكد من أن الثانية كانت دراجة نارية، ميزت أذني بوضوح محرك بولتاكو مترالا. لم أخبر أحداً، ولا حتى ماريسا.

## 9

قلة قليلة من الناس حضروا جنازة خوليو، لم يكن لديه أقارب في هذه البقعة، ولم يرغب أصدقاؤه القدامى في أن ينبش أحد في رماد تلك الصداقة القديمة والمهمة، لأن هدفهم كان محو ماضيهم المتعلق بفرانكو في أسرع وقت ممكن والتكيف مع الوضع الجديد، لتحقيق أقصى استفادة من الديمقراطية الفتية.

أثار مقتل خوليو غباراً من الصمت في الحي، بدأ العديد من الأشخاص الذين سبق لهم التصفيق علانية أو ضمناً لأفعال إيتا في الاختلاف مع أساليبها، على الرغم من أن قلة قليلة منهم تجرأوا على التعبير عن ذلك في الأماكن العامة. مثل أبواب ونوافذ مبنى مهجور، لكن ظل معظم الناس بكماً وصماً ومكفوفين.

في الجنازة، جلست أنا وماريسا بجوار أديلا، في الصف الأمامي، ووالدي خلفنا، بجانب خوسيه ماري وأنا. فقط أديلا رافقت الكاهن إلى إنزال الجسد. خلال الجنازة، كنت أنظر إليها بجانب عيني، وكان مظهرها هادئاً، على الرغم من ملامح الحزن التي ارتسمت على محياها. في طريق الخروج، رافقتها أنا

وماريسا إلى بوابة المدرسة، ودعتنا للصعود إلى منزل المعلمين الخاص بها. بمجرد الصعود إلى الطابق العلوي، أخرجت بعض الكعك وبعض عصير الخوخ، وجلسنا على الأريكة في غرفة المعيشة.

– أخبرتنا على الفور، «أنا سعيدة للغاية برؤيتكما معاً، أنتما زوج مثالي».

شكرتها ماريسا بابتسامة. اكتفيت أنا بارتشاف عصير الخوخ. تابعت أديلا حديثها، لكن ليس عن خوليو، أرادت أن تعرف كيف حالنا في الدراسة، وما هي خططنا المستقبلية.

– سأدرس الطب – قالت ماريسا.

حدقت أديلا في وجهي، مستفسرة بعينين نفاذتين.

– شرحت لها: «ما زلت لا أعرف ما سأفعله، حال انتهائي من دراسة كوي، ربما سأبدأ العمل بدوام كامل، لأننا مشغولون. أرغب في أن أكون ميكانيكياً، هذا ما أردته منذ أن كنت طفلاً».

– التفتت أديلا نحوي بإمالة قائلة: «هيا، الآن أخبرني، دون «ربما»، ماذا تريد أن تفعل؟».

التزمت الصمت لفترة من الوقت، لم أستطع الإجابة عليها بمراوغة أخرى.

– أود العمل كميكانيكي في فترة ما بعد الظهر، ودراسة الهندسة الإلكترونية في الصباح.

ابتسمت أديلا. بينما تابعت أنا:

– لا أعرف ما إذا كنت سأتمكن من فعل ذلك.

قالت مؤكدة: «بالطبع ستفعل! أعلمُ قدراتِكَ أكثر مما تعرف نفسك».

ثم التقطت العصائر والكعك المتبقي.

– ألا تريدان المزيد؟

كان علينا أن نغادر. نهضنا لنودعها.

– سأكون ممتنة حقاً إذا أمكنكما الانضمام إليّ لتناول العشاء – بدا الأمر  
توسلاً أكثر منه طلباً، بينما هي ممسكة بالصينية في يدها.

نظرنا أنا وماريسا إلى بعضنا بعضاً.

– ستسديان لي معروفاً. أريد أن أنسى خوليو، أنسى الشقة الفارغة أمامي،  
الباب المواجه لبابي، البديل الذي سيظهر غداً في المدرسة وما يجب أن  
أشرحه له... ابقيا معي رجاءً.

وافقت ماريسا. شكرتنا أديلا بعناق، ثم ساعدناها في إعداد العشاء. فتحنا  
علبة من الهليون، أعددنا سلطة الخس وعجة الفطر. بالنسبة للحلوى، تناولنا  
زبادي منزلياً أعدته أديلا مع قطع من البرقوق والتفاح المبشور ومرى  
العليق. بينما كنا نطبخ وتناول العشاء أخبرتنا أديلا بحكايات من طفولتها  
وكانت مهتمة بتفاصيل حياتنا وعلاقتنا.

– وأنتِ، كيف حالكِ؟ – سألتها، حتى لا تتدخل كثيراً في شؤوننا الحميمة –  
هل لديك شريك أو شيء من هذا القبيل؟

ضحكت ثم رمقتنا بنظرة حزينة، مثل جرو ضال، وبدأت تتحدث كما لو  
تتحدث إلى نفسها.

– أفضل ما يعبر به: «شيء من هذا القبيل» – توقفت مؤقتاً، كما لو تبحث  
في أفكارها – «على وجه التحديد، في مسألة الحب، ما كان لدي دائماً هو  
«شيء من هذا القبيل». لقد عانيت من خيبة أمل بعد خيبة أمل، وحاولت  
سد ثغرات روحي بقليل من الدفء البشري، بأذرع قوية من شأنها أن  
تحميني عند شعوري بالعجز وبدون عائلة تحنو عليّ، بدون أب يؤمنني  
بشخصيته. لقد كان لدي أصدقاء جيدون، لكنني لم أتمكن من العثور على أي  
شخص يمكنني أن أصل معه إلى إرضاء الغريزة. أتعثر مراراً وتكراراً على  
نفس الحجر. عندما أعتقد أنني وجدت أخيراً شخصاً أشارك معه مشروعاً  
جاداً للحياة، فإن شيئاً ما يحيد عن المسار. أحياناً أشعر بالغباء.»

أخذت نفساً عميقاً، محاولة تكوين نفس كاف للتفوه بكلماتها:

– أو من بالحب والحرية بدون حكمة أو قمع عفا عليه الزمن. لكن الحب لا  
يزدهر مع الحرية المصطنعة. في بعض الأحيان تبدو مثل الوحوش البرية،  
نمزق أنفسنا إلى أشلاء في مقابل الحصول على بضع لحظات من الرضا،  
وفي أحسن الأحوال نتشارك فريسة المتعة... يا للمسيح! يا له من بؤس!

جاءت ماريسا إليها وعانقتها، أخبرتها بصوت ناعم، ناظرة نحوي، أنها أروع شخص قابلناه على الإطلاق، وأفضل معلمة.

تراجعت أديلا مبتسمة.

– ربما هذا بالنسبة إليكم. لكن هناك بعض الأشياء التي لم أتمكن من حلها في حياتي... على أي حال، لن نقضي الوقت نتحدث عن هذا الأمر، ليس اليوم.

– أصرت بقرار لا أعرف من أين ينبع قائلاً: نعم، اليوم، أرغب في أن نتحدث عن ذلك بالضبط.

نظرت أديلا في وجهي نظرة حزينة.

– «ما هو شعورك تجاه خوليو؟» – سألتها من مسافة قريبة.

توقف تنفس أديلا، مثل ما يحدث عندما يمر شيء ما في منتصف حلقك ولا يسمح للهواء بالمرور. جاءت ماريسا إليها وعانقتها مرة أخرى. تنفست أديلا الصعداء ثم انفجرت في البكاء. بكت لفترة طويلة على كتف ماريسا. عندما تحرر نفسها، رفعت رأسها ناظرة في عيني.

– أشعر بالذنب، خوانيتو، بالذنب. أعلم أنه لا علاقة لي بجريمة القتل، وأنني أوضحت موقفي دائماً تجاه مثل هذه الأفعال، لكن خوليو كان حبيبي وعدوي في وقت معين، لا أعرف، لكن بطريقة ما أشعر بالمسؤولية عن وفاته. لا أعرف كيف أشرح ذلك.

– أجبته بحزم: «أنا أعرف. كان خوليو العاهر الذي قام باستغلالك».

– لا تقل ذلك... – أجابني أديلا بحزن.

– بل أقول ذلك، أديلا. أتودين التحدث بوضوح وبشكل مباشر، أليس كذلك؟ هذا ما علمتني إياه دائماً، كنت دائماً صريحة معي ومع بقية الأطفال. حسناً، الآن أقول لك بوضوح ما أعتقد: خوليو العاهر الذي استغلّك، عاهر عذب الأطفال. إنه يستحق ما حدث له.

– لا تقل هراء...

ما زالت ماريسا تعانقها، صامتة، تنظر إليّ من زاوية عينها مثل غزال خائف.

– «كان هناك وقت فكرت فيه في قتله بنفسي»، اعترفت.

– «خوانيتو! ليس ذلك، خوانيتو!» – صرخت أديلا، وانقضت عليّ.

عانقتني وضغطت عليّ حتى لم أستطع التنفس.

– لا تقل ذلك، خوانيتو. لا تقل ذلك. أعلم أنك لست هذا الشخص.

جاءت ماريسا أيضاً، وسألتني عما همس لي خوليو وهو مصاب بجروح بالغة على الأرض.

– أعتقد أنه كان يطلب مني المغفرة.

تركتني أديلا محدقة في وجهي.

– وهل سامحته؟

– نعم.

– لقد فعلت الصواب.

– أنا لا أعرف، أديلا. الآن لا أعرف ما إذا كنت سأسامحه.

– لا تتردد في القيام بذلك. ثقل الكراهية لن يفيدك.

– بتوتر سألتها: هل تعرفين الكلمات الأخيرة التي همس بها؟ هل تودين أن أعيدها عليك؟

ظلت أديلا صامته، دون تحريك عضلة، مثل شخص ينتظر طعنة.

– قال، «غورا أديلا».

فتحت فمها، مما يعني أنها لم تفهم. كررت لها كلمات خوليو:

«غورا أديلا. غورا أديلا».

كانت أديلا وماريسا تنظران إليّ بوجه مصعوق.

– تابعت: لا أعرف تماماً كيفية تفسير هذه الكلمات. كلما حولتها، تبدو أنها مليئة بالسم.

لقد تخيلت طعنة خوليو الأخيرة، سخريته الأخيرة الموجهة إليّ وإلى أديلا، جهد المعلمة لتعلم لغة كان يكرهها هو، بناء على طلبه لي، ضغينة سخيفة أخبرتها أنه استمتع بها دون أن يجبها، دون أن يعطيها حتى بضع فتات من المودة والتفاهم. كانت أيضاً سبباً لدعوتها «عاهرة الباسك».

– قالت أديلا بصوت ضعيف: «ربما الأمر أبسط من كل ذلك».

نظرت إليها بعيون مستفسرة.

– ربما ود فقط الاعتراف بأنه في أعماقه أحبني مثلك تماماً. من الممكن أن تكون طريقة للاعتراف لك: «انظر من أحبنا أنا وأنت يا فتى»، وقد فعل ذلك متقبلاً ومعتزلاً بدوري في هذا الحي، على هذه الأرض، مع هؤلاء الأطفال. ربما كان هذا هو الأمر.

لم أدر بماذا أجيب، لكن هيمن عليّ شعور مختلف تماماً.

أصبح الوقت متأخراً. رافقتنا أديلا إلى منزلينا ثم ذهبت في نزهة حول الحي، قالت إنها تريد تنظيم أفكارها المشوشة.

«ما هو الشيء الغامض بالنسبة للوقت؟»، يتحدث فيرجيل عن نفسه من خلال قلم هيرمان بروش: «يفرغ الوقت، ويتدفق التيار، ويفرغ نحو الموت، وإذا ما تم التخلص من الموت، يختفي التيار والوقت. لماذا يتم القضاء على الوقت إذا تم القضاء على الموت؟».

فرضية شجاعة، فيرجيل، القضاء على الموت، واهم بلا شك، تموت على سريرك. بجانبك، القيصر أوغسطس القاهر، الذي تعرفه جيداً هو إنسان عاجز مثلك، سيطر على الإمبراطورية فقط لأنها تكيفت معه، لأنه يتناسب تماماً مع هياكلها. للقضاء على الموت، فيرجيل، لأن، ما فائدة كل اليوتوبيات، كل النضالات لتحسين مصيرنا، إذ عاجلاً غير آجل منجل حاد ينتظرنا لقطع أرجلنا، ولن يترك لنا من مسار يسمح بمواصلة سيرنا نحو ما هو براق؟ نعم، فيرجيل، بالإضافة إلى اليوتوبيا الصغيرة تقبع الحاجة إلى القضاء على الموت وأن نصبح سادة الوقت، لوقف النهر، أو أفضل، لتوجيهه وجعل مياهه تعود إلى الأصل، نحو عودة أبدية في الحياة، مثل أوروبوروس<sup>(20)</sup>، ليس فقط في الاتجاه المؤسف للبحث عن السلطة التي

اقترحها نيتشه، ولكن كولدادة جديدة مضيئة وبريئة في الجسد والروح، تماماً كما في القيامة المسيحية، ولكن هنا الآن، على هذه الأرض، في هذا الوقت، في ذلك الجسد، في تلك الروح، بدون موت، دون ولادة جديدة، أو الموت والولادة مرة أخرى في نفس اللحظة بلا هدنة. وإلا، ما فائدة اليوتوبيا؟ فهي ليست أكثر من الاستثمار بلا طائل.

أعلم أن أدبياً طرحت نفس الأسئلة تلك، على الرغم من أنها لم تسألنيها بهذه الطريقة، على الرغم من أنها لم تستطع طرحها على ذلك المراهق الملتحي بهذه الطريقة. لقد وجهت اهتماماتها الوجودية نحو البوذية الشخصية للغاية، كما قالت، التي وفرت لها السلام والهدوء جزئياً، لكنها فشلت في تحقيق التوازن بين جانب من جوانب شخصيتها تسبب لها في عدم الراحة المستمرة، ومع ذلك، في علاقتها مع الأطفال، تحولت إلى حلاوة الأم والأرق المرح. وصف بعض الناس أدبياً بأنها شبقية، لكنني متأكد من أنها لم تكن كذلك. كانت أدبياً امرأة ذات حيوية غير عادية، ولديها قدرة لا تنضب على العمل، ولديها نشاط جنسي ناري، بالإضافة إلى ذلك، لم تكن لديها المحرمات التي لدى الآخرين. كنت أعرفها جيداً، حتى بدون إقامة علاقة حميمة معها، حاولت توجيه انجذابها إلى الرجال بطريقة منظمة، لكنها انجذبت إلى الأكثر وحشية، والأصعب، أولئك الذين أخلوا وقلبوا حياتها رأساً على عقب، كما لو أن فهمها وشخصيتها اللطيفة بحاجة إلى إطعامها باستمرار بطاقة عكسية، أو كما اعترفت لي، كما لو كانت تبحث عن حماية ذكورية من شأنها تعويضها عن القضاء القاسي على شخصية الأب الذي عانت منه منذ طفولتها المبكرة.

في اليوم التالي لجنازة خوليو، في فترة ما بعد الظهر، قبل وصول ماريسا، فتحت خزانة غرفة نومي، أمسكت ببطانة بدلة زفاف والدي، وتحسست الرصاصتين وقرأت بأصابعي الشقوق التي نقشتها عليها: «خ». أمسكت بالرصاصية، ووضعتها في جيبتي، وذهبت إلى المرآب، وأخذت الدراجة التي كانت تخص والدتي ذات يوم، ونزلت على منحدر الحي، بالكاد أزلت كبح الفرامل، كانت الرياح تهز معطفي، نفخته مثل شرع سفينة. بمسافة كافية قبل الوصول إلى المنعطف الأخير والضيق أمام النهر، بدأت في التباطؤ، لأمنح نفسي الوقت، لأنني نزلت بسرعة مذهلة. عبرت إلى الجانب الآخر، نزلت ثم عبرت بعض الجدران الخرسانية التي كان من خلالها يصل المرء إلى بئر حجري عميق تم فيه تحويل جزء من مياه النهر، وتوجيهه إلى المصانع على الضفة. كان هناك كرنك حديدي كبير هناك قبل الحرب، لفتح وغلق البوابات، والذي لم يعد مستخدماً وعالقاً، في أكثر من مناسبة حاولنا نقلها بمساعدة عدد من أطفال ولم تتمكن من تحريكه مليمترًا واحداً.

أخرجت الرصاصة من جيبي وألقيتها في قاع البئر. كان هذا مكاناً قاتماً في ذاكرتي، لا يزال بإمكانني أن أعيشه، كما لو يحدث الآن، القلط الصغيرة حديثة الولادة تسبح بيأس، وتحاول تسلق الجدار الحجري، من ثم تسقط مرة أخرى، وتسبح بكل قوتها لفترة طويلة، حتى بسبب الإرهاق المطلق تركت نفسها كي تبتلعها عين الدوامة اللطيفة التي تشكلت في وسط البئر حتى تختفي تحت الماء. لم أبلغ من العمر أكثر من ثلاث سنوات في ذلك الوقت، أمرت جارتني خوسيه ماري، الشاب الذي تخرج لتوه من الجيش، بالتخلص من القلط التي أنجبها قطة منزلهم. كان لديهم بالفعل ثلاثة، ولم يرغبوا في المزيد.

أقنعتُ والدتي بالسماح لنا بالبقاء مع أحد المحكوم عليهم بالإعدام، وأمسك خوسيه ماري بالآخريات بشكل طبيعي، ووضعها في كيس، ودعاني لمرافقته بابتسامته المعتادة، كما لو كان أكثر شيء طبيعى في العالم. قبل وضعها في الحقيبة، فركت القلط ظهورها في كاحلي خوسيه ماري، في موقف حنان وثقة، وتركت نفسها يمسك بها. خوسيه ماري مدلياً كيسه على كتفه، مد إليّ اليد الفارغة، وذهبنا إلى أسفل المنحدر. تموء القلط داخل الكيس وتكافح من أجل الخروج. كان على خوسيه ماري أن ينزل الكيس عن كتفه ويحمله معلقاً بيده، لأن ظهره كان مصاباً. عند وصولنا أسفل المنحدر، دخلنا من خلال الجدران الخرسانية، حتى وصلنا إلى البئر. فتح خوسيه ماري الكيس وألقى بالقطط الصغيرة في الماء من ارتفاع حوالي عشرة أمتار. عشت ذلك كتجربة مرعبة: أربع قطط حديثة الولادة تسقط في الفراغ، تهز كفوفها كما لو كانت تحاول الطيران، تموء بشدة، وبعد ذلك، تنثر الماء، والغوص، والعودة إلى الظهور، والنضال اليائس، حتى غاصت أخيراً. كانت آخر قطة تغوص بها بقعة بيضاء على رأسها الأسود المخملي، بقعة بيضاء تشبه الهلال.

في ذلك الوقت كان من الشائع جداً التخلص من القلط حديثة الولادة، وربما اختار خوسيه ماري الطريقة الأقل وحشية للقيام بذلك، لأنه من بين الأولاد الأكبر سناً في المدرسة، أولئك الذين اعتادوا وضع القلط في أكياس وقتلها بهراوات داخل الكيس نفسه ثم دفنها، كانت تلك الطريقة الأكثر فعالية، حسب رأيهم، لأنهم جربوا دفنها حية، وتمكنت بعض القلط الصغيرة من الخروج لاحقاً من تحت الأرض وهربت. جذبت ذكرى القلط الصغيرة إلى ذاكرتي قصص الحرب، الروايات التي سمعتها من عجازى الحي، تساءلت عن عدد الآبار المغطاة بالعشب والتي تخفي في صدوعها بقايا العديد من الأشخاص الذين أطلق عليهم النار ولم يسمع عنهم المزيد. في بعض المناسبات، سألت والدي عن السر الخفي، عن مشاركته في الحرب،

لكنه التزم الصمت، رأسه لأسفل، ثم بعد فترة سرعان ما نهض من مقعده وأغلق نفسه في غرفة نومه.

هناك رجال عاملوا أدبياً مثل تلك القطط، استخدموها لبضع لحظات من المتعة، ثم وضعوها في أكياس اللامبالاة وألقوا بها في بئر سحيق. ومع ذلك، كانت تخرج من الماء، وتتسلق الجدران وتعود إلى الحياة، مثل القطط التي تمكنت من إنقاذ نفسها من الدفن. لم أتعرف على حياة أدبياً العاطفية بالتفصيل، رغم أنني كنت أعرف عنها الخطوط العريضة، مما استنتجته من تعليقاتها ومما علمته من أفواه الآخرين، بالإضافة إلى ما قرأته في عينيها، صوت الصمت ذلك الذي يُحدث عن مشاعر الناس وتجاربهم الخفية. لهذا السبب أدركت كون أدبياً ناجية مثل قطة ذات سبعة أرواح، أقيت مراراً وتكراراً في البئر من قبل رجال لا يستحقونها. يا للمسيح! لا أحد منهم يستحقها، ولا حتى الرجل القوي لمنظمة اليسار الشيوعي، الذي على ما يبدو هو الشخص الذي تصرف معها بأفضل شكل.

هكذا جرت الأمور. بعد كل شيء، كانت أدبياً طفلة في عصرها، نسل جرح قديم عانت منه جميع العائلات إلى حد ما، على الرغم من أنه في الحي حيث أقطن، بين أشخاص مثلي وجيراني، بدت المعلمة وكأنها كائن من مجرة أخرى، ومع ذلك، كانت ابنة عصرها أكثر منا جميعاً. ابنة الزمن، تعبير غريب، لأن الوقت يأكل أطفاله بدقة.

بعد وفاة فرانكو، جاءت الأوقات العصيبة التي لم يبد فيها كل شيء نابعاً عن حرية، انتشرت البطالة أيضاً، ووصلت المخدرات، تأثير متأخر من مايو 68 والحركة المضادة للثقافة، أمر يرى حتى ذلك الحين بشكل متقطع جداً في بيئتنا، كانت المواد المهلوسة علامة على التحرر وأسْر حزين في نفس الوقت. وبعد المخدرات، انتشر الإيدز، اللعنة العظيمة التي شوهدت في البداية في حالات قليلة جداً، مخفية بالعار والإدانة، ثم في وقت لاحق تسبب حرقياً في مذبح، والقضاء الممنهج على الشباب غير القادرين على التكيف أو غير المطابقين، المحبطين من السياسة واليوتوبيا الثورية، القضاء الأكثر دموية من ذلك الذي حدث في حقبة الديكتاتورية الأخيرة. في بعض الأحيان، أعطى كل شيء انطباعاً بالانتحار الجماعي للأشخاص اليائسين، بعد رؤية ما قادتنا إليه سنوات عديدة من النضال الشاق والمعاناة.

كرد فعل، تواجد هناك أولئك الذين وجهوا كل غضبهم ضد المخدرات بسبب خيبة الأمل وتدمير العديد من الآمال المعلقة على مثل هذا التغيير التاريخي

الواعد والوشيك. ومع ذلك، فإن الأدوية نفسها ليست أكثر من مادة كيميائية، مثل التيتادين<sup>(21)</sup>.

## 10

أخبرني صاحب ورشة العمل بكل فظاظة:

– وفقاً للوضع الحالي، لا يمكنني الاستمرار في دفع الضمان الاجتماعي والضرائب للعامل الذي يعمل نصف دوام فقط. أرغب في استمرار عملي معي، أنت ميكانيكي جيد، لكنني أريدك بدوام كامل. لا يمكن أن يكون بأي طريقة أخرى.

ما هو البديل الآخر المتبقي لي؟ ربما لدي، لكنني لم أستطع رؤيته أو لم أجرؤ على المخاطرة في اتجاه آخر. لقد وصلت الأوقات ذات القوائم التي لا نهاية لها في مكاتب التوظيف، في خضم فترة الانتقال الديمقراطي، البحث عن وظيفة أخرى لم يكن أقل من المستحيل. من ناحية أخرى، يعاني والذي من حالة صحية حساسة، يعمل ساعاتٍ أقل، ولم تتبقَ نقود في المنزل، يعتبر راتبي نعمةً من الله على الأسرة. في مثل هذه الظروف، كان التفكير في الذهاب إلى الجامعة ليس أكثر من مزحة، وأكثر من ذلك حتى يتمكن والداي من تحمل تكاليف دراستي باهظة الثمن مثل تلك الخاصة بدراسة الهندسة الإلكترونية. كان من الواضح أنني مضطر إلى شد حزامي ومواجهة الواقع، حتى أكثر صعوبة من ذي قبل لأنني لم أعد أحصل على دعم ماريسا أو كلماتها المتفائلة التي طالما أشعلت حماسي حتى فكرت بالسفر للدراسة في الخارج، حتى نعيش معاً دون معرفة الوالدين وتجربة مغامرات مثيرة. فكرت في طلب النصيحة من أديلا، لكن بدا لي أن الأمر لا يستحق إزعاجها بمشكلة كتب حلها مسبقاً، امتلكتُ العديد من الأعذار لتبرير جبنتي، القرار الذي فكرت فيه سيحدد حياتي المستقبلية بشكل كبير. أتساءل كم من ضعف في النفس وفقر في الروح تم إخفاؤه تحت قناع المسؤولية والبر بالوالدين الذي نظهره في سلوكنا اليومي. هل هم حقاً بحاجة لي في المنزل، أم أنني شعرت بالأمان والراحة فيه؟

كانت العلاقة مع ماريسا قد بدأت في الجمود في نهاية الكو. شيء لم أستطع تفسيره. يكون المرء سعيداً جداً بوجود شمعة مضاءة في يده، ثم يدمرها النسيم وبطفتها. يحدث مثل هذا، دون تدخل الإرادة. في الصيف، ذهبت ماريسا في إجازة مع والديها. وحينما عادت من الرحلة كان ينقص وجهها شيء. شعور غريب للغاية، وكأنها خضعت لعملية تجميل وتغيرت

تعايير وجهها. وإصلنا الخروج معاً فيما تبقى من الصيف في خمول، حتى أننا قبلنا بعضنا بعضاً وداعب أحداً الآخر، ولكن ليس بشغف كذي قبل، إبن نحن من شعور ذلك اليوم الأول الذي سمحت لي بلمس صدرها، الأمر الذي أشعل بركاناً في داخلي وتسبب في ثوران بركاني هائل؟ في بداية شهر أكتوبر، ذهبْتُ إلى بلد الوليد لدراسة الطب، وهنا انتهت علاقتنا. لم تكتب إليّ ولم أكتب لها، رغم أنني شعرت بالإغراء في أكثر من مناسبة، لكن دائماً ما كنت أستسلم بسبب التردد أكثر من أي سبب آخر. هكذا انطفأت شعلتنا، بدون ضغينة، بدون مأساويات، مثل شمعة تنطفئ. ما زلت أتذكر ماريسا الأولى، مذاقها... تبلل فمي، كان حُبنا مثالياً، ولا أفهم كيف انطفأ بلا حس ولا حسيس. في مثل هذه الظروف، نميل إلى القول هذه هي الحياة، لكن هذه محاولة لتعزية لا تطف مرارة الصبر الذي نضطر إلى تجرّعه.

يشعر الشخصُ منا بسخفه الشديد في بعض الأحيان! يدع ما هو على وشك الغليان يبرد ويحدث تحولاً عميقاً، يترك الشمس في منتصف الشتاء، وبعد مرور الوقت، يتذكر بشوق كيف شعر بالرضا. ماذا فعلت لأحتفظ بماريسا؟ لا شيء، تركت علاقتنا تبرد، وعند فوات الأوان، ندمت على فتوري وسرت بداخلي حماسة مفاجئة، اتخذت قراراً شنيعاً لاستعادتها: في إحدى ليالي السبت، ركبت القطار الأخير إلى بلد الوليد دون أن أعرف حتى العنوان، حيث كانت تقيم ماريسا. أشعر بالرغبة في النوم، فتحت عيني في حوالي الساعة الثانية صباحاً، عنقي متيبس من وضعية النوم السيئة، وقرأت اللافتة التي تعلن عن محطة ميراندا دي إيبرو. توقف القطار على جانب الطريق لفترة طويلة، وشعرت بالأرق أكثر فأكثر. فجأة، بمجرد أن بدأ القطار في التحرك مرة أخرى، نهضت من مقعدي، وركضت نحو الباب، وفتحته، وقفزت على الرصيف. وبخني مدير المحطة بصوت عالٍ. كان خائفاً حتى الموت، يظن أنني أريد الانتحار. قضيت بقية الليل على مقعد على الرصيف، أغفو بشكل متقطع، حتى تمكنت من ركوب قطار عائد. كانت النجوم ترفرف في سماء قشتالة، مثل الشرر المنبعث من السماء، لكن في تلك اللحظات لم أهتم بعظمة السماء، لم أكن لأجفل حتى إذا ما عنت جوقه الملائكة لتهدئتي.

حتى لا أفقد وظيفتي، لم يكن لديّ خيار سوى العمل بدوام كامل، والذي لا يتألف من ثماني ساعات، بل عشر ساعات أو أحياناً اثنتي عشرة، دفع المالك لنا مقابل ساعات العمل الإضافي في الخفاء، لتجنب الضرائب، كنت قد تحصلت على مكافأة جيدة جراء ذلك. بعد بضعة أشهر اشتريت لعبة غولف مستوردة كانت تعرضت لحادث، بسعر تنافسي، ثم أصلحتها جيداً، وعادت كالجديدة. كان والداي فخورين بي، لأنهما شاهداني «أزدهر» بسرعة، على الرغم من أنني اعتدت العودة إلى المنزل منهكاً، أريد

الاستحمام وتناول العشاء ومشاهدة التلفزيون على الأريكة الجديدة التي أعطيتها لوالدي، كما أعطيتهما تلفزيوناً ملوناً. أعطيت الراتب لأمي، واحتفظت بمقابل ساعات العمل الإضافي، الذي بلغ نفس الراتب أو ربما أكثر. أنفقتُ والدتي نصف راتبي، أقل على الأغلب، ثم أودعت الباقي في صندوق التوفير، في دفتر حساب باسمي. شعرت بالثراء، مع ما كان يعطيني صاحب العمل في الخفاء. كان بإمكانني الخروج لتناول العشاء في نهاية كل أسبوع والعيش حياة راقية، لكن لم يكن هذا ما أردت. بصرف النظر عما أنفقتة على سيارتي، والذي لم يكن كثيراً، احتفظت بالباقي في صندوق أحذية تركته ملقى في الخزانة، بالضبط تحت بدلات زفاف والدي. بعد مصاريفي الكبيرة الأولى، توقفت عن وضع الأموال في الاعتبار، وبدأت تراكم في صندوق الأحذية.

بعد المرحلة الأولى من اللامبالاة الفكرية التي اعتدت فيها على الذهاب في مرح صاخب في عطلات نهاية الأسبوع مع أصدقاء شريكي في ورشة العمل، استأنفت حياة التقاعد المعتادة وتوجهت إلى القراءة والاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية. نمت بداخلي الحاجة إلى الدراسة تدريجياً، وانتهى بي الأمر بالتسجيل في الجامعة الوطنية للدراسة عن بعد، في علم اللغة، بالتأكيد نَحيت جانباً وهمّ السعي للحصول على درجة علمية. يبدو أنه عاد ليتأجج بداخلي الحنين إلى الشعر الطفولي نصف المطفأ، حتى أصبت بنوع من الحمى، فقررت الاستيقاظ كل صباح في السادسة، أدلك جسدي بالماء البارد، ثم أمارس القليل من اليوجا، وأحلق ثم أرتدي الملابس في لمح البصر، ومن ثم أشرع في الدراسة على ضوء مصباح، في حوالي الثامنة إلا الربع أشرب عصيراً أعدته لي والدتي، وأملأ فمي بالمكسرات، وأتناول الشطيرة التي أعدتها لي والدتي أيضاً، ثم أطيع على جبينها قبلة وأهبط الدرج ثلاثاً ثلاثاً، دون أن أتذكر عرجي، مدفوعاً بطاقةٍ بدت لي لا يمكن إيقافها.

في المساء، أتناول العشاء بمجرد عودتي إلى المنزل، ثم أشرب كوبين من القهوة وأكرس نفسي للدراسة حتى الثانية عشرة. مع الحياة التي أعيشتها، بالكاد كنت أرى أديلاً، ولم أخرج مع أصدقائي، استفدت من عطلات نهاية الأسبوع في الذهاب في نزهة في الجبال ثم الدراسة في الأعلى. بعد ظهر أحد أيام السبت، جاءت أديلاً لزيارتي. صنعت أمي الشوكولاتة الساخنة مع الخبز المحمص والزبدة. جلسنا على الأريكة في غرفة المعيشة حيث بدأ من الصعب بدء محادثة. بدأ الأمر وكأنه كذبة، عندما كان بيننا الكثير من الصراحة والثقة، الكثير من الكلمات المنطوقة بشكل مباشر، دون موارد،

بقلب مفتوح. ها نحن الآن، محرجان، ولا نعرف كيف نتجاذب أطراف الحديث.

– قالت: «هذه الشوكولاتة جيدة».

– طعمها رائع، نعم.

ابتسمت أديلا وهي تنظر إلى الكأس وتلعب بالملعقة الصغيرة. تناولت الشوكولاتة في صمت، غمست الخبز المحمص برفق، كما لو كانت تفكر فيما ستحدثني، بدا لي الأمر علي هذا النحو، على الرغم من أنها ربما تتذكر بحنين بعض تجارب الماضي من أوقات أخرى، أشياء علمتني إياها في مراهقتي. كانت تبتسم، تخلق جواً مضحكاً، كما لو أن وجودي دفعها إلى الاستمرار في معاملتي كطفل، كما قرأت في عينيها وفي الإيماءات الرقيقة لوجهها. تناولت الشوكولاتة، وتركت الكوب على الطاولة، مسندة ظهرها إلى الأريكة، واضعة إحدى ساقيها فوق الأخرى، وضعت كفيها على بطنها، كما هو الحال عندما تتحسس المرأة الحامل طفلها، ثم بدأت في الكلام.

– أخيراً، قررت أن تصبح ميكانيكياً.

– أحببتها.

– قالت ناظرةً إلى يدي: «ستكون ماهراً، فلديك أذن جيدة، مع خفة ظل».

ضحكت قليلاً ونظرت إليها بتعبير مرح. وجودها أشعرتني براحة متزايدة، بدا الأمر كما لو كنا على وشك الانخراط في إحدى ألعاب الطفولة الرمزية تلك، والتي سحرتني ذات يوم.

أدركتُ أديلا أن قراري بالعمل بدوام كامل يعني تدمير فرصي في الدراسة وتجربة تجارب أخرى، وهذا يعني في النهاية ارتباطي بحياة رتيبة ورمادية. لهذا السبب، عندما أخبرتها أنني التحقت بالجامعة الوطنية للدراسة عن بعد في بيرغارا، تراجعت إلى الوراء قليلاً على الأريكة، « لا تتفوه بالهراء!». كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذا التعبير من فمها، لأن أديلا كانت تستخدم دائماً لغة لا تشوبها شائبة، دون تحذلق، لكن دقيقة وصحيحة. على الأقل، كانت تلك هي أديلا التي عرفتُها.

كما لو تم وخزها بإبرة، بدأت في التحدث دون توقف.

– أود أن ألتقي بك من حين لآخر. حسناً، خوانيتو؟ نتقابل من يوم لآخر، لتناول الشوكولاتة؟

– بالطبع، أديلا. يمكننا فعل ذلك أحد أيام السبت.

– نعم، نعم، هنا، أو في منزلي.

ظلت أديلا تتحدث وتتحدث دون توقف، كما لو أن مقابلتنا قد أيقظت بداخلها ألحاناً تم إسكاتهما لفترة طويلة. أمضينا الكثير من الوقت في الدردشة في غرفة المعيشة، حتى حل الظلام. في هذا، طرقت والدتي الباب بتكتم. كانت هي ووالدي يستعدان لتناول العشاء، ثم دعت أديلا بطريقة « أنا لا أقبل بلا كإجابة».

– إذا ما سألتني على هذا النحو... – ردت أديلا مبتسمة.

تناولنا العشاء في المطبخ. لا تزال أديلا تتبع نظامها الغذائي النباتي، لذلك أعدت والدتي بعض الخرشوف مع البازلاء وحساء الخضار وعجة الهليون. رأيت والدي سعيداً جداً، على عكس عادتنا معه. روى حكايات طفولته وشبابه، بعضها مضحك للغاية، مثل تلك التي نزل فيها يوم السبت مع عصابة من أصدقائه إلى الحي أدنى الجبل، بعد تناول العشاء في بوديجون، الجميع سعداء بعض الشيء، أحضروا سيارة قديمة من إحدى السقائف، ووضعوا ريميخيو فوقها مع الأكورديون الخاص به، الذي اعتاد على إضفاء الحيوية على عشاء المجموعة، وساروا به حول الحي مشيرين ضجة، ودخلوا وخرجوا من الحانات، ورقصوا في منتصف الشارع، ثم بدأ أحدهم الذي هو أحسن صوتاً قليلاً من البقية، في النداء في جميع المداخل، وأيقظ كل من في الحي. عاش العمدة نفسه في أحد المنازل التي تم طرق الباب فيها، غاضباً، خرج إلى النافذة مرتدياً قميصاً، ليرى من هم أولئك المشاغبون، على استعداد لإبلاغ الضابط وحبس الجميع في سجن البلدية وفي صباح اليوم التالي يسجل ضدهم غرامة شغب. عندما نظر من النافذة، صاح أحد أفراد العصابة في وجهه:

– عمدة! تحياتي!

في تلك اللحظة بالذات، عزف ريميخيو، جالساً في السيارة، على الأكورديون المقطوعات الأولى للحن أميرة الأكورديون، وهو لحن عصري في ذلك الوقت. التزم الجميع الصمت، استمع العمدة إلى القطعة بنشوة. ثم عندما انتهى ريميخيو من العزف، ابتلع العمدة ريقه، ثم قال:

– يا لكم من محظوظين أيها الأشرار، لقد أفلتم من العقاب، فقط أسمح لكم بالرحيل بفضل الأكواديون. إذا لم يكن كذلك، سترون ما كنت سأفعل بكم. هيا، ضعوا السيارة في مكانها وعودوا إلى منازلكم.

تابع والدي الحديث، واستمعنا إليه بتسلية، كان علينا الاستفادة من تلك الفرصة، لأننا لا نعرف كم المدة التي سننتظر لنستمع إلى روايات أخرى من هذا القبيل، جرت العادة على كونه صامتاً وحذراً.

غادرت أديلا في منتصف الليل. عند الوداع، عانقتني بشدة، مثل عمة فخورة بابن أخيها المفضل. لا يزال لديها جسم رقيق ومرن مثل القصب، جلد ناعم، ولكن في قبضتها يمكن للمرء الشعور بثقل السنين، أو عبء آخر أثقل من السنوات.

بعد الخلود إلى النوم، عقب إطفاء الضوء، تذكرت الساعات الماضية والحكايات التي رواها والدي. ما دفعه إلى إخبارنا بكل تلك القصص الجميلة من ماضيه بالضبط الليلة التي بقيت فيها أديلا في المنزل لتناول العشاء؟ أيضاً هو بحاجة للتعويض عن الوقت الضائع؟ أم أنه يريد أن ينقل لنا حينه لفترة الشباب السحيقة، الآن صحته تتدهور أكثر فأكثر؟ أعتقد ببساطة أن والدي شعر بالدافع ليكشف النقاب عن اسمه المخفي، القصة التي حفرت كل حرف من أحرف اسمه، على الرغم من أنني شعرت أن شيئاً ما كان مفقوداً هناك، بعض أحرف اسمه كانت مفقودة، الرسالة الأساسية، مثل علامة حذف كبيرة أدى غيابها إلى توسيع حجمها. ماذا الذي يخبئ والدي خلف موقفه الصامت؟ ليس فقط بعض القصص المبهجة للشباب، لا بد هناك شيء آخر.

تحدث بعض الكتابات السرية عن اسم مخفي يمتلكه كل شخص، غير معروف بشكل عام، اسم مختلف تماماً عن الاسم المدنس الذي يعرفه الآخرون. يقال إنه إذا توصل المرء إلى اسمه الحقيقي، فإنه يمتلك مصيره، بعد نحته حرفاً حرفاً بناء على تسجيل التجارب التي يعيشها في ذاكرته، من ثم تكوين رمز سري للوصول إلى الروح. حال إخبار والدي عن تجاربه، كان يزودنا بجزء من الرمز السري لروحه، من اسمه الخفي، أنا، ومع ذلك، يشتبه في أن بعض الرسائل الرئيسية كانت مفقودة.

ملأتني زيارة أديلا بالحماس على الاستمرار في المسار الذي شرعت فيه. صحيح أنني أصبحت شخصية وحيدة أكثر من أي وقت مضى، تكاد تكون كارهة للبشر، ولم أخرج في عطلات نهاية الأسبوع مع أصدقائي، التي أنتهز

الفرصة فيها للقراءة والدراسة خلال أوقات الفراغ والعطلات. على أية حال، مرة واحدة في الشهر، شاركت في بعض رحلات تسلق الجبال التي تم تنظيمها في الحي أدنى الجبل. على الرغم من عرجي، إلا أنني كنت نحيفاً وقويًا، مشيت عبر الجبال مثل الآخرين، كان أسوأ شيء هو الطرق الطويلة المسطحة، والتي انتهت بي الأمر بالشعور بالاستياء، ومع ذلك، في الصعود والهبوط، تحركت مثل الماعز الجبلي.

كما شارك كل من خوسيه ماري وأنا، اللذان لم ينجبا أطفالاً وقسماً أوقات فراغهما بين حبهما للجبال والنشاط السياسي والثقافي، الذي ظل ملتزمين به، في الرحلات من وقت لآخر. كانت أنا مستشارة لترشيح مستقل، متفق عليها بين الناس من مختلف الاتجاهات، على الرغم من أن الغالبية تنتمي إلى هيري باتاسونا. بالإضافة إلى أنشطة تسلق الجبال، بمساعدة خوسيه ماري، نظمت العديد من الأحداث الثقافية وعززت تطوير لغة الباسك. لم يعودا معتادين على حضور التظاهرات والتجمعات الاحتجاجية لصالح سجناء إيتا أو الاحتفال بأولئك الذين غادروا السجن أو عادوا من المنفى، لقد غيرا موقفهما بعد اغتيال خوليو. عملتُ أنا لعدة سنوات كمستشارة للثقافة، حتى انتهاء المدة ثم قدم هيري باتاسونا ترشيحه، حينئذ لم يعتمدوا عليها مرة أخرى، أو ربما هي التي رفضت أن تكون جزءاً من ترشيح غير حر وتوافقي.

لكنني تقدمت كثيراً في العمر، لا بد لي من إعادة النظر مرة أخرى، وتفجير ورفع غبار الأرق، الذي يجبر الذين يكافحون بعنف على المضي قدماً، وكذلك دعاة السلام. الأرق يحولنا إلى كائنات تعاني ويصيبنا بلعنة الصبر، لكنه يمكن أن يحولنا أيضاً إلى جلادين.

أتساءل ما هو طبيعة الأرق الذي يكمن بداخل مارو.

## 11

لماذا حكمت على ابني جلامش باليأس ومنحه قلباً لا يعرف السلام؟

عرف قلبي الهدوء، وجرب عمق المتعة، والرضا، وحتى النشوة. وبدوره عرف طعم المرارة وعانى من عدم الراحة، ذلك الشعور بأنه شخص لا يستطيع التماهي مع أي شخصية، تلك الضباية التي يريد أن يبرز جزءاً من خلالها في صورة، لكنه لا ينجح في ذلك فتتسجم مع صورة واضحة، ولكن يُنظر إليها دائماً على أنها انعكاس ضبابي ومضلل. تساءلت في كثير من الأحيان عن شعور بعض الأشخاص بعدم الارتياح، شخصيات مثل مارو. في

أحد الأيام، ظهر يتجول في الحي، راكبا دراجة نارية نوع سانجلاس، وبقي ليعيش في المنزل المتهالك الذي تركه له والداه ميراثاً. لم يخطر ببال مارو حتى أن يعطيه طبقة من الطلاء، لم يمانع أن يعيش في هذا الحي الفقير المتسخ بشكل متزايد. الشيء الوحيد الذي اعتنى به ونظفه هو دراجته النارية سانجلاس. لم يعمل، ولم يقبض بدل البطالة، من وقت لآخر، يختفي بدراجته النارية ثم يعود بشكل غير متوقع إلى جحره. في البداية، تراءى له زرع القليل من الخس والكراث والسلق السويسري في الحديقة، لكنه سرعان ما مل الأمر، ترك العشب ينمو ومن وقت لآخر يدعو راعياً، لديه حظيرة أغنام في سفح الجبل، ليأخذ الخراف ترعى في البستان، مقابل بعض الجبن.

لم يعرف أحدٌ على وجه اليقين ما حدث له منذ أن هرب. ربطه البعض بـ ايتا، قالوا إنه فر إلى الجانب الآخر من الحدود وعمل كـ «ريكادستا» لتلك المنظمة. الأمر كله ثرثرة وافترافات، وقيل أيضاً إنه تم دفع مبالغ مالية له مقابل خدمات مختلفة لـ ايتا. شائعات والمزيد منها.

أيما كان الواقع، لم يعد مارو مرتبطاً بعصابته السابقة، كلهم متعاطفون مع ما يسمى أبرتزال اليسار. شوهد بمفرده في الحي، من الحانة إلى المنزل، ومن المنزل إلى الحانة، حيث يأكل ويشرب وأحياناً يسكر، يتحدث إلى أولئك الذين يعنونه، ولكن دون الاندماج في أي عصابة. اعتدناه عندما يشرب كثيراً، يتحول إلى شخص سريع الغضب وكثير الاستفزاز. بما أنه معروف لدى أهل الحي، فلم يعيروا استفزازاته أيَّ اهتمامٍ، اعتبروه شخصاً خطيراً، وبالتالي فضلوا عدمَ الدخول في مشاكل معه.

في إحدى المرات، تناول رافع أحجار العشاء في البار مع عصابته، ثم جاءوا إلى المشرب لتناول بعض المشروبات. بدأ أصدقاؤه يتجادلون لمعرفة ما إذا كان الرافع يمكنه حمل حجر يزن مئة وخمسين كيلوغراماً بيدٍ واحدةٍ. كان مارو يراقبهم، جالسا في ركنه المعتاد، مع قنينة ويسكي في يده بعينين متلألئتين. داعب الرافعُ ذقنه، وأكد أنه نعم، يمكنه رفعها للأعلى خمس مرات في دقيقة بيدٍ واحدةٍ.

– «أنت لا تستطيع أن ترفع حتى ثدي أمك»، صاح مارو بصوت أجش من ركنه.

أظهر الرافعُ كما لو أنه لم يسمع أيَّ شيء، على الرغم من أن تجعيدهً رسمت خطأ على وجهه. واصل أصدقاؤه التحدّثَ بمرحٍ. حينما شرعوا في

مغادرة الحانة، سمع صوت مارو مرة أخرى:

– أنت لن تتمكن من رفع حتى تدي أمك.

عاد الرافعُ إلى الخلف وركض نحو مارو. أمسك به من صدره بيد واحدة وهدده بيده الأخرى، مغلقاً قبضته.

– كرّر ما قلت.

لم يقدّم مارو أيّ مقاومةٍ، وابتسم مثل الأحمق.

– قلها مرة أخرى، إذا كنت تمتلك الجرأة.

دون أن يجفلٍ أو يمسح الابتسامة من وجهه، وصل مارو إلى جيبه، وسحب مسدساً صغيراً ووضعه تحت أنف الرافع.

– أقول إنني فقط سحبت هذا من فرج أمك.

عاد الرافع إلى الوراء. ثم وجه مارو المسدس نحوه، كما لو كان سيطلق النار، وصرخ:

– بووم!

غادرت العصابةُ بأكملها الحانة على عجل.

– اركض، اركض لرفع ثدي أمك!

التزم عملاءُ الحانة في صمت.

– قال له رجل البار: « مارو، أعطني ذلك واذهب إلى المنزل».

– عليك اللعنة أيها النادل.

– مارو، أعطني ذلك.

في الخارج، سمع ضجيج المحركات، غادرت العصابة الحيّ في عجل.

– مارو، أعطني ذلك.

أعطاه مارو المسدس، بابتسامة أبله.

– ها، ها، ها! – قهقهه مع ضحكة سخيقة – . إنها لعبة، أيها النادل، لابنك. هيا، أعطني بعض الويسكي.

تحقق صاحب الحانة من كونه سلاح لعبة، تقليد يقارب الأصل إلى حد كبير. ألقى بها في سلة المهملات بغضب.

– ليس هناك ويسكي! أنت في حالة سكر كامل، مارو! اخرج من الحانة!

ترنح مارو مبتعداً، دون أن تمحى ابتسامته السخيقة للحظة.

انتشرت الشائعات في الحي بأن مارو يتاجر في المخدرات، كان تفسيرهم الوحيد لذلك، إذا لم يكن فمن أين حصل على المال؟ على أي حال، إما أنه يؤدي ذلك العمل بشكل جيد للغاية، أو أن هناك شيئاً آخر متورط، لأنه لم يتم اعتقاله من قبل الشرطة كما حدث مع تجار مخدرات آخرين في الحي أدنى الجبل. على أي حال، كان مارو مستأجراً مزعجاً في الحي، وتسبب وجوده في اضطرابات في الحي. ولكن لم يكن هناك شيء يمكن القيام به ضده، إلا إذا ما ألقت الشرطة القبض عليه متلبساً أو اتهمه شخص ما بأدلة دامغة.

في ذلك الوقت تقريباً تم تعيين كاهن رعية جديد. ليس للحدث أهمية على الإطلاق، باستثناء بعض التفاصيل التي رافقت وصوله والعواقب التي نتجت عنه. كان كاهناً شاباً ونشيطاً، على الفور استدعى الشباب لتنظيم غرفة ألعاب ومكتبة وقاعة للمؤتمرات والاجتماعات والمعارض، كل ذلك في الطابق السفلي الفسح من بيت القسيس الضخم الذي كان يعيش فيه بمفرده. وصلت رسالة الدعوة إليّ أيضاً، لكنني لم أكن مستعداً للالتزام بأي شيء، حيث أنشغل كل وقتي بدراسة اللغة والعمل. بالطبع، عند إقامة حفلة موسيقية أو إلقاء حديث مما يثير شغفي، داومت الحضور دون تفويت. دائماً ما التقيت بأديلا هناك، لقد تعاونت مع الكاهن، لأنه نظم العديد من الدورات للأطفال والمراهقين. طلبت أديلا من كاهن الرعية السابق في أكثر من مناسبة منحها مكاناً للقيام بأنشطة مع الأطفال، لأن مساحة المدرسة صغيرة جداً بالنسبة لها، لكن هذا الكاهن لم يرغب في معرفة أي شيء عن «تلك الشيوعية الهجينة». من ناحية أخرى، لا يبدو أن كاهن الرعية الجديد يطلق العديد من الأحكام المسبقة مثل سلفه، حيث بين استعداده للتعاون مع جميع أنواع الشخصيات مهما كان اعتقادهم. مع وصوله ارتدى الحي حلة جديدة. تم تنظيم مجموعة رقص وجوقة صغيرة ومنتدى سينما للبالغين

وسينما للأطفال، حيث حصل الكاهن على جهاز عرض قديم «سوبر ثمانية»، تم التخلي عنه في الأسقفية.

لم يحدث مثل هذا النشاط في الحي منذ أوقات التعبئة العمالية. اختفت الحركات الراديكالية تماماً، وتشتت المناضلون القدامى، بدأ بعضهم في تكوين أسرة وسعي بجدٍ للمضي قدماً، أعيد تدوير الآخرين وانضموا إلى أحزاب أكثر اعتدالاً مثل الحزب الوطني الباسكي، والحزب الاشتراكي العمالي الإسباني، والحزب اليساري الباسكي... وأولئك الذين احتفظوا بمواقفهم الراديكالية قد اندمجوا في الغالب مع حزب هيري بتاسونا، تبنا مواقف مؤيدة للاستقلال لم يدافعوا عنها قبلاً، ووصفوا آنذاك من هم الآن رفاقهم بـ «المتطرفين». تفاجأْتُ بما حدث مع الرجل القوي من منظمة اليسار الشيوعي، الذي انضم إلى الحزب الوطني الباسكي وقلد منصباً هاماً في وزارة الاقتصاد، لم أكن أتوقع ذلك منه. عندما اكتشفتُ أديلاً ذلك، ضحكْتُ.

– عقلت: «تماماً مثل الحياة، تتغير كثيراً بمرور الوقت. هناك أيام حتى يبدو أن الأرض تدور دورة ونصف».

بقي عدد كبير من المقاتلين السابقين بعيداً عن كل شيء، مهمشين، عاطلين عن العمل، دون شغف لفعل أي شيء، من بينهم، من أدمناو الشرب، ومنهم من أدمن تعاطي المخدرات.

تعاون كل من أنا وخوسيه ماري أيضاً مع الكاهن الجديد. خلقوا حيوية جذبت الصغار والكبار. حتى والدتي بدأت في الحضور إلى مقر الكاهن بشكل متكرر. هناك أيام عدت فيها إلى المنزل من العمل ولم يكن هناك عشاء، لكنني لم أهتم، لأنني رأيتها سعيدة ومتحمسة، أهم شيء هو أن والدتي قد استعادت بريق شبابها ونفسها ممتلئة بالمشاريع مثل المراهقة. على العكس تماماً رأيت والدي يزداد اكتئاباً يوماً بعد يوم. على وشك التقاعد تقريباً، خشيت ألا يصل إلى ذلك.

في أوقات الركود، يتباطأ كلُّ شيء، ويصبح من السهولة بمكان الحفاظ على الروتين النقي الذي تم تنفيذه مسبقاً. من ناحية أخرى، في الأوقات المزدحمة، يبرز خطر كسر المبادئ القديمة وانهيار بعض الأسس. حدث بعض من ذلك في منزلي. انخرطتُ والدتي في حياةٍ سريعة، أما والدي، من جهة أخرى، انخرط في حياةٍ بطيئةٍ للغاية. اكتشفتُ والدتي حياةً جديدةً، مما حفزها لتعيش مثل شابةٍ في مستقبل العمر. على العكس من ذلك، بدا والدي

منتهاياً، بدون أمل، وصحته غير المستقرة لم تساعده بالضبط في التغلب على حالة الركود تلك. أعتقد أن والدتي لم تدرك ما يمرُّ به والدي، لقد رأت نفس الرجل قليل الكلام كما هو الحال دائماً، لطيفاً بعض الشيء، لكنه بجودة قطعة خبز. وودت التدخل، لكنه لم يترك صدعاً يمكن من خلاله الولوج إلى الجزء الداخلي المحكم، وهو كمقصورة ذات أبواب ونوافذ محكمة الإغلاق.

يقول كونفوشيوس إن الحكمة تقتضي عدم الحنق عندما يخدعنا الناس، وألا نحزن عندما يلوح منهم عدم الإخلاص. الحكيم لا بدُّ وأن يتوقع دائماً كل هذه الاحتمالات. أؤيد هذا الرأي تماماً، لأنه في بعض الأحيان يتضح أنهم لم يكونوا غير مخلصين، بل بدوا لنا على هذه الحال فقط. ومع ذلك، عندما تكون أنت الشخص الذي يتلقى طعنة الخيانة التي تصيبك بجروح بالغة، فليس من السهل أن تتصرف كرجل حكيم. لم يتعامل والدي بعنف مع بُعد والدتي، ولم يوبخها، ولم يثر ذلك فيه أيَّ حنق، بدا أنه يتصرف وفقاً لمبدأ كونفوشيوس، دون أن يكون ساخطاً. ولكن حدث أنه ترك نفسه يسقط في قاع علبة محكمة الإغلاق، ولم تكن هناك طريقة لإخراجه من هناك، رأيت كيف كان يوماً بعد يوم يهوي أعمق وأعمق في حفرة التدمير الذاتي المظلمة.

بعد ظهر أحد الأيام، وجدته تحت الشاحنة حاملاً مفتاحاً إنجليزياً، ميتاً بنوبة قلبية. تعرضت والدتي لصدمة هائلة، عانت من وفاة والدي كحدث مفاجئ وغير متوقع، لم تلحظ غرقه السابق. استغرقها الأمر شهوراً للتعافي من الصدمة. اعتاد الكاهن على زيارتها كثيراً، محاولاً إخراجها من حزنها، وأخيراً نجح وأعادها إلى الكنيسة. عندها بدأت أكره هذا الرجل، رأيت فيه رجلاً حسن الحديث، مغوياً، كائناً فاسقاً ليس بالمعنى الجنسي الصارم، ولكن كشيء منبثق من النشاط الجنسي «المتسامي». في ذلك الوقت لم أكن في وضع يسمح لي بالاستماع إلى نصائحه الأبوية، مهما جرى، اعتبرته صورة نقية للمسيحية اللزجة، شيئاً أبعد عن الحاجة التي شعرت بها للتعبير عن انزعاجي وغضبي بوسائل أكثر راديكالية. مهما حدث. في طفولتي، أتذكر والدي غاضباً، مع نظرة اقتلعت قلبي من الخوف، لأنني قلت:

– لن أفعل ذلك، مهما حدث.

تلك النظرة الغاضبة، مثل عندما اقتحم المدرسة يلوح بمفك البراغي في اليد الدهنية السوداء... نادراً ما كان والدي يبدو هكذا، رجل معتدل أينما حل، ولكن عند فعله ذلك، ينزل الرعب في القلوب.

– مهما حدث، ستفعل أيّ شيء! هل تسمعني؟ أي شيء!

لم أفهم لماذا أخرجته هذه العبارة الشائعة في فم طفل بريء عن رصانته.  
لم أفهم.

لطالما تساءلت عن سبب رد فعل والدي بهذه الطريقة، وما الذي تأجج داخله عندما قلت تلك الجملة. بعد سنوات قليلة من وفاته، ذات يوم عندما تذكرت رد الفعل المتطرف ذلك، سألت والدي، دون أمل كبير في أن تعطيني تفسيراً مقنعاً. ومع ذلك، أعطتني.

– لقد جعلته يسترجع شيئاً أراد أن ينساه تماماً، لقد دفنه وغطى فوقه بعدة طبقات، مثل تلك التي تغطي القبور.

أخبرتني أنه عندما اندلعت الحرب، كان والدي يبلغ من العمر ستة عشر عاماً فقط. فوجئ شقيقه الأكبر بالحرب عند تأديته لخدمته العسكرية في بورغوس، هرب من معسكر المتمردين مع رفاق آخرين وانضم إلى الجيش الجمهوري.

رأى والدي الريكاتبين يدخلون الحي، ورأى كيف اعتقلوا جد مارو، سكرتير مجلس المدينة، المعروف بأفكاره الجمهورية، والعديد من الجيران الآخرين، وبعض القوميين، وغيرهم من دون انتماء سياسي، جعلوهم يركبون شاحنة ويأخذونها إلى أسفل الجبل، كان من بين المعتقلين صبي في عمر والدي، كان هو الذي اعتاد العزف على التاكسيستو في المناسبات الاحتفالية في الحي، اعتقلوه بسبب تشيستولاري، وليس أي شيء آخر، لأنه حتى في عائلته لم يكن هناك أحد منخرط في السياسة. لم يسمعوا عنه مرة أخرى، رأى بعض الجيران ووكر العجوز في المنطقة يجمع في سلة الكثير من العقول المنتشرة على طول مسار النهر.

أدرك والدي أو رأى كل تلك الأحداث من خلال عينيه الرقيقة لمراهق خائف. عندما دخل الجيش النظامي، في الطريق من الجبال التي أقام فيها «الحمراء»، كان الحي خالياً ومستعداً لتخيم آمن. قدم ريكيت قائمة بشباب القرية بسن معين لخدمة الوطن، قرروا تجنيد من هم في سن السادسة عشرة. لذلك جندوا والدي، من بين آخرين، البسوه زياً وحذاء كان يخص شخصاً مات، وكان يناسبه بشكل كبير، خاصة بعد أن فقد عدة كيلوغرامات من وزنه في الحملة الصليبية المجيدة ضد أعداء الوطن والله.

يمكن أن تستسلم نفسية صبي لم يبلغ سن الرشد يتعرض لضغط الحرب التي على وشك الاندلاع في أية لحظة، إما أنه يترك نفسه يقتل، أو يصبح قاتلاً جامحاً. تحمّل والدي، بفضل شخصيته المعتدلة والرائعة، ذلك النوع، عند قتاله في المقدمة، اعتاد إطلاق النار دائماً من بندقيته بضعة أمتار أعلى الهدف. كان متأكداً من أنه لم يقتل أحداً، إلا محض صدفة بسبب رصاصة طائشة. من بين تلك الظلال البعيدة التي تحركت في الخنادق الأمامية، دائماً ما تخيل وجه أخيه الأكبر، خائفاً مثله.

قاتل في تيرويل، في درجات حرارة أقل من الصفر، كان على وشك قضاء نحيبه متجمداً. وشارك في مذبحة معركة إبرو، حيث انتهى الجيشان إلى مواجهة بعضهما بعضاً وجهاً لوجه، مما تسبب في مذبحة فظيعة. حاول والدي البقاء في المؤخرة، وأطلق النار كالمعتاد، لكن قائده، تحت تهديد السلاح، أمر الجنود بالتقدم مع الضغط على الزناد. قتل والدي الأعداء الأول الذين واجههم، لكنه كان محاطاً بالعديد من الأعداء. تخلص بأعجوبة من رصاصتين تم إطلاقهما عليه من مسافة قريبة، لكنهم أخطأوه لأن الجميع كانوا يقاتلون مثل المكفوفين، بدافع غريزة البقاء الخالصة التي وصلت إلى أقصى حدودها. الرعب الذي انعكس في عيون الآخرين ممزوجاً بالذي شعر به وجعله يفقد مسار نفسه، مما تسبب له في ثورة غريزية، أطلق لنفسه العنان وهو يصرخ مثل المجنون، حقاً كالمجنون، ليطلق الرصاصة في رأس كل من يتحرك حوله. ربما يكون الجنون في بعض الحالات مجرد ذلك: زوبعة تزيل مفهومك، لم تعد هناك من شيء، فقط الزوبعة، لا يوجد شيء سوى الزوبعة. عندما انتهى كل شيء، لم يكن والدي يعرف ما قد فعل، ولم يتذكر عدد القتلى ومن أي جانب كانوا. كان في المشفى لعدة أيام، غير مدرك لشيء، حتى «استعاد طبيعته» فقط من المورفين وعاد إلى كيانه.

بعد انتهاء الحرب، اضطر إلى الاستمرار في الخدمة العسكرية. عند عودته إلى المنزل بتصريح، نما إلى علمه أن شقيقه قد مات، على وجه التحديد في معركة إبرو. منذ ذلك الحين، رسم والدي خطأً وجودياً يمثل حدود حفرة النسيان في حياته.

كانت تلك هي القصة الخفية التي حملها والدي معه لبقية حياته. بعد أن أخبرتني والدتي عن ذلك، ندمت على أن والدي لم يكن هناك لأعانه عن كذب.

هناك مشهد من طفولتي، في المدرسة، أعتبره مهماً، ولكن لم أتذكره إلا بعد سنوات عديدة، عندما اكتسب فجأة أهمية بالنسبة لي. كان الرابط بين

حلقة المدرسة وبعض سلوك أدبلا، والذي وجدته مزعجاً، جلياً بسبب رحلة قمت بها إلى سان سيباستيان بسيارتي، إلى مكتبة لاغون في المدينة القديمة، حيث وجدت كتباً صعب عليّ جداً إيجادها. حاولت أن أشتري من تلك المكتبة ما استطعت، لأنه امتلكني شعور سيئ بسبب المرات التي أخذت فيها كتباً عن الماركسية وعلم النفس دون دفع ثمنها، عندما لم يكن لدي مال مثل الآن. أتذكر أنني تحصلت على معلم باربيانا، ودليل مارتا هارنيكر حول المادية التاريخية، والعديد من الأعمال الأخرى، بما في ذلك عملان لرايش جذبا انتباهي كثيراً، كل نظريته عن الأورغون<sup>(22)</sup>، حقيقة أنه اخترع غرفة لاستعادة وزيادة طاقة الأورغون في الجسد. هناك حكاية علقت في ذهني لفترة طويلة: في زنزانة شيوعية قبع فتیانُ مراهقون وفتاة جميلة، يشاركون الجميع بطريقة جماعية، أي أنهم يمارسون الجنس معها بالتناوب، والأمور تسير على ما يرام، حتى ينشأ متغير برجوازي، افتتان حصري لأحد الشبان، الذي يريد لها لنفسه فقط، كملكية خاصة، وليس مشتركة، إلخ، إلخ، من خلال الرسائل التي انبثقت من تلك القصة، انتقد رايش بشدة الأخلاق التي تحجمننا، بينما كان هو نفسه يطبق معاملاً أخلاقياً معيناً بالمعنى المعاكس، على الرغم من أنني لم أدرك ذلك في ذلك الوقت. تسببت قراءتي لرايش في توجس كبير بشأن سلوكي الجنسي، فقط في الأشهر الأخيرة من علاقتي مع ماريسا، كنت أريدها وأحبها حصرياً، بينما أردت أن أصبح ثورياً متديراً. جعلني رايش أترنح وأعيد التفكير في موقفي تجاهها، لكنها تسببت لي في مثل هذا الانزعاج لدرجة أنني قررت تأجيل الخروج مع عصابتي إلى أوقات لاحقة.

لذلك اشتريت الكتب من لاغون، وخرجت مع حقيبة الكتب في يدي في اتجاه الميناء، من خلال الممر الداخلي للأعمدة. فجأة، رأيت مارو يمر عبر الساحة، يمشي مثل الخنزير، لأنه ازداد بدانةً وسمنةً. لم يرني، على ما أعتقد. واصلت في طريقي، وفجأة، اصطدمت وجهاً لوجه مع أدبلا، التي في ذهول قالت: «أنت هنا، خوانيتو؟»، سألتني، كمن يحاول الخروج من حيرته. أريتها حقيبة الكتب بدوري لإخفاء ارتباكي، وأشرت بشكل محرج إلى المكتبة. دعنتني لتناول مشروب. أجبتها: «لكنني سأدفع»، «الآن أكسب جيداً».

قبلت أدبلا بفرح مسلٍ، من دواعي سرورها أنني دعوتها. مشينا حول الميناء، نتحدث عن دراستي وعن الكتب التي اشتريتها. أخبرتها عن شعوري بالسوء لأنني اعتدت سرقة كتب في وقت سابق.

— لقد فعلت ذلك أنا أيضاً، خوانيتو.

– ألم تكوني نظيفة اليد؟

– نظيفة جداً، خوانيتو. في تلك الأيام، لم يكن راتب المعلم يكفي لشيء.

– حقاً. لكن ألم يكن لديك أي مخاوف بشأن السرقة من حزبك؟

– نعم، في تلك الوقت كنت أتبع نفس الحزب، لكن..... تم اعتبار هذا بمثابة اختبار للمسلحين اليساريين، شراء الكتب دون دفع كان يعتبر عملاً ثورياً.

– قلت: «حدث لي شيء من هذا القبيل أيضاً، على الرغم من أنني كنت مجرد طفل يقلد الثوار الذين أعجبت بهم».

ثم، لقد لاحظت تفصيلاً مخبأة في حديث أديلا.

– مرحباً أديلا، قلت: «كنا من نفس الحزب... أو حزب ما؟».

– لا. لم يفعلوا ذلك، لقد كنت أنا. أنا لم أعد منضمة للحزب الشيوعي بعد الآن.

لقد صدمت.

– حسناً، إلى أي حزب تنتمين الآن، اديلا؟

– لا أدري، خوانيتو، أشعر بالحيرة.

تبادر إلى ذهني صورة القطط التي ألقيت في البئر، على وشك أن تبتلعها الدوامة.

– لا أستطيع الاستمرار في النضال، خوانيتو، ليس لدي سبب ملموس. سأرحل، فقط.

«نحن لا ننحاز إلى طرف أو دين لأسباب معرفية بحتة، وعندما نقول وداعاً لهم، لا ينبغي أن يؤثر هذا الموقف علينا»، تذكرت عبارة نيتشه.

– والآن ماذا ستفعلين، أديلا؟

– أكثر أو أقل، تقريباً سأظل على نفس الحال، ليس على المرء أن يكون في مباراة لمواصلة العيش وتوجيه نفسه لشيء يستحق العناء.

تبادر إلى ذهني مظهر القبط الصغيرة التي تسبح بيأس في دوامة البئر، رأيت أحداها تشرع في تسلق الجدار اللامتناهي، متشبثةً بأظافرها بحواف الحجارة.

واصلنا المشي، دعوتها إلى تناول البطاطا المسلوقة في أحد البارات، بداخل الجزء القديم من الميناء.

– قلت لها: انظري، أيتها المعلمة: قوس النصر، مشيراً إلى القوس المعلق على مدخل الجزء القديم.

– إنه قوس الهزيمة إذا أردنا الدقة، خوانيتو، على وجه التحديد لأن هذا المكان كان مقر خلية من الثوار قبل بضع سنوات. لقد هزمت يوتوبيانا، وهذه المرة ليس بالدم والنار، ولكن ببضع بطاقات اقتراع بسيطة. أتدرك كم هو يسير أمر التخلص من جهد وتضحيات ودماء الكثير والكثير من الثوار؟ لم يتبق لدينا سوى حفنة من الرماد.

– هل تشعرين أن الناس أداروا ظهورهم لك، أديلا؟

– شيء من هذا القبيل. كنا الطليعة في النضال ضد الديكتاتورية وفي صالح الديمقراطية. وفي الانتخابات الديمقراطية الأولى أصبحنا في المؤخرة، والبعض الآخر حتى لم يصلوا إلى هذا، ذهبنا مقترحاتهم مباشرة إلى سلة المهملات.

تذكرت الرجل القوي لمنظمة اليسار الشيوعي وهي منظمة انقرضت ديمقراطياً (بالتوازي مع حزب العمال الماركسي، فقط حزب العمال الماركسي تم القضاء عليه من خلال العنف والإبادة الجسدية في الحرب)، والتي انخرطت بقاياهم في الحركة الشيوعية الإسبانية، تذكرت أعضاء الحركة الثورية العمالية، وكثير منهم اعتنق القومية الراديكالية، ثم استمر مناصرو الرابطة الشيوعية الثورية في تأييدهم، ووقعوا عملياً في الهامش.

ذهبنا إلى البار، أضافت أديلا القليل من التوابل على البطاطا المسلوقة، تشاركنا قنينة بيرة داكنة. كانت جميلة، مشعة مثل الشمس ذات الشعر الليلي، التي كانت قد غربت للتو. ودعتني بقبلة على الخد، ثم غادر كل منا إلى سيارته. قبل أن أبدأ في المشي، سألتها بدون مقدمات:

– هل رأيت مارو يمر من هنا؟

– مارو؟ ماذا تقول؟

شرحت لها أنني رأيت يمشي من أمام المكتبة، قبل أن نتقابل أنا وهي، ثم أنكرت هي رؤيته. ودعنا بعضنا بعضاً مرة أخرى وذهبت إلى سيارتي. من نبرة صوتها، علمت أن أديلا لم تخبرني بالحقيقة.

من تبعات هذه المقابلة استحضرتُ مشهداً من الطفولة لم أتذكره قبلاً. حدث ذلك في المدرسة منذ سنوات عديدة: جميع الأطفال في فصل أديلا، لأن هناك عاصفة وانقطعت الكهرباء، أديلا تحكي قصة، عندما يقرع شخص ما الباب. يقاطع قصة المعلمة، ولا ينتقل أي طفل من مكانه، كما لو كان ينتظر بشوق ودسياسة متابعة القصة.

– تفضل – تجيب المعلمة.

ولكن لا أحد يدخل. يطرق الباب مرة أخرى، فأهب لفتح الباب. نبض قلبي بشدة، وجدت نفسي على بعد يد من مارو.

– «قل لها أن تخرج»، قال بجفاف، بصوت أجش.

– من هو؟ – سألت أديلا.

– مارو! – أجبت، في محاولة لإخفاء الخوف.

ارتعد جميع الأطفال، وخاصة الأصغر سناً في مقاعدهم، كما لو أن كلماتي تعبر عن وجود ذئب سيئ كبير، الذئب السيئ الكبير موجود حقاً، هناك، خلف الباب المفتوح، دون أن تغلقه الأم وتطلب منه إظهار مخلب صغير. تنهض أديلا من مقعدها وتذهب للخارج. أبقى خلف الباب، أستمع، ليس متعمداً، ولكن لأنه لم يخطر لي على بال الانتقال من هناك.

– ماذا تريد؟ – سألت أديلا.

– أحضرت لك الأشياء – أجب مارو.

– ليس هنا.

– ياه! – في ذلك الوقت، لم يرني أحد.

– ليس هنا. الأطفال موجودون.

– ياه! لن يدركوا أيّ شيء.

– علاوة على ذلك، ليس لدي أيُّ مال، مارو.

– ستممكنين من الدفع لي، يا جميلة. إذا لم تتمكني من ذلك، فأنت تعرفين كيف يمكنك الدفع.

– غادر الآن.

أغلقت أديلا الباب وتشير إليّ كي أجلس. تستنشق بعض الأنفاس العميقة، ثم:

– أين كنا؟

لم يدخل ذلك المشهد ضمن أولويات ذاكرتي، لأنه بالتأكيد لم يكتشف عقلي الطفولي أيّ شيء غريب، باستثناء الخوف الذي سببه لنا وجود مثل هذا الغول أمام باب الفصل. ومع ذلك، كان شيئاً يمكن أن يحدث في أي ركن من أركان الحي ويجعلك تواجه نفس الشعور، على الأقل في المدرسة شعرنا بالأمان تحت رعاية أديلا أمّ الأطفال.

إن رؤية مارو يمر بجوار بلازا دي لا كونستيتوسيون ثم لقاء أديلا جعلني أسترجع ذكرى أيام الطفولة، بداخلي تمت إضاءة لمبة الإنذار الحمراء مدعاة للشك.

## 12

كرهت على الفور الكاهن، الذي، بالمناسبة، لم يعد أحد يناديه كاهناً، ولكن ألبرتو، كنوع من توطيد أواصر الصداقة التي كسرت تقليد «السيد» السائد طوال مدة وجود كاهن الرعية السابق حتى رحيله. تعمدت عدم مقابلته عندما عدت إلى المنزل لزيارة والدتي. اعتقدت أن ألبرتو سيحاول الاقتراب مني ليتمكن من الزج بي في أنشطته الدينية، لكنه كان يتصرف دائماً بتكتم تجاهي، ويحييني باحترام كلما التقينا. مع مرور الوقت، كان رفضي له يتناقص تدريجياً، مثل مؤقت زمني، وتمكنت من حضور منتدى السينما مرة ثانية وبعض النقاشات الأخرى، أتذكر بشكل خاص واحدة أعطتها أديلا عن «اليوغا والتوازن العاطفي».

كنت قد بدأت أعيش مرحلة ذات بهجة مرة أخرى، مع العديد من اللحظات المرحية، المليئة بالفكاهة، في بعض الأحيان، كنت أتذكر أجزاء مضحكة تذكرت أنني قرأتها في أعمال أدبية مختلفة. بالنسبة لبعض الروايات الأخرى، اعتدت نسخ الأقوال المأثورة والاقتراسات التي بدت مثيرة للاهتمام بالنسبة لي، مثل هذه التي وجدتتها في دون كيشوت: «من يريد أن يكون ذا قيمة وغنياً، فليتبع الكنيسة أو يبحر لممارسة التجارة أو يتوجه لخدمة الملوك في منازلهم، تطبيقاً للقول القائل «فتات الملك، أفضل من عطايا الرب».

طبقت المبادئ الثربانتينية<sup>(23)</sup> على أنشطة الكاهن الكنسية، وفقاً لملاحظاتي، لا يمكن لأي من أولئك الذين تجمعوا في ذلك المكان أن يصبحوا أثرياء وفقاً لهذا المبدأ، لأنه، في البداية، لم يكن أحد على استعداد لخدمة الملك، لأننا جميعاً جننا من الجانب الجمهوري والثوري، وبعضنا في تراجع صريح، والبعض الآخر لا يزال يقاوم في «لن يحدث» بعد أن دهسته عربة بخارية، مثل شخص ينتظر وصول فيضان يقف تحت مظلة وبعد أن غمرته أطنان من الماء، يزحف على الأرض، يتل أكثر ويتسخ، ممسكاً بمقبض المظلة ويصرخ «لن يحدث!». لم يكن مقدراً لنا أن نصبح أغنياء، ولم نمارس فن التجارة، لأنه لم يكن لأي منا أي عمل. أخيراً، هناك خيار الكنيسة، الكاهن، الوحيد الذي لديه فرصة الترقى في الدرج الكنسي، كان يتعايش بشكل سيئ مع الملحدين أو على الأقل اللادريين، الذين لن يتحصل منهم على فائدة تذكر. كان من الواضح أننا الثوار استغللنا ملكية الكنيسة، دون أي هدف إيماني ودون إثارة أي نوع من الندم الأخلاقي، لأننا اعتقدنا أن كل شيء قد تحقق بعرق الشعب. عدد قليل جداً من أولئك الذين تحركوا حول قبو الكاهن اعتادوا حضور القداس، فقط بعض الشخصيات المنفتحة على الروح الجديدة، مثل والدتي وأصدقائها.

تم تنظيم نشاط في قبو الكاهن جذب اهتمامي وجعلني أبدأ في الحضور بانتظام. قام خوسيه ماري، من محبي تكسالابارتا، بفكرة تنظيم ورشة عمل في أمسيات الجمعة لتعلم كيفية العزف على آلة الإيقاع الشعبية هذه. لقد اشتركت دون تردد، لأنها كانت قطعة أثرية استهوتني منذ مستهل طفولتي، حصلت على إصدارين، ثم وضعتهما رأساً على عقب في مرآب المنزل، ثم وضعت بضع ألواح أعلاهما، ثم بعض القش، لتخفيف الصدمات، وبدأت أتدرب على ضرب الألواح بشكل إيقاعي بحافة عصي قصيرتين موضوعتين عمودياً.

كنت قد سمعت تشالابارتا لأول مرة في حفل زفاف خوسيه ماري، عندما كنت طفلاً، كان حدثاً جليلاً في الحي. عند مدخل ومخرج العروسين، في

ردهة الكنيسة، عزف اثنان من عازفي التكسالابارتا تكريماً للعروسين. أذهلتني سلسلة الإيقاعات والإيقاعات العكسية التي خلقت لغة أخاذة، دخلت الجسم كله. منذ ذلك اليوم، كلما اكتشفت أنهم كانوا في طريقهم لعزف تكسالابارتا، عادة في الحفلات في الحي أدنى الجبل، فعلت كل ما هو ممكن للذهاب والاستماع إليهم.

وأخيراً أتحت لي الفرصة لتعلم كيفية العزف. في اليوم الأول، شرح لنا المعلم، وهو بروفيسور سابق من هرناني، تفاصيل تشغيل الآلة، حينئذ أصبح الأمر مسألة ممارسة. لم تكن هناك مقطوعات أو أغان لتكسالابارتا، فقط طرق العزف عليها، إيقاعات مختلفة، والتي، دائماً في أزواج، تخلق لغة ثنائيات، تجيب على بعضها بعضاً كما في مسابقة طقسية، باستخدام صيغ أو مجموعات بسيطة، اعتماداً على المسار الذي تتخذه المحادثة الإيقاعية. دائماً تقريباً تبدأ بالبيانو، كما لو يتحسس بعضهم بعضاً، ثم تعلق نبرة المحادثة وتصل إلى المرحلة التمجيد، ثم الذروة، ثم بعد ذلك تنخفض، حتى تنتهي بهمس متبادل في ملاذ سلمي. لنجانب الصواب، الأمر أشبه إلى حد كبير بتطور اللحظات المختلفة للعلاقة الجنسية: المداعبات، الذروة، النشوة الجنسية ثم المداعبات النهائية، حتى طريقة الإمساك بالعصي وتحريكها تشبه إلى حد كبير تقنية الاستمناة الذكورية. لدهشتي، اكتشفت أيضاً أن تكسالابارتا هي موسيقى العرجي. على ما يبدو، قد وجه عقلي الباطني الأعرج بمهارة نحو ما سيسمو بعرجه، لأنه، انظر من أين جاء، اكتشفت أن أحد مؤسسي هذا الفن، يسمى تاكون، أسسه كي يكون ليس أكثر من محاكاة صوتية للعرج، المؤدي الآخر، الشخص الذي طالما حاول الدخول في الإيقاع والصعود فوقه في صراع طقسى، واحتضانه، وإطلاقه، في مسرحية جنسية كاملة، يدعى أورغون أو هيرين، والتي تعني حرفياً «أعرج». لذلك لم يكن مفاجئاً أنني وجدت فيه حالة الانسجام خاصتي.

سرعان ما شكلنا ثنائياً، خوسيه ماري وأنا، لأننا كنا أكثر المعجبين. اعتدنا الاجتماع معاً في مرآب والدي لممارسة تاكون وأورغون، في وقت فراغي وكلما سمحت له وظيفته هو وزوجته، حيث ما زلنا نحتفظ بالشاحنة.

كانت هناك أيام وقفت فيها أنا على باب المرآب بوجه نصف مبتسم ونصف غاضب تلقي بنظرة خاطفة تكاد تنفجر وذراعيها على الباب محدقة بكلينا بصرامة، ونحن مستمرين بالعزف غير عابئين بها، حتى تقترب من خوسيه ماري معطية إياه قرصةً في أردافه. ثم تشير بإصبعها على وجنتها بإيماءة أننا غير مستقرين عقلياً، بينما تدير ظهرها لنا ثم إلى خارج المرآب.

– إذا لم تأتِ الآن، فلن تجدني في المنزل.

كان للكلمات آنا تأثير فوري. حيث ألقى خوسيه ماري العصي في السلة وركض مثل روح بداخلها شيطان، وتركني وحدي في منتصف اللحن.

– انتظري، يا آنا، جميلتي! أنا قادم!

هكذا عانيت من حمى تكسالابارتا، حينئذ تفهمت أولئك الذين اعتادوا التحدث عن حمى الروك أو حمى الجاز، وهذا الأخير أكثر دقة وثقيفاً بشكل عام. حمتي هي حمى رجعية إلى حد ما، ربما بالنسبة لتلك الأوقات، لكن الآلية النفسية التي دفعتني كانت متطابقة عملياً، على الرغم من أن الدلالات الاجتماعية والثقافية كانت متباينة. على أي حال، فإن الدلالات العرقية أو القومية لتكسالابارتا لم تكن لتؤرقني، أو على الأقل لم تكن هي السبب الذي دفعني إلى الإعجاب بها، لقد جذبتني فيها قبل كل شيء التجربة الشخصية للإيقاع والشعور باهتزاز الخشب المرتجف المنتشر في جميع أنحاء جسدي. حدث شيء مشابه لي مع لغة الباسك، لغتي الأم، أتحدثها وأكتبها فقط، لقد فعلت ذلك من أجل علاقة عاطفية وحيوية، أولاً وقبل كل شيء. بعض الاعتبارات الأخرى لم تكن لتهمني، خاصة تلك المتعلقة بالاستراتيجيات السياسية، البعض الآخر، ليس كثيراً، إذا ما أردنا الدقة، الثقافية والتعليمية. كان في داخلي، قبل كل شيء، حاجة حيوية للتعبير عن نفسي بهذه اللغة.

عندما اكتشفت أن أديلا ستلقي محاضرة حول «اليوغا والتوازن العاطفي»، اهتممت جداً بما ستقوله أستاذتي، أردت مقارنته بكل ما سمعته من فمها منذ فترة المراهقة، ومطابقته مع القراءات والاستنتاجات الأخرى التي استخلصتها على مر السنين.

امتلاً قبو الكاهن عن آخره. توجب علينا إحضار مقاعد من المدرسة. الحضور معظمهم من النساء. كنا لا نزال ننظم الجلوس، عندما رأينا مارو يظهر عند المدخل. ظل متكئاً على الإطار، بابتسامة شريفة، بدا وكأنه سكران قليلاً، كما جرت عاداته في تلك الساعات. خوسيه ماري، بمجرد رؤيته له، تغيرت ملامح وجهه، ثم ذهب إليه.

– اخرج قليلاً، يا مارو. أريد التحدث معك في أمر ما.

ذهبا هو ومارو إلى الخارج. تابعتهم. سمعت خوسيه ماري يخبره.

– اسمع يا (مارو)، إذا بدأت بإثارة المشاكل هنا، فسأبرحك ضرباً.

خوسيه ماري ذو مزاج سيئ للغاية، وقوة ثور. على الرغم من أنه كان رجلاً معتدلاً، إلا أنه عند تحدّثه بهذه الطريقة إلى شخص ما، يتوجب عليه أخذه على محمل الجد، مارو على دراية كاملة بذلك.

– اهدأ أيها الرفيق، من الآن فصاعداً، أنا لا أعرف النطق.

– لا تنادي بالرفيق ولا اللعنة، يا لسوء ما صنعت منه كرفيق. لقد حذرتك بالفعل، أتفهم؟

وضع مارو إصبعاً على شفّتيه، ومع تعبير ساخر على وجهه، وعد بأن يلتزم الصمت. دخل خوسيه ماري الغرفة مرة أخرى، ذهبت وراءه، لكن يد مارو الكبيرة أمسكتني من مؤخرة رقبتني وسحبّني نحوه، ليهمس في أذني.

– أيها الظل، هل تعمل كحارس شخصي هذه الأيام؟

أفلتني ضاحكاً في همس، ثم أشار بإصبعه مهسّساً.

تحدّث الناسُ بأن ساقِي الحانة ومرتابيها قد ملّوا منه، لأنه كل يوم يتسبب في مشكلة ما، وأكثر من ذلك عند ظهور شخص غريب. لم يجرؤ النادلُ على منعه من دخول الحانة، لأنه يهابه، وأيضاً لأن مشكلاته لم تتجاوز الكلمات أو بعض المناوشات الأخرى. كان الكثير من الناس يرتعدون من مارو في الحي، وليس فقط الأطفال. كنت أهابه أيضاً، ولكن قبل كل شيء خفت من الأذى الذي قد يلحقه بأديلا. لكن على الرغم من مخاوفي، إذا ما قام بإيذاء أديلا، فسوف يتعين عليه التعامل معي، وسيجد نفسه وجهاً لوجه مع الرصاصة التي نقشت عليها أول حروف اسمه وتنتظر لحظتها لسنوات.

أسند مارو يده على الإطار واضطرتت إلى المرور تحت ذراع الممدودة للوصول إلى الغرفة. شغلت حينها أديلا جهاز العرض حيث شرعت في عرض صور وصور لأوضاع مختلفة وبعض الرموز التي تشرح عملية اليوجا. في ظلمة القاعة، تحت إضاءة جهاز العرض، ألقى الشعاع الذي يمر عبر شعرها ومضات رقيقة جذبت ناظري، على جانبي جبهتها انزلقت بعضُ تجعيدات الشعر الفضفاض، مثل التيارات المرحّة، أثارت شخصيتها بداخلي توقاً إلى الصورة المغربية لفتاة غجرية.

كما عرضت أوضاعاً مختلفة، أشارت أيضاً إلى الفوائد الجسدية والنفسية لكل منها. حتى وكل شيء، كان هناك شيء في عرضها يقلقني، شيء ما أزعجني: لقد أرقنتني فكرة أنه على الرغم من أن هذه التقنية التي تهدف إلى تحقيق فوائد لا شك فيها للأشخاص، فإن الحياة والمصير وضعتنا أمام تحديات وأضرار تتناقض مع هذه التقنية، تريكنا، تقللنا. اليوجا مساعدة جيدة، ولم يكن لدي ما أعترض عليه، لكن انتابني شعور بأن أهم شيء في الحياة هو مواصلة مسيرتنا التي لا هواده فيها على الرغم من جهودنا، أو سحبنا إلى أسفل مثل الفيضان أو مثل موجة المد والجزر. كنت بحاجة إلى تفسير متقن لهذا الشعور، وعلى الأقل حتى ذلك الحين، لم تقدّم لي اليوغا ولا الدين ولا الأيديولوجيات تعليلاً.

الحقيقة هي أن الحديث كان رائعاً، صقّ الناسُ لأديلا وسألوها أن تعدّهم بأنها ستقيم دورة تمهيدية لليوغا في قبو الكاهن، طلبوا منها على الأقل تدريب جلسة تأسيسية للمبتدئين، حتى يتمكن الناس من البدء في ممارستها بمفردهم أو في مجموعات. اهتمت أمني وأصدقائها جداً، واستمروا في طرح الأسئلة. انتهزت لحظة صمت، ثم رفعت يدي لأسأل.

– أديلا، هل هناك علاقة بين اليوغا والمخدرات؟

أدار الجميع رؤوسهم، مذهولين، وخاصة أصدقاء والدتي. أشارت والدتي بإيماءة لي، كما لو كانت تسعى إلى معرفة ما إذا كنت مجنوناً. نظرتُ إلى مارو من زاوية عيني، ابتسم بدهاء.

– أجابت أديلاً: «على الإطلاق، تضنُّ المخدراتُ عملية اليوجا، بل يمكن أن تعكس نتائجها وتقودنا نحو الاضمحلال النفسي. صحيح أن بعض المدارس استخدمتها أحياناً كإجراءات طقسية، من المفهوم الشاماني أو حتى الفكري لليوغا، ولكن اليوم ليس هناك من مدرسة قد تنصح باستخدام المخدرات لتسريع التجارب التي تشكل خطر قيادتنا إلى الجنون أو غيرها من الأضرار المعنوية أو الجسدية».

– «فهمت»، أجبته بدوري.

نظرتُ إليّ بتوسل، كما لو تسببتُ لها في وقت عصيب، لكنها سرعان ما هدأت.

انتهى الحديث، وحاصرت مجموعة كبيرة أديلا لمواصلة طرح أسئلتها. بدأت أنا وخوسيه ماري في التقاط الكراسي، بمساعدة ألبرتو وبعض فتيات أكبر

مني بقليل. كان مارو بذراعين متقاطعين، متكئاً على الإطار. كان لدي شعور بأنه ينتظرني، لذلك اقتربت منه، مستغلاً حقيقة التقاط كرسي بجوار الباب. بينما أنا في نفس ارتفاعه، أمسك بي من رقبتني، خفض رأسه، قرب فمه الكريه إلى أذني وهمس:

– أنت لا تفهم شيئاً، أيها الأحمق اللعين.

التفتُ وشرعتُ في رفع كرسي تجاهه. فقط في تلك اللحظة، أمسكت بي والدتي من ذراعي:

– يا بني، ما هي تلك الأسئلة الغريبة التي تطرحها.

خفض مارو رأسه ضاحكاً بسخرية قائلاً:

– أمي، أمي... – كرر، مقلداً طفلاً يبكي.

– اخرس، أيها اللعين! – واجهته أمي.

استدار مارو، ورفع ذراعه كما لو يقول: « اخرس، أيها الهرة العجوز»، ثم غادر في اتجاه البار.

عقب تجميع كل شيء، ذهبنا إلى البار لتناول العشاء، خوسيه ماري، أنا، ألبرتو، أدبلا وأنا.

كنت خائفاً من مقابلة مارو مرة أخرى، لكن في الطريق تقابلنا معه، بينما هو راكب سانجلاس، متجهاً نحو المنحدر. عندما مر علينا، أطلق البوق مرتين ثم شرع في الضحك.

كانت أدبلا أكثر هدوءاً من المعتاد في العشاء. من آن لآخر، ثبتت عينيها عليّ، لكنها سرعان ما تهرب من نظرتي على الفور. من ناحية أخرى، كان خوسيه ماري متحمساً للغاية، حيث علق على تقدمنا مع تكسالابارتا.

عقب مغادرة الحانة، ذهب الجميع إلى المنزل.

– هل سترافقني، خوانيتو؟ – سألتني أدبلا.

كنت على وشك الرفض، لكنني لم أجرو. عندما أصبحنا وحدنا، سألتني مباشرة:

– ماذا قصدت بهذا السؤال، خوانيتو؟

توقفت ونظرت إليها مباشرة.

– أخذتُ نفساً عميقاً ثم قلت: «إنك تتعاطين المخدرات، ومارو هو من يبيعه إياها».

وضعت يدها على فمها، كما لو لكمتها. لم أنتظر ردها. استدرتُ وتوجهتُ إلى المنزل، بالكاد قمعت الدموع.

### 13

اجتزت أول دورة في علم اللغة في يونيو. في الصيف، اشترت كتب الفصل الثاني، للمضي قدماً في العمل. في أغسطس، أخذت إجازة وذهبت لمدة أسبوع مع مجموعة متسلقي الجبال من الحي أدناه، للقيام بجولة في بيكوس دي أوروبا. إحدى أعضاء المجموعة فتاة تدعى إيدويا، من أصل فرنسي، جلست بجواري في الحافلة التي أقلتنا إلى أستورياس. كانت لطيفة جداً، ولم تتوقف عن الكلام طوال الرحلة، باستثناء الوقت الذي خلدت فيه إلى النوم. أسندت رأسها إلى كتفي. انزلقت إلى أسفل لجعل نومتها أكثر راحة، وانتهى بي الأمر بالنوم ورأسي يستند إلى رأسها. عندما استيقظنا، استمرت في التحدث بحماس، فتاة تبلغ من العمر 17 عاماً، تدرس لتصبح مساعدة إكلينيكية، ثم أرادت الحصول على درجة التمريض.

– «ثم بعد ذلك، كطبيبة»، أضفت.

– وبعد ذلك؟ – سألتني ضاحكة.

– بعد الطبيب، لا توجد درجة غير الله.

ضحكت وفمها مفتوح بالكامل، مبرزة لسانها الوردي وشفتيها الممتلئتين. ذات شعر أشقر قصير مجعد، حيث بدا رأسها مثل ظهر خروف صغير.

شرعنا في المشي في روتا ديل كاريس. على المنحدرات الشديدة، إيدويا في الخلف، ممسكاً بها بيدي.

– اللعنة! – قالت لي، بصعوبة في التنفس. – لا أعرف كيف يمكنك أن تتسلق هكذا بهذه الأقدام الجميلة.

– لقد اعتدت على ذلك منذ أن كنت طفلاً. وزني خفيف وأحاول أن أبقى في حالة جيدة. هذا هو سري.

– مهلاً، وماذا حل بقدمك؟

في جزء من الثانية تذكرت المشهد، وظهرت صورة مارو في ذهني.

– بسبب شخصٍ لقيطٍ.

ندمت على كلماتي، لكنني لم أعد قادراً على استرجاعها وابتلاعها. تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أخبرت فيها شخصاً بأنني لم أسقط وحدي. أرادت إيدويا معرفة إلى من كنتُ أشير، لكنني أخذتُ المحادثة في اتجاهٍ آخر، متجنباً نطق اسم مارو، أخبرتها أنه لم يدفعني، لكن عندما رأيته، أخافني، في النهاية لم يكن الأمر بهذا السوء، لأن سقوطاً مثل الذي عانيت منه كان من الممكن أن يتسبب لي في إعاقة دائمة.

أمسكت بي إيدويا من الخصر والتصقت بجسدي. دأبت تجعيداتٍ شعرها الأشقر وجهي ودغدغتني. وضعت ذراعي حول كتفيها ثم واصلنا المضي قدماً. أدهشتني التلقائية التي تحدثت بها عن إعاقتي، والطبيعية التي عاملتني بها والجميع. لم تتكلف على الإطلاق، لقد عانقتني، حتى في وجود آخرين.

– علق شاب طويل القامة ممن لم يفهم أيَّ رحلة ويتسلق مثل كلاب الصيد، «هيا بنا من هنا! لدينا عشيقان».

كانت الرحلة عبر بيكوس دي أوروبا لا تنسى. في اليوم الذي وصلنا فيه إلى قاعدة قمة أوريلو، انتشر بحر من السحب تحت أقدامنا.

– «تشعر وكأنك تود القفز كما لو ستقفز فوق مرتبة، هاه؟» – أخبرتني إيدويا بنظرة منتشية.

قضينا تلك الليلة في مسكن عند سفح القمة، بارتفاع حوالي ألفي متر. عندما خلدنا إلى الفراش، جاءت إيدويا إلى سريري، شكلنا لحافاً من خلال ضم أكياس النوم معاً. بالكاد تحركنا طوال الليل، فقط ظللنا متعانقين. بقيت متيقظاً، محاطاً بأشخاص ينامون على بعد قدمين مني. غاصت إيدويا في نوم عميق، معانقة إياي، من الصعب عليّ الخلود إلى النوم، ازداد الحماس في داخلي مما تسبب في بقاءي متيقظاً، ولم أجرؤ على تحريك عضلة،

حالماً بأننا نتأرجح على مرتبة من الغيوم مثل تلك التي رأيناها قبل ساعات قليلة.

في طريق العودة إلى المنزل، في الحافلة، إيدويا أكثر هدوءاً مما كانت عليه في الطريق. ثم فجأة، قالت لي مُبَاعَّةً:

– حسناً، خوانين – كان هذا هو الاسم الذي أطلقته عليّ، أسلوب أهل أستوريا: – ماذا الآن؟

نظرْتُ إليها في حيرة.

– لا تنظر لي هكذا، أيها السخيف. ماذا؟ هل سنظل معاً أم سنقطع علاقتنا؟

– أنت ماذا تريد، إيدويا؟

– أريد أن أتعرف عليك بشكل أفضل ثم أقرر. ربما سأبقى معك لبقية حياتي. لدي شعور بأنك جدير بذلك.

حمّسني قليلاً كلامها.

– أجبها: «حسناً».

– حدّقت جيداً في وجهي ثم بحذر، قالت: «أما الآن أنصت جيداً. كل شيء واضح بيننا، حسناً؟ لا أريد ألعاباً خفية، إذا توقفت عن حبي أو أحببت واحدة أخرى، أخبرني مباشرة، لا أريد الدخول في روايات سيئة».

أوماً برأسي إيجاباً. بدأت في مداعبة شعري.

تابعنا في صمت لعدة كيلومترات. ثم وعلى حين غرة مرة أخرى فاجأني قائلة:

– خوانين، هل سنمارس الحب، أم نتركه لوقت لاحق؟

لم تبدر مني أية بادرة إلا أنني سعلت..

– ماذا يعني ذلك؟ أعني لا؟

– بلى، بلى، بلى...

أخافتني عفوية إيدويا قليلاً، فكرة التخلي فجأة عن الأشياء، لكن التلقائية التي عاملتني بها أعجبتني أكثر فأكثر. اتفقنا على الخروج معاً، للتعرف على بعضنا بعضاً بشكل أفضل. عندما نزلنا من الحافلة عند وصولنا، بينما يودع أحداً الآخر، ألقى بنفسها على رقبتى وقبلت شفتي.

– خوانين، أريدك أن تتذكرني طوال الوقت، هل تسمع؟ بمجرد أن تفكر واحدة أخرى، سأكتشف ذلك.

عدت إلى المنزل ورأسي في حالة من الفوضى، في غضون أسبوع، انقلبت حياتي رأساً على عقب. في الأيام التي تلت ذلك، كانت إيدويا تتصل بي للخروج، كنا نذهب إلى الشاطئ أو إلى الجبال، كانت تأخذني إلى أماكن منعزلة، ترقد فوقى، نعانق بعضنا بعضاً بغزارة، تلبسني الواقي الذكري، ثم نمارس الحب مثل الخيول الهاربة. كانت لبوة حقيقية، اعتدت الوصول إلى النشوة الجنسية على الفور وتكرر الأمر معي مراراً وتكراراً، حتى جعلتني أنفجر بسرور. بعض الأحيان، انتابني شعور بأننا سنطير في الهواء، علاقتي بها ملأتني بالقوة، وشعرت بالنشاط، لقد حولتني إلى نمر. واجهت معها ازدهاراً لم أكن أتخيله مطلقاً.

في الأسبوع الأخير من شهر أغسطس، وعدت والدتي باصطحابها في رحلة إلى بحيرة سانابريا، حيث لعبة الجولف التي رتبها بعناية شديدة. استصعب عليّ أمر إخبار إيدويا، لأنني لا أعرف كيف ستتقبل الأمر ولأنني لم أشعر بالقدرة على تحمل يوم كامل دون رؤيتها؛ فكرة مغادرتي هكذا، في منتصف الولادة النابضة لعلاقتنا... لكن إيدويا فقط قالت:

– حسناً. إذا كنت قد وعدتها، عليك أن تأخذها.

ثم حكى رأسها، سائلة:

– مهلاً، هل يمكن أن آتي معك؟ هل ستغضب والدتك؟

أشعلت تلك الفكرة حماسي إلى أقصى الدرجات، لكنني لم أستطع التنبؤ بما سيكون عليه رد فعل والدتي، على الرغم من أن كل يوم رأيتها أكثر حداثة. عندما أخبرتها، لم تعرف بما تجيب، لكن تعبير عيني، على ما يبدو، فسر لها الأمر برمته بوضوح. ظلت لفترة طويلة فاعرةً فاهة، حتى نطقت قائلة:

– أنتم لا تضيعون وقتكم...

ثم وضعت يدها على فمها، مفكرة.

أقنعت والدتي أحد أصدقائها بمرافقتها، وذهبتنا نحن الأربعة إلى بحيرة سانابريا. في اليوم الأول، اقتربت إحدى موظفات الفندق الذي أقمنا فيه من إيدويا، واستقبلتها، ودهشت لرؤيتها هناك، وتعانقا عن كثب وتحدثتا بالفرنسية بتهامس. كنت على وشك أن أشعر بالغيرة. دار الأمر حول صديقة طفولة من باريس، جاءت للعمل في الصيف، ولممارسة اللغة الإسبانية. عندما قبلتني محيية إياي، شعرت، لا أعرف ماذا، بنوع من الاشمئزاز.

خلال الأيام التي كنا فيها في الفندق، عندما أنهت صديقة إيدويا العمل، اعتادتنا المغادرة معاً في كثير من الأحيان، وتركني مع والدتي وصديقتها في المسبح. بالكاد تحدثت بضع كلمات مع تلك الفتاة، على الرغم من أنني أستطيع إنشاء حوار كامل باللغة الفرنسية، وإن لم يكن ذلك بدون صعوبة. لم تعجبنى نظراتها. على أي حال، لم تهملنا إيدويا وكانت متحمسة جداً مع والدتي، في بعض الأحيان، تستغل غفوة والدتي وصديقتها بجانب المسبح، ثم تجرني من يدي إلى الغرفة، تهمس في أذني بكلمات مثيرة.

في اليوم الأخير، ذهبت إيدويا في نزهة مع صديقتها الباريسية، دون أن نخبرنا بأي شيء. أصابني ذلك الشعور بالسوء. عادتنا مع بعض الأقران لأمي وصديقتها وسوار من الجلد كهدية لي.

عادت والدتي مسرورة من الرحلة، مفتونة بـ «زوجة ابنها»، مما جعلها تتوسل إليها بالقدوم إلى المنزل متى أرادت.

منذ ذلك الحين، ظهرت إيدويا مرتين كل ثلاثة أيام بالمنزل، بل وأيضاً بقيت حتى تبيت معي. أصرت والدتي على أننا نتسرع قليلاً، لكنها رحبت بـ «زوجة ابنها» مشبهة إياها بالهواء النقي الذي ينعش المنزل. بمرور الوقت، أصبحت إيدويا من أهل المنزل. كنت أتساءل عما سيفكر فيه والداها (بالكاد كنت أعرفهم)، لكنني فهمت كل شيء عندما عرفتني عليهم. أم فرنسية، باريسية، شاركت في حركة مايو 68 وارتبطت بلاجئ من الباسك، معه جاءت للعيش في إقليم الباسك بعد العفو. الآن تعمل مدرسة للغة الفرنسية في سان سيباستيان. لم يكن زوجها الحالي هو والد إيدويا، تعيش مع شخص آخر، وكلاهما منخرط في السياسة، لكن إيدويا لم تتطرق للموضوع أكثر، لأن السياسة لم تكن من اهتماماتها.

خلال السنة الثانية، كان من الصعب عليّ الموازنة بين عملي ودراستي وعلاقتي مع إيدويا، لكنني تمكنت من تنظيم نفسي جيداً، على الرغم من

حصولي على درجات منخفضة إلى حد ما. شعرت بالارتباط بها أكثر فأكثر، ولكن، من ناحية أخرى، كان هناك شيء تسبب لي في الشعور بالسير على طول جرف هار. ماذا؟ لم أدرك تماماً ماهية ذلك.

الحياة الأصيلة غير مفهومة، لكن موسيل لا يتعب أبداً من تتبعها، حتى مع إدراكه بأنها أمر خفي، ومن المستحيل العثور عليه.

## ماغريس، خاتم كلاريس

منذ أن جمعتني الحياة بإيدويا، تم محو شخصية أدبياً بالكامل تقريباً من ذهني، مثل مشهد من فيلم تم استبداله بآخر، توقفت عن الظهور في مقر الكاهن، حيث استوعبت إيدويا وقت فراغي الذي تبقى بعد العمل والدراسة. في وقت لاحق، أخبرتني والدتي أن أدبياً بالكاد شوهدت في قبو الكاهن، إلا في المناسبات التي كانت فيها المدرسة منوطة بإقامة بعض أنشطة الأطفال.

– قالت والدتي مفتقدة المعلمة: «لا بدَّ وأن لديها أموراً أخرى».

في ذلك اليوم عندما أعطتني والدتي تلك الأخبار الموجزة عن أدبياً، تذكرت أستاذتي بحنين وأيضاً دون قلق زائد، تساءلتُ عن الأمور التي تهتم بها، وإلى أي مدى كانت هذه الأمور مرتبطة بالمخدرات، أو ما إلى ذلك، إلى أي مدى كان سبب شكوكي هو جنون العظمة. استنتجت، مما أعطاني شعوراً بالراحة، أنه إذا كانت حقاً منخرطة في المخدرات إلى حد كبير سيلاحظ عليها ذلك إما في جسدها، في عملها، في علاقاتها مع الآخرين، وخاصة في علاقاتها، إلى جانب ذلك، سيعرف في الحي، لأن هذا النوع من الأشياء نهايتها العفن في مثل هذا الحي الصغير حيث تنتشر الشائعات من منزل إلى منزل أسرع من طائر السنونو التي تعبر الهواء مفترشة الأسطح، كما لو سيقومون برفع الأسقف بين كفوفهم لأخذ أسرار المنازل المخبأة تحت بلاط السقف، ونثرها في مهب الريح في الاتجاهات الأربع بصربهم الشديد.

مع هذه القصة، لا أتتبع الأخبار بقدر ما تتبع موسيل، ولا أحاول فهم الحياة من خلال الكتابة، أنا راض عن فهم ومحاولة فك الشفرة السرية التي تكتبها قصص ذكرياتي بداخل اسمي المخفي. أي أن الحياة غير مفهومة في الحياة نفسها، في التجارب اليومية، تنزلق بعيداً مثل الماء بين الأصابع، مثل البخار الذي يخرج مع كل زفير. بعد ذلك، بعد أن أصبحت من الماضي، نحاول فهمها من خلال الكتابات أو إحدى الطرق الفنية الأخرى، لكننا لا نكشف النقاب إلا عن عدد قليل من الظلال التي، في أفضل الحالات، تمثل صوراً تقريبية ذات مخططات غير واضحة.

على وجه التحديد، امتهنت إيدويا الرسم. أخذت دروساً مع رسام ياباني خلال إقامتهما المتكررة في باريس. في أيام الآحاد إذا لم نصعد إلى الجبل مع مجموعة متسلقي الجبال، اعتدنا السير نحن الاثنان بمفردنا عبر جبل قريب، ثم نعود إلى منزلي لتناول الطعام، ونأخذ قيلولة، ونمارس الحب عدة مرات، وإذا ما أمطرت أو لأي سبب لم نجد لدينا الرغبة في الخروج، تمسك إيدويا بحامل وبعض الفرش التي أعطيتها إياها والتي احتفظت بها دائماً في منزلي، ثم تشرع في الرسم، بدرجة عالية من التركيز. قامت برسم عدة صور لي، وكذلك لأمي. لقد رسمت الخطوط العريضة فقط، بضربات قليلة وسريعة، في كثير من الأحيان، بطريقة رسامي الزن، ثم تقتصر على تلوينها بطريقة سريعة للغاية. لم يسمح لها مزاجها بالقيام برسم تفصيلي جزءاً تلو الآخر، والعمل على كل التفاصيل وكل فارق بسيط في اللون. لا، بل جسدت تصوراً عاماً في ضربات عريضة. أحببت رسم أشياء على درجة عالية من التفاهة: قائم سريري، باب خزانة ملابس، رداء والدتي المعلق خلف باب الحمام، رقم نصف ممحي عن بعد، على الجانب الآخر من الساحة، على قطعة من النبتة يمكن رؤيتها من نافذة غرفتي... كانت إيدويا تركز على مثل هذه الأشياء، وتستمر لفترة طويلة مفكرة فيها، مستوعبة إياها، وفجأة تصورها على القماش بعاطفة داخلية.

عندما تشرع في التركيز بفرشاتها، كنت أنتهز الفرصة للقراءة أو الدراسة.

في بعض الأيام، كان (خوسيه ماري) يأتي إلى المنزل، ليسأل عن متى يمكننا أن نتدرب على (تكسالابارتا). دائماً ما كنت مشغولاً. ابتسم ابتسامة ذات مغزى سيئ، متخيلاً ما يشغل كل وقتي لهذه الدرجة. ومع ذلك، في أحد أيام الأحد كان ذلك وقت الكلب، وصبت إيدويا جللاً تركيزها على رسم طبق خزفي متسخ من الحوض، فنزلت إلى منزل خوسيه ماري.

– هل تريد منا أن نتدرب على تكسالابارتا قليلاً؟

لم يتسع الوقت لكي يخبر خوسيه ماري أنا أنه قادم إلى مرآب والدي. أمسكنا بالعصي وبدأنا العزف، كان يعزف تاكون وكنت أعزف أورغون، ثم العكس. بعد فترة طويلة، نظرت إيدويا من الباب، ثم بسطت ذراعها مع السبابة والوسطى من اليد ممدودتين في شكل رقم سبعة، وتدويرهما من جانب إلى آخر، في إشارة الي العلامة التي تعني «كلاكما»....

– ألن تكونا انتما...؟ لن تكونا...؟

توقف ماري عن العزف وتلوننت وجنتيه. التفت إليها عابساً.

– حسناً، حسناً، لا تعكرا صفوكيما بسبب حمقاء، لستما أول من...

نظرنا خوسيه ماري وأنا إليها في ذهول.

– اللعنة، ما هذه الوجوه التي اعترتكما! فقط طرحت سؤالاً واحداً. وجهيكما مليء بالتبريرات، مثل صندوق نفايات ممتلئ بالدهون التي لا طائل منها عن آخره.

ثم تنهدت قليلاً. ولبضع ثوان وجيزة، تساءلت لماذا نتحدث اليينا إيدويا بهذه الطريقة. فجأة، لمعت شخصية صديقتها التي التقيناها في سانابريا في ذاكرتي. «ليساً ذلك.....؟»، تساءلت، ولكن شيئاً ما بداخلي أجاب بالسلب رافضاً كل الاحتمالات.

– حسناً، هل ستعزفان شيئاً لي، أم ماذا؟

عبس خوسيه ماري قليلاً ثم أوضح:

– لا أعرف ما إذا كنت سأتمكن من الاستمرار في العزف، بعد ما أخبرتنا به...

اصطنعت ايدويا التجهم ساخرة.

أطعناها أنا وخوسيه ماري دون مزاح، ثم بدأنا بالعزف. غادرت إيدويا وعادت مع الحامل وفرشاتها، عازمة على رسمنا. في إحدى صورها، عكست كيف «تجعدت» عصاي مثل الأمواج بعد اصطدامها بلوح الكرز، حيث قامت فقط بتلوين لوح الكرز، بلون بني محمر، مع خطوط ونقاط داكنة.

أضفت إيدويا ديناميكية على حياتي تسببت لي أحياناً في الإصابة بدوار معين، لكن من ناحية أخرى، وجدتها محفزة للغاية، مثل عندما تحصل على نقطة جذب في معرض ما وتدور حولها بأقصى سرعة، يطمس الواقع ويصبح أكثر وضوحاً، إذا تمكن المرء من الاسترخاء.

على أي حال، مع الكثير من الديناميكية، يمكنك أن تعيش الحاضر بمثل هذا التركيز، بحيث تنسى لفترة مؤقتة العلاقات التي ربطتك مع أشخاص شاركوا في وقت ما تجارب مكثفة معك. لم أعد أتذكر ماريسا على الإطلاق، لقد أصبحت ذكرى بعيدة مثل بعض الصور من الطفولة المبكرة، مثل تلك التي ما زلت أحتفظ بها كسلسلة مختصرة من فيلم: امرأة تأخذني بين ذراعيها، لا

أريد أن أذهب معها، فأبكي باسماً ذراعني إلى والدتي. أدبلا، ألبضاً، انجرفت بعيداً إلى وقت محدد تمت تجزئته في الذاكرة، حتى انفجر في وقتي الحالي مرة أخرى مثل وميض عنيف ومؤلم. كنت عائداً من العمل في سيارتي أسفل التل، أفكر في الموضوعات التي سأدرسها بعد العشاء، عندما صادفت دراجة مارو. في المقعد الخلفي اعتقدت رؤية جسد أدبلا، كانت صورة عابرة، ولكن كنت متأكداً من أنني قد تعرفت عليها، لم يكن عليّ أن أرى وجهها لأتعرف عليها، ولا على جسدها بالكامل، لأن صورتها كنت محتفظاً بها في داخلي، لدرجة أنها أصبحت نوعاً من الهولوجرام الذي كان كافياً لمراقبة جزء منه حتى ينعكس تماماً. كنت متأكداً من أنني رأيتها، أوقفْتُ السيارة وأدرتُ رأسي، لكن الدراجة اختفت بالفعل داخل أحد المنعطفات.

– بماذا تلعبين، أدبلا؟

وفقاً للشاعر اللاتيني إنيو، فإن الأعمال الصالحة في غير محلها هي أعمال فاسدة. يحدث شيء مشابه مع الأفكار، ناهيك بالشك. في حالة أدبلا، كان لدي بعض القطع المنفصلة، القليلة جداً، وكنت أحاول إكمال الأحجية عن طريق تجميع تلك القطع القليلة. دفعتني إيدوبا، بسلوكها، إلى عدم استخلاص استنتاجات ولا شكوك لا أساس لها أو غير واضحة، إما أسعى إلى استيضاحها أو أنسى ذلك الشك. كانت تحب إظهار قطع أحجيتها علانية، ولم تسمح لنفسها بتلطيح الفراغات بشحم غير صالح. اعتمدتُ كما هو الحال في لوحاتها، بضربات واضحة وحازمة، تكوين صور محددة جيداً وترك بقية المساحة فارغة. هذا ما علمتني إياه إيدوبا، وكان أحد أهم الدروس في حياتي، حتى لو لم أنته من تعلمه، لأن شخصيتي المحتجزة تجرني نحو مواقف أخرى أقل راحة.

اعتبرتُ إيدوبا، بثقتها بنفسها وطلاقة لسانها، نعمةً هبطت من السماء على منزلي. أزالَتِ الحجبَ عن أعيننا، بكل ما تعنيه الكلمة، بضربة واحدة، مثل ممرضة تنزع ضمادة متصلة بالجلد، تاركة الجرح مكشوفاً، لتنظيفه وتهويته. بالنسبة لأمي، في سن المراهقة الثانية الذي تمر به، أتت إليها إيدوبا مثل نسمة من الهواء النقي. عند وجود إيدوبا في المنزل تشد والدتي ظهرها، وتتفرج أساريرها، مثل طفلة تم دعوتها للمشاركة في لعبة رائعة.

هل نضع الكريب، ماريا؟

أخرجت والدتي على الفور المقلاة والدقيق والتوابل وكل ما طلبت إيدويا منها، بنهم طفلة، كما لو كنا صغاراً نلعب مطابخ صغيرة. علمتها والدتها الباريسية كيفية صنع الكريب على طريقة بریتون، وملأها بمختلف الأطعمة. أحببت بشكل خاص تلك المحشوة بالفطر والأرز والبصل والكراث والفلفل المقلي مع بيضة مسلوقة في المنتصف. وبالنسبة للحلوى، أحببت كريب الشوكولاتة.

في كثير من الآحاد، بعد تناول الطعام، اعتدت القيام من على المائدة ببطن مليء بالكريب ثم أذهب مباشرة إلى الأريكة، في شبه حالة ذهول، مع كوب من الباشاران في يدي، بينما عمّدت كل من والدتي وإيدويا إلى تنظيف المائدة. في ذلك الوقت لم اقبّ على تنظيف طبق أو استخدام المكنسة. الآن أتساءل لماذا لم تفتعل إيدويا معي المشاكل بسبب ذلك، ربما لم تفعل ذلك لأنها رأنتي أعمل كالحمار واعتقدت أن لدي ما يكفي، لا أستطيع أن أدرك السبب على وجه اليقين. أما بالنسبة لأمي، من ناحية أخرى، أمر آخر: لم تكن أبداً لتفكر في أن تسألني مساعدتها، إلا إذا كانت مريضة، اعتادت ذلك، مثل معظم أمهات الحي، في غاية السعادة بلعب دور الخادمة لابنها. الآن أشعر بالخجل وعدم الارتياح لتذكر ذلك، لكن أيضاً لم أستطع حتى التفكير في تبني موقف آخر.

انكفائي على الأريكة لم يدم طويلاً. عند انتهائهما من تنظيف المطبخ وتنظيمه، تجلس والدتي أمام التلفاز في يدها مشروب منقوع البابونج، بينما تمسك إيدويا بيدي وتجرتني.

– هيا، أيها الهارب. تعال معي.

ترمق إيدويا والدتي بنظرة جانبية قائلة:

– سناخذ قيلولاً يا (ماريا).

– أوه، أوه، يا رفاق! – ما زلت أعتقد أنكما متسرعان في أمركما.

– وأنت، ماريا؟ – استفزتها إيدويا مرة واحدة – . أليس لديك من أصدقاء للقيولة؟ لا يوجد أحد قد شعرتي بالانجذاب تجاهه؟

وضعت يدي على فمها وسحبته نحو الغرفة، حتى لا تتماذي في عبثها مع والدتي، لكنني توقفت في منتصف المسار عند الباب عندما سمعت الإجابة:

– حسناً، أتعرفين يا بنيتي؟ نعم هناك بالفعل شخص ما. لكنني أتمهل، لا أريد أن أخافه وأخيفه.

– مباشرة نحو الهدف يا ماريًا، نحو الهدف. قبل أن تأخذه أخرى.

لم أتمكن من الخروج من دهشتي، لم أكن لأفكر أبداً في أن شيئاً كهذا سيؤثر عليّ، لكنني شعرت بالسوء والغضب والانزعاج. تخيلت رجلاً عجوزاً يرتدي سروالاً داخلياً في المنزل، وشعرت بنوع من الغثيان.

– «ماذا؟! لقد تجمدت مثل مثل أبله» – دفعتني إيدويا إلى الداخل وأغلقت الباب.

ثم همست لي بصوت منخفض:

– هل أنت مجنون أم ماذا؟ لا ترى أنها قد لاحظت رد فعلك؟ بدلاً من تشجيعها على المضي قدماً، تريد أن تقضي البقية الباقية من حياتها هناك، في المطبخ، أم ماذا؟

– لا، لكن...

– أمك تحتاج إلى زوج. ألا ترى أن ذلك الجسد لا يزال يطلب الحرب؟

في الأيام التي تلت، خشيت دوماً ظهور والدتي في أي لحظة مع عجوز ما، لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل. لم تقدم هي على ذكر الأمر مرة أخرى. ولم أفعل بالطبع، علاوة على أن لدي أموراً أكثر أهمية، حيث شعرت مرة أخرى بأنني على القمة، بحار سعيد وشجاع، على الرغم من أنني تعلمت الدرس جيداً بحلول ذلك الوقت: بعد تسلق الموجة والبقاء في الأعلى، يأتي وقت يتعين عليك فيه الغوص بسرعة فائقة.

## 15

بالنسبة للطبيب، كل شيء هو علاج، وبالنسبة لرجل القوانين، كل شيء هو قانون.

### موسيل، الرجل بلا سمات

بالنسبة لمدمن المخدرات كل شيء هو المخدرات.

كان هناك شيء طمأنني بشأن أدبلا، وهو أنه على الرغم من أنها بالكاد كانت تحضر في مقر الكاهن، إلا أنها لا تزال تعيش حياة نشطة، تعمل وتشارك في التجديد التربوي بكثافة، لم يُلاحظ عليها أيُّ علاماتٍ تنذر بالخطر.

بينما تحولت حياتي إلى درجة عالية من الروتينية: العمل والمزيد من العمل. وسَّعت إيدويا أفقَ حياتي، كانت صاحبةً إلى حد ما في سلوكها، دائماً نشطة ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتها. بصرف النظر عن الرسم، كرست نفسها لدراستها بتركيز حيث اهتمت بمساعدة المرضى والمحتاجين، تقربت من الناس وتجاربهم، كان مهتمة بكل منهم بدافع من التعاطف الخالص. في بعض الأحيان، انبثقت عنها هالةٌ تبشيريةٌ، ميل إلى نشر منهج صوفي للمثالية التي ورثتها عن والديها، سلوكٌ لطيفٌ أموي، يتماشى إلى حد كبير مع المهنة التي تطمح امتهانها. بالنسبة للباقي، اعتادت تخصيص وقتٍ لكل شيء: أن تكون معي، أن ترسم، أن تدرس، وأن تخرج مع أصدقائها الذين بالكاد أعرفهم، باستثناء أحدهن التي التقيتها مرة واحدة في منزل إيدويا. تدعى لير، فتاة على درجة عالية من الخجل، دائماً ما تتجنب نظرتي.

كانت حياتي مع إيدويا مغامرة خالصة، ساعدتني على اكتشاف جوانب جديدة، ومراقبة الجوانب التي لم تلفت ناظري نحوها أبداً، وحتتني على النظر إلى الهضاب التي تجبُّها بدافع الخوف الخالص الذي فقدت بسببه المناظر الطبيعية الجميلة التي ترى على الجانب الآخر. فتحتُ جروحي، وأزالتُ الضمادة بسحبة واحدة، وحتتني على النظر إليها دون خوف، لأن الأمور على ما هي عليه والندوب لم تزل في مكانها. عرنتي إيدويا من الداخل أكثر من الخارج، وهو من الصعوبة بمكان، لأن هذا النوع من الحجب ملاصق للأحشاء. على الرغم من كل شيء، احتفظت بعمود المروحة الذي مددته أكثر فأكثر، واحد فقط، مخفي، خشيت أن أريها إياه، خشيت أنه في يوم من الأيام بينما نتجول سنلتقي بأديلا ونخوض محادثة طويلة. ذلك القضيبي الذي احتوى على بعض أسرار طفولتي التي ظلت مخفية، ليس خوفاً من إيدويا، ولكن خوفاً من العواقب التي قد تضعها تحت الضوء. إذا ما كان لدي أذنٌ ميكانيكي، فإن لدى إيدويا عين رسام، وعندما تنقب داخل الشخص تصل بعينيها إلى أعماق خباياه، من غير المجدي محاولة إخفاء شيء عنها. خشيت أنه من خلال جر خيطٍ علاقتي مع أدبلا، سينكشف النقاب عن غرفة الكراهية التي صنعت بها معبداً يتعذر الوصول إليه بداخلي، وفقط أنا من يمكنني الولوج إليه، رمزهُ هو المسدس والرصاصة التي طالما أخفيتُها في بطانة بدلة زفاف والدي. علاوة على ذلك، في علاقتي مع أدبلا، كان هناك العديد من المجالات التي تم إنشاؤها بناءً على المظهر والغمزات والإشارات الصامتة، ولم أرغب في أن يكشف أيُّ شخص عن السرير الذي

أخفيته مغطى بعدة بطانيات، ملفوفاً جيداً في ذاكرتي. كنت أعلم أن إيدويا إذا ما اكتشفت السرير ستدخل، تسحب البطانيات والشراشف وتقلب المرتبة، حتى تتمكن من تهويتها.

لهذا السبب، في خضم يوم مطير وبارد بعد ظهر يوم الأحد، بينما نتناول أنا وإيدويا الشوكولاتة الساخنة في المطبخ في الحي أدناه، دخلت أدبلا واقتربت من البار بشعر مبلى، نبض قلبي نبضة غير عادية. لم تلحظ وجودنا، بينما كنت أنظر في الاتجاه الآخر.

سألت أدبلا في الحانة: « قهوة منزوعة الكافيين، من فضلك ».

– أتعرفها؟ – لاحظت إيدويا رد فعلي، حيث إنها كانت تراقبني بعناية.

– نعم، نعم، كانت معلمتي.

– قم لتحتها ثم ادعها للجلوس معنا، يا لطيف.

رفعت ذراعي ولوحت به عدة مرات، حتى رأته أدبلا.

– خوانيتو! – جاءت إلى الطاولة وفي يدها الكوب ثم جلست على المقعد الذي أشارت إليه إيدويا.

– أنا إيدويا، خطيبة خوانين – قدمت نفسها، حيث إنها وجدتني أبلهاً.

– اسمي أدبلا، كنت معلمة خوا... نين.

تبادلا القبلات، انتابته حالة من الحيرة والتجرد، ثم قبلتني أدبلا. نقلت إيدويا نظرها مرة إلي وأخرى تجاه أدبلا، لسان حالها يقول: « ما الخطأ بينهما؟ ». ثم سألت:

– وأي نوع من الطلاب كان خوانين؟

ردت أدبلا بأنه الأفضل على الإطلاق، والأكثر ذكاءً وحساسيةً. احمرت وجنتي من الخجل. ثم ازداد خجلي عندما قالت إنني كتبت بعض القصائد الجميلة.

– ماذا؟ – فتحت إيدويا عينيها كطابقين، بينما بدا احمرار خدي أكثر من واضح.

– لم أعد أكتب – أنهيت الأمر بخجل.

– اللعنة! إنك لقصة.

تظاهرت إيدويا بالغضب، أو ربما كانت غاضبة قليلاً. هددتني قائلة بأنها في المرة القادمة التي تعرج فيها على منزلي، سيتوجب عليّ أن أريها إياهم، وألا، فلن تغفر لي الأمر أبداً ما حيت.

فقط أومأت رأسي. ثم تابعت إيدويا.

– أتقولين إنه أفضل طالب لديك، لكن في بعض الأحيان يبدو وكأنه أحرق، مذهول. إذا ما كان لطيفاً، لقطعت علاقتي به في التو – قالت إيدويا بنبرة يملؤها المزاح.

– «نعم، إنه فتى لطيف للغاية» – أضافت أديلا.

انتابني شعور بعدم الارتياح. أخذت نفساً عندما أخبرتنا أديلا:

– يجب أن أذهب، أيتها العائلة. أود دعوتكما إلى منزلي في أحد الأيام. أدعوكما لتناول العشاء. سأكون متحمسة جداً لإجراء محادثة لا نهاية لها كما هو الحال في أوقات أخرى. أنا لم أرك منذ وقت طويل، خوا... نين.

قبلت إيدويا الدعوة.

– في انتظاركما السبت القادم، اتفقنا؟

نقبت في ذهني، باحثاً عن عذر، لكن إيدويا وأديلا كانتا تودعان بعضهما بالفعل بقبلة مذكرتين بعضهما بعضاً بيوم السبت. عندما غادرت أديلا، حدقت إيدويا في وجهي.

– كم كنت هادئاً يا برئ! لقد وقعت في حب معلمتك، بالتأكيد كانت هي حبك الأول.

– لا تتفوهي بالهراء.

– أنا لا أقول هراء، خوانين. لقد لاحظت ذلك في اللحظة الأولى التي تغيرت فيها ملامحك. أنا لا أعرف لماذا تنكر ذلك. إنه شيء طبيعي وجميل.

– لكن الأمر ليس كما تقولين.

– ها نحن الآن! مرة أخرى مع ذلك الهوس بتعقيد ما هو واضح ومحسوس بالفعل.

– لا أرى الأمر بهذه الطريقة.

– أنت بالنسبة إليّ كتاب مفتوح. في هذا الأمر، لقد نسجت لنفسك حجاباً غامضاً ورائعاً. من المؤكد أنك تشعر بنشوة أمامها، كما لو تجلس في حضرة ملاك.

لم أكن أعرف إلى أين أذهب.

– انظر يا خوانين: ما تشعر به هو حب في أوضح وأنقى صورته، مغطى بحجاب من الروحانية. أنت فقط تريد أن تتذكر الآن وجود الحجاب الغامض.

حافظت على هدوءي. مددت يدي كي أطلب المزيد من الشوكولاتة.

– هل نتشارك واحده؟ – سألتها.

بعد تناول الشوكولاتة، أمسكت إيدويا بيدي مداعبة.

– أعلم أن هناك أشياء يجب أن تنتظر، أو حتى يجب تركها. أنا لست تلك الحمقاء التي تعتقد أنه يمكن كشف النقاب عن كل شيء، هناك دائماً شيء سيظل قابعا في الظلام، وليس من الجيد إخراجه من هناك قبل أن يحين الوقت المناسب.

– هل لديك أنت أيضاً مناطق مظلمة، لا تظهرها لأي شخص؟

– بالتأكيد، خوانين، بالتأكيد، الأحلك هي تلك التي لا ندرك وجودها حتى.

– سحبت يدي من يدها قائلاً: «لقد شرح فرويد ذلك بالفعل، لقد قرأت شيئاً عن الأمر».

– أما أنا فقد علمتني الحياة ذلك.

أمسكت بيدها. اقتربت ثم طبعت قبلة علي شفتي، بحماس متجدد جعلني أتذكر قبلة ماريسا الأولى. ثم، تراجعته، وأصبح وجهها جاداً ونظرت إليّ

مفكرة فيما على وشك قوله، كما نادراً ما تفعل.

– خوانين، تلك المرأة متعبة للغاية.

– متعبة؟ – أجبت بغرابة، أتساءل ما الذي لاحظته إيدويا.

شعرت بالطعم المر للشوكولاتة على شفتي، كما لو استخرجت كل لعابي، اعتقدت أن إيدويا لن يمكنها التنبؤ بذلك مثل رحلة مرض القلاع.

في الأسبوع التالي، انتزعني حدثان من برنامج دراستي الصارم. الأول حدث يوم الثلاثاء التالي لمقابلة أدبلا في المخبز. كنت أستحم قبل العشاء عندما ضربت أمي على باب الحمام.

– اخرج في أقرب وقت ممكن، خوانيتوا! أسرع!

وضعت فوطة على جسمي، دون أن أجف نفسي تماماً، ارتديت سروالي الداخلي وغادرت على عجل. وجدت خوسيه ماري في الردهة، يرتعد ويبكي.

– «لقد أخذوا آنا»، خرج الكلام متقطعاً بسبب تنهيداته.

– آنا؟

– أخذتها الشرطة، أو لا أعرف، لأنهم كانوا يرتدون ملابس مدنية.

أقلقني حديثه أكثر. ندعو الله أن يكونوا رجال شرطة أو أفراد الحرس المدني، لأنه إذا كان الأمر..... في الآونة الأخيرة، ترامي إلى مسامعنا العديد من حالات الاختفاء على أيدي الجماعات اليمينية المتطرفة.

– ألم يعرفوا أنفسهم؟

– لا أعرف! تم القبض عليها في المدخل. سمعت صراخها، ولكن عندما نزلت، كانت السيارة قد رحلت بالفعل.

– هل رأيت السيارة؟

– نعم، ألف وأربعمائة وثلاثون بيضاء، مع سقف أسود وزخارف.

ارتديت أول ما وصلت إليه يدي وذهبتنا إلى سيارتي. بدأنا الأزيز نحو أسفل المنحدر، وانزلقنا إلى أسفل عبر المنحنيات. توقف خوسيه ماري عن البكاء، أعتقد أنه تحجر من الخوف، بسبب السرعة التي كنا ننخفض بها.

– قلت: «إذا لم يكونوا أفراد الحرس المدني أو الشرطة، فلا بد أنهم توجهوا إلى ألتودي أنداثاراتي»، لأنه كان الطريق الأكثر انقطاعاً.

صعدنا مثل البرق عبر الميناء حتى، في منتصف الطريق تقريباً، أمسك خوسيه ماري بذراعي.

– تراجع! لقد رأيت شيئاً.

استدرت ونزلنا ببطء، حتى رصدنا سيارة بيضاء ألف وأربعمائة وثلاثين عند مدخل طريق العريبات الصخرية. أعيننا مفتوحة على مصراعيها، ذهبنا مثل الذئاب الجائعة بحثاً عن فريسة.

– قلت لخوسيه ماري، مبطئاً من سرعتي دون الاحتداد: «إن السيارة هناك، ماذا نفعل؟».

– توقف هنا!

بدا أنه سيقفز من السيارة في حالة تأهب، ليبدأ في الجري بحثاً عن آنا.

– أمسكت بذراعه بقوة قائلاً: انتظر، انتظر! دعنا نفكر ملياً فيما سنفعل.

ليس هناك وقت! لا ندري ما يفعلون بها الآن!

في ذلك الحين، تذكرت أننا كنا بالقرب من مزرعة عرفت مالكةا من ورشة العمل، لأنه قام بإصلاح لاند روفر في أكثر من مناسبة.

– دعنا نطلب المساعدة!

أوقفت السيارة عند باب المزرعة. خرج المالك من نافذة صغيرة.

– أعطني الكلاب، رامون!

– لماذا تريد الكلاب؟ – سألني بغرابة.

خطرت لي فكرة. شرحت لرامون أن زوجة خوسيه قد اختطفت.

اختفى رامون على عجل وعاد بيندقتين وعلبة خراطيش. ألقى إحدى البنادق إلى خوسيه ماري، الذي أمسك بها في لحظة، وأطلق سراح الكلاب وبدأنا في الجري وحشو البنادق.

– «ليس بهذه الطريقة، لنذهب للأعلى» – حذرنا رامون.

ركضنا عبر منحدر وقطعنا الطريق عبر بستان الصنوبر. الكلاب في الأمام، تنبح بشراسة، لأنها شممت شيئاً. بدأ رامون في إطلاق النار في الهواء.

– أطلق، أطلق! – صرخ في خوسيه ماري. – يجب أن نخيفهم.

أطلقوا النار في الهواء على غير هدى، بينما كنا نركض بالفعل على المنحدر الآخر، نحو أسفل المنحدر. فجأة، سمعنا صرخاتٍ وظلالاً تجري، بعد فترة، انطلق محرك سيارة بعيداً. صفر رامون للكلاب.

– ابحث، ابحث!

نستمر في النزول. سرعان ما شعرنا أن الكلاب قد توقفت عاوية بشكل يرثى له.

– هناك يجب أن تكون! – صاح رامون.

وصلنا إلى الكلاب، ووجدنا آنا فاقدة للوعي. ألقى ماري بنفسه عليها باكياً.

– آنا! آنا!

تحسست نبضها، وتنفست الصعداء. إنها حية. وضعت أذني بالقرب من فم آنا وأدركت رطوبة البخار الذي انبثق مع الزفير، وهواء صغير دافئ.

– إنها حية.

التقطها بين ذراعيه وتوجهنا إلى المزرعة، حيث وضعناها في السيارة وتوجهنا نحو المستشفى. لم نتذكر حتى أن نشكر رامون. في اليوم التالي، ظهر خوسيه ماري في المزرعة مع عشرات الكعك وزجاجة من الشمبانيا.

أصيبت أنا بكدمات في جميع أنحاء جسدها، لكنها سرعان ما تعافت. بعد ليلة في العناية، تم إرسالها إلى المنزل في اليوم التالي. قدم كلاهما شكوى في قسم الشرطة، ولكن سيتم حفظ القضية لأنه لم يكن هناك أحد لاتهامه.

يوم الجمعة تعطلت خطتي الدراسية مرة أخرى، لأن إيدويا اتصلت بي قائلة إن والدتها ستلقي محاضرة في مقر الكاهن، لشرح بديل اليسار الباسكي. كنت في حيرة من أمري، لأنني لم أتوقع أن تشارك والدة إيدويا في مثل هذه اللعبة.

وعدتها بأنني سأحضر الحديث. كل تلك المحادثات الدعائية التي نظمتها الأطراف، والتي سعت بعد كل شيء إلى تجنيد مؤيدين، لم تزعجني، لكن في حالة والدة إيدويا، قمت باستثناء. يقول أبولو إن ما لا يعرفه أحد بالكاد موجود، على الأقل، يبدو الأمر كما لو أنه غير موجود، خاصة في مجال السياسة. الجاهل بالأمر ينحرف بشكل غير رسمي. لذلك، أفهم بطريقة معينة الحاجة إلى المؤتمرات العامة للأطراف المعنية، حتى لو لا يؤدي الأمر نتائج معي.

تخلت إيتا المنظمة السياسية المسلحة عن السلاح وقررت الترويج لبديل ديمقراطي يساري وقومي، يتجسد في اليسار الباسكي. وقع العديد من الثوار المتناثرين على المشروع. في الحديث الذي ألقته والدة إيدويا، تجمع الكثير من الناس، شوهد الأشخاص الذين شاركوا في الحركة المناهضة لفرانكو في جمعيات الجبهة، كان الطابق السفلي مزدحماً. رأيت خوسيه ماري وأنا في زاوية، وجهها مصاب بكدمات، لكنها تبتسم. كانت المناقشة التي أعقبت الحديث شديدة التوتر، قال أحد أفراد هاري باتاسونا إن حزب اليسار الباسكي ولد من خيانة، وأنهم استسلموا للدولة الإسبانية. دحضته والدة إيدويا نقطة تلو الأخرى، بلهجتها الفرنسية الغربية، مشيرة، أولاً وقبل كل شيء، إلى أن وقت الكفاح المسلح قد مضى، وأن الوقت قد حان لاستخدام أساليب أخرى. من بين الحاضرين رأيت أدبلا، التي التزمت الصمت طوال الوقت. في طريقها للخروج، عرجت عليّ لتذكرني بموعدها لتناول العشاء في منزلها يوم السبت، وغادرت. نظرتُ في عينيها، في محاولة لتخمين شعورها، وما إذا كانت متعبة كما أخبرتني إيدويا، لكن لم أرَ أي شيء لم أره من قبل، ربما بالكاد إرهاق ملحوظ من التعب، ذلك التعب الذي ولد من جذور الوجود نفسه.

أحياناً أخذني التفكير في الأوقات الماضية نحو كيف تغيرت الأمور في بضع سنوات! إلى أي مدى كانت التجمعات المتعددة في الجبهة! بدت وكأنها

قصص من زمن مضى، مع شخصيات من الماضي، تذكرتها كما لو عاشت في وقت بطولي مليء بالحيوية والأمل، مع الأوقات الصعبة واللحظات السعيدة والحماسية، والرغبة دائماً في تغيير كل شيء، وإعطاء كل شيء بقلب مفتوح، بروح الدعابة على الرغم من الخطر الوشيك... مثل الشوكولاتة.

أتذكر بشكل خاص واحدة من التجمعات، التي بدأت بطريقة مرحة ومبهجة. لقد جمعنا حوالي مائتي شخص. أنا، كما هو الحال دائماً، وقفتُ عند البوابة التي أدت إلى الطريق «الشيوعي»، في حال حدوث شيء، بجانب اثنين من الحراس الذين لم يرفعوا أعينهم عن الطريق. كل شيء هادئ ولا يمكن سماع أصوات محركات أسفل المنحدر. دخل زعيم منظمة العمال الثورية والرجل القوي في منظمة اليسار الشيوعي في جدال، ودحض كل منهما الآخر بناءً على الاقتباسات. تحدث رجل منظمة اليسار الشيوعي بغضب وبصوت عالٍ، تطرق إلى أقوال مقتبسة عن لينين وروزا لوكسمبورغ وأنطونيو جرامشي وغيرهم من المؤلفين، واحداً تلو الآخر، في محاولة لترهيب خصمه. كلما زاد غضبه قل فهم الناس له، بالطبع، يستمعون إليه بابتسامة على أفواههم، مستمتعين، كما لو يلقي النكات.

– لم تخسر البروليتاريا أي شيء إذا ما نقّدت الاتحاد التكتيكي مع البرجوازية ضد الديكتاتورية، هذا ما اعتقده، إنها مسألة تكتيكات، أيها الرفيق، حتى الطفل يفهم ذلك – قام متحدث منظمة العمال الثورية بتنفيذ هجوم مضاد، طائناً أنه قد وجه ضربة نهائية لخصمه.

ولكن رجل منظمة اليسار الشيوعي كان مصمماً على إقناع الناس بوجهة نظره بأي ثمن، لمرة واحدة حتى. توقف عن الاقتباس من لينين ورفاقه، ثم تحدث بلغة تقليدية.

– سأفسره لك ذلك بطريقة أخرى، أيها الرفيق: انظر إلى رغيف الخبز من الناحية التكتيكية، مخبوز طازج، على كومة من الروث. ما الذي فقده الخبز؟ لا شيء، إنها مسألة تكتيكات. حتى الطفل يمكن أن يفهم ذلك.

أطبق الصمت تماماً لبضع لحظات، كما لو لم يصدق أحد ما سمعناه للتو من شفاه المثقف الجاد الذي لا يسبر غوره والذي اعتبره الجميع الرجل القوي. فجأة هزت موجة من الضحك المكان، ولكن ليس لفترة طويلة...

– الخضر! الخضر! – صاح أحد الحراس.

فاجأنا هدير عال لسيارة لاند روفر من حيث لم يتوقع أحد، على طول الطريق الشيوعي، عبر العشب، سعياً لمفاجأتنا في منتصف التجمع، لأنهم إذا ما صعودوا المنحدر، فإن وصول «الخضر» سيتم ملاحظته في وقت مبكر مما يعطى الوقت لحل التجمع والبحث عن مهرب.

في خضم هدير خطى متسارعة، كنت في أسوأ مكان لبدء الجري، لأن هدير المحركات كان يقترب بسرعة من اليوابة. ركضت يعميني الخوف، داهساً أولئك الذين يسقطون. رصدت واحداً من منظمة اليسار الشيوعي، مع أديلا في يده، ناقلاً إياها إلى الجانب الآخر من الحاجز، ثم قفز، وأنا بعده. مررنا بالكنيسة، رأينا خوسيه ماري يتسلق جدار الردهة، يمسك بشعلة بيد واحدة ومساعداً أنا على التسلق باليد الأخرى كما لو يجهزها لتقفز قفزة كبيرة. بديا مثل قردين. بقيا مستلقين تحت السقف، مختبئين على العوارض الخشبية. مسكت بأديلا، التي تلهث، ممسكة بيد رجل منظمة اليسار الشيوعي. أمسكت يدها الأخرى وسحبته. «سوف يلحقون بنا، سوف يصطادونا هذه المرة»، قلت لنفسى. شق الناس طريقهم نحو المدرسة، واختبأوا في المراحيز وعلى الدرج، لكنهم كانوا يدخلون إلى مصيدة فئران. فجأة، توقفت ضوضاء المحركات، وكنا متحجرين، غير قادرين على تصديق ما كنا نسمعه.

– غورا يوسكادي! غورا يوسكادي الأحمر!

توقف كل منا في منتصف طريقه، واستدرنا ورأينا مارو وعصابته عند الباب الأمامي، مع علم الباسك بألوانها الحمر، وهم يهتفون بشعارات. لقد جاءوا في سيارة لاند روفر قديمة، لمفاجأتنا في منتصف التجمع والسخرية منا. عندما رأوا أرضية النبتة مغطاة بالأحذية والدفاتر وأقلام الرصاص والحقائب... انفجروا ضاحكين، بصوت عال، مشيرين بإصبعهم إلى الأشخاص الذين كانوا يقتربون، كما لو كانوا يشيرون إلى «لقد كانت فكرة جيدة».

بعد التردد الأول، بدأ الناس يركضون نحوهم، عازمين على ضربهم جيداً. تدخل بعض القادة ومنعوا القتل الغوغائي، وحثونا على عدم الوقوع في تلك اللعبة الغبية.

– حمقى! اقترب خوسيه ماري، قفز من سطح الردهة. لن يمر هذا مرور الكرام! لا تتركوا هذه الخنازير تذهب حتى أعود.

ذهب وعاد بحبل طويل ربط به مارو وأصدقائه بإحكام بشجرة موز في الساحة، حيث مكثوا طوال الليل، حتى وقت مبكر من اليوم التالي جاءت أديلا للسماح لهم بالرحيل، لأنها لم ترغب أن يصل الأطفال إلى المدرسة ويرونهم على هذه الوضعية. كان عليها أن تطلب المساعدة لفك العقد القوية، لأنها لم تستطع فعل ذلك بمفردها.

ولا يمكنها فك أنواع أخرى من العقد بنفسها، بنفس الطريقة التي لا تستطيع بها الحمامة المحبوسة في حلقة أن تفك بمنقارها العقدة التي تمسك ساقها.

## 16

سألت خوسيه ماري عما سعى إليه خاطفو زوجته. لقد أخبرتني بأنهم سألوها عن أسماء مقاتلي إيتا القانونيين، حتى أنهم دعواها هي نفسها بكلية إيتا. كانوا يضربونها، عندما سمعوا مجموعة من الكلاب تنبح بعنف تقترب ووابلاً من الطلقات والصراخ مما أعطى انطباعاً بأن الجيش يندفع نحوهم. ضربوا أنا بشدة، وتركوها فاقدة للوعي على الأرض، واندفعوا نحو السيارة، دون منحهم الوقت لأخذها بعيداً.

يوم السبت، نزلت بالسيارة لالتقاط إيدويا أمام منزلها. فتحت والدتها لي.

– إنها تستحم. ادخل.

هنأتها على أدائها في المؤتمر، شكرتني بقبلة. نادراً ما ذهبت إلى منزل إيدويا، لم تكن العلاقة بين والدتها وزوجها الحالي تمر بأفضل حالاتها، يملأ البيت جو نادر، لذلك فضلت إيدويا القدوم إلى منزلي دوماً.

لم تكن إيدويا سعيدة بنشوء مشاكل بين والدتها وزوج أمها، لم تتمنَّ السوء لأي شخص، وإذا ما ودت لوم شخص على شيء، فإنها ستخبره وجهاً لوجه، علانية. لم تكن على استعداد لتترك مشاعرها تتعفن بداخلها، مشاعر الحقد والانتقام والغيرة. ووجود شخص مثل هذا في حياتي يعتبر بمثابة نسيمة من الهواء النقي بالنسبة لي، من لديه ميول معينة لحياة شخص مخادع وحاقد إلى حد ما. لم تتماش معها فكرة الجلوس والانتظار لرؤية جثة عدوها تمر من أمامها، يبدو ذلك من وجهة نظرها غباء، «لذلك، من الأفضل الذهاب إلى منزل العدو وقتله، دون الانتظار طوال حياتك جالساً».

في يوم من الأيام توجب عليّ إخبارها عن المسدس والرصاصة التي احتفظتُ بها في بطانة بدلة زفاف والدي. كنت على يقين بأنها ستطلب مني التخلص من كليهما، الرصاصة والمسدس على الفور. سأضطر إلى إخبارها كيف حدث الحادث الذي تركني أعرجاً مدى الحياة. أدركت جيداً أن ذلك اليوم سيأتي عندما سأضطر إلى إفراغ مكب الرمال وعلبة الشحوم، وبدء رحلة جديدة، خفيفة وبدون ثقل غير ضروري. إذا ما رغبت في مشاركة حياتي معها، وهو أمر أردته أكثر فأكثر بحماس، فيستعين عليّ كشف النقاب عن مخبأي الذي خبأته تحت سبعة مفاتيح.

كان حبي لإيدويا هو الأغرب على الإطلاق، لم يكن، على الأقل، كما جرت العادة أو يتوافق مع فكرة الوقوع في الحب التي اعتدت إلى الآن. في البداية، انجذبتُ إلى تعاطفها، شعرتُ بها كصديق جيد. ثم سرعان ما انجذبتُ إلى جسدها، وانفجارها الجنسي، ودوارها، مما سما بي إلى مستويات من المتعة لم أتخيلها قط. عندما ولجت إلى حياتي، انتهى بي الأمر إلى الاحتياج إليها إلى درجة الجنون، ونبت في داخلي شعور قوي بالحب، كنتويج للعلاقة وليس كبداية، كما اعتقدته يحدث دائماً، لأنني أيقنت سابقاً – مثل معظم الناس – أن المرء يقع في الحب بجنون في البداية ثم تهدأ حماسه تلك المحبة تدريجياً.

خرجت إيدويا من الحمام، وارتدت ملابسها بسرعة، ثم ودعنا أمها، وأمسكنا بطبق مغطى بورق الألمنيوم، ومن ثم خرجنا.

– لقد صنعت فطائر الفطر والأرز.

– نرى، قطعة صغيرة – حاولتُ إدخال إصبع، ورفع رقائق الألومنيوم قليلاً.

– اتركها! – صفعنتي. لا تتجرأ على لمسها حتى!

عندما وصلنا إلى منزل أديلا، كانت تنتظرنا مع مجموعة المائدة، حيث أشعلت بعض الشموع والبخور، وعزفت الموسيقى.

– «لم يكن عليكما إحضار أي شيء» – أخبرتنا فور دخولنا.

قالت إيدويا وهي تشير إلى المغادرة: «إذن، سأعيده».

ضحكنا ثلاثتنا، طريقة جيدة لكسر الجليد، على الرغم من أنه مع إيدويا لم يكن ذلك ضرورياً، لأنها قادرة على إذابة الجبال الجليدية الحقيقية. دعنا أديلا

إلى الجلوس في غرفة المعيشة. كانت قد أعدت الأفوكادو وسلطة سالسيفي، ثم بعض لفائف البيض، مصحوبة بالبادنجان المخفوق اثنين في اثنين، مع شريحة من جبن البيكورينو في المنتصف، صنعت أيضاً قالباً من الحلوى، ممتلئاً بمخفوق من الزبدة وجوز الهند، مغموساً في الشوكولاتة الساخنة.

قالت إيدويا بعد القضاء على الحلوى بينما تداعب بطنها: «أكاد أنفجر».

أعدت أدبلاً منقوع مهضم يتكون من العرق السوس والينسون وخل البرتقال. ثم استلقينا على الأريكة للاستماع إلى الموسيقى، وضعت أدبلاً ألبوماً لأمانسيو برادا، مخصصاً لروزاليا دي كاسترو. ثم، كموسيقى خلفية، وضعت مجموعة من الأقوال المأثورة. تجاذبنا أطراف الحديث بهدوء مستلقين على الأريكة. سألتنا أدبلاً عن والدة إيدويا، حيث إنها وجدت محاضرتها على درجة عالية من المهنية.

– وأضافت: «على أي حال، أخشى أن الأمور لن تتغير كثيراً في هذا البلد».

شعرت بتشاؤمها، وأخبرتها بذلك.

– هل تعتقد ذلك، خوانيتو؟ لا أعرف، ربما فقط أشعر بخيبة أمل.

– إذن، ماذا كنت تتوقعين؟

– لا أدري. ولكن ليس ما نحن بصدده الآن. لم أكن أتوقع هذا، سواء على المستوى الاجتماعي أو على المستوى الشخصي.

– المستوى الشخصي؟

– نعم، خوانيتو. اعتقدت أن الأمور ستسلك طريقاً آخر.

– ماذا عن البوذية، اليوغا، الثورة التربوية وكل ذلك؟

– أترغب في سماع الحقيقة؟ رحلة إلى اللاشيء. يقولون في الشرق إن هذا بالضبط ما يكمن بداخله التنوير العظيم لأولئك الذين يمكنهم تحمله والبقاء هادئين أثناء الرحلة، كما هو الحال مع شمعة مضاءة في عين إعصار. لقد انطفأت شمعتي. الدارما، الحماية العظمى لأولئك الذين يتبعون تعاليم بوذا، تلك التي تقضي على الجهل، الطريقة الأسما لترسيخ السلام

والسعادة في الحاضر الأبدى... لم ينجح الأمر بالنسبة لي: إما أنني لم أرق إلى درجة التقوى، أو هناك شيء لم أفهمه.

– أديلا، لقد علمتني...

– انس كل ما علمتك إياه، خوانيتو، باستثناء شيء واحد: احترام الحياة. عليك إغفال البقية، والعيش في الوقت الحاضر، والتمتع به مع حبيبك. أراكما سعيدين جداً... هذا أحد أهم مسببات سعادتي، رؤيتكما هكذا.

خفصت أديلا رأسها وبكت بهدوء، بلطف. لم أكن أتخيل أبداً رؤيتها هكذا، في انهيار تام. لقد رسمت لها صورة لجون دارك متسقة، أو بالأحرى بوذا أنثوي هادئ. الآن أراها أمامي، تظهر لي هشاشتها، ضعيفة. تأكدت مخاوفي، وكان هذا عرضاً خطيراً لا لبس فيه.

– أود مساعدتك يا أديلا.

– لا يمكنك، خوانيتو، لا يمكنك. أسافر في سحابة، أنت في سحابة أخرى، مع إيدويا، لا يمكنك القفز إلى سحابتي.

– «بالطبع يمكننا» – تدخلت إيدويا – «يمكننا ضم السحابتين معاً».

رمقتنا أديلا بابتسامة حزينة.

– كم أعطي للحصول على جرام واحد، فقط جرام واحد من قلبيكما بدلاً من قلبي!

أجبتها أنني لم أعرف قط قلباً مثل الذي تمتلكه في كل طفولتي، وأنها أنقذتني...

– من ماذا، خوانيتو؟ من ماذا؟

لقد أنقذتني من الشحوم الفاسدة التي كنت منغمساً فيها، لقد طهرتني وأطلقت لي العنان في الهواء، حتى أطيّر كطائر طليق. وقد فعلت ذلك مع جميع الأطفال بدرجة أكبر أو أقل. أنا متأكد من أن صوتك لا يزال يتردد صداه في آذان كل أولئك الذين تعلموا من المعلمة ذات العيون النفاثة، من أولئك الذين استمعوا إلى حكاياتها الدافئة في خضم برد الشتاء.

– لقد أسعدتنا، يا أديلا.

– لكنني لم أتمكن من إسعاد نفسي. لقد وجهت الكثير من الأطفال والمراهقين نحو المسار الصحيح، بينما خرجت أنا عن المسار بنفسي. كيف يمكنني إرشادهم إلى المسار الصحيح، بينما أنا نفسي لم أهدت إلى ذلك المسار وعشت بلا هدف؟ شيء ما تفوح منه رائحة فاسدة في مدينتي الفاضلة.

– لا! – رفعت صوتي، بحزم أذهل إيدويا التي أمسكت بذراعي – . إذا كنت قد أفسدت حياتك العاطفية أو حياتك الاجتماعية أو في أي مكان، فقد فشلت في ذلك، لكن لا يمكنك التقليل من الحنان الذي أهدته على الأطفال. لن أنسى ذلك أبداً.

نظرت أديلا إليّ في رهبة.

– يا إلهي! لقد أصبحت رجلاً.

انتهزت هي الفرصة لأخذ المحادثة في اتجاه آخر.

– لقد سمعت بالفعل عن مغامرتك مع خوسيه ماري، لإنقاذ أنا.

– تدخلت إيدويا، محاولةً أيضاً نزع فتيل الموقف: «إن خوانيني على درجة عالية من الشجاعة».

ابتسمت أديلا، ثم حولت المحادثة بعيداً مرة أخرى، ناظرة إلى إيدويا:

– أفتقر على وجه التحديد، إلى ما قد وجدته فيك على وجه الدقة بمجرد رؤيتك، يا إيدويا. أنت تعرفين كيف تغيرين الموقف، مثل شخص لا يهتم، مثل ملاءة.

– قاطعتها، تعرفين أيضاً كم عدد المستنقعات التي انغمست فيها؟!

تنهدت أديلا.

– كثر، خوانيتو. لقد حللت الكثير من العقد في حياتي، لكنني بقيت مع الحبال في يدي، وهي الآن ثقيلة جداً. أنا أغرق.

– إن الأمر برمته بسبب المخدرات اللعينة تلك، أليس كذلك؟ – رميت بالسؤال فجأة.

وضعت أديلا يدها على صدرها، كما لو كانت قد تعرضت للدفع.

– سنتحدث عن ذلك يوماً ما...

– لا! بل الآن!

– لاحقاً، خوانيتو. عندما أستطيع التقاط أنفاسي قليلاً.

أمسكت إيدويا بذراعي بإحكام، كما لو تريد القول «اهدأ، اهدأ، إنها على وشك الانهيار»، التهمت السمكة الطعم، لزاماً الآن الإرخاء وتركها تبتعد، حتى تبتلعه عن آخره.

– قلت: «حسناً، لاحقاً. لكن تذكرني أنك وعدتني».

ضيق أديلا عينيها ونظرت إليّ بتعب لا نهائي. أصررت من ناحية أخرى.

– أديلا، هل حاولت الذهاب إلى طبيب نفساني أو أخصائي نفسي؟ تعرف والدة إيدويا شخصاً ماهراً جداً.

– سنتحدث عن كل ذلك يوماً ما. الآن أنا منتهية تماماً. ما أود القيام به في الوقت الحالي هو لعب البوكر. عندما كنت طفلة صغيرة، دائماً ما كنت أعب مع والدي.

لعبنا البوكر حتى منتصف الليل. تغير وجه أديلا، تحول تعبها إلى ابتسامة. يمكنك أن تقول إنها تقضي وقتاً سعيداً، كما لو عاشت طفولتها مرة أخرى.

غادرنا منزل المعلمة بعد الثانية عشرة والنصف، بعد معانقتها عن كذب.

– «أود أن أفعل شيئاً من أجلك» – قلت لها في طريقي للخروج.

– أنت تفعل ذلك بالفعل.

– أود أن أفعل شيئاً آخر. لا أدر...

– قالت أديلا وهي تتحدث إلى نفسها كما لو كانت في المنام: «حسناً، الآن بعد أن قلت ذلك. أقرضني بعض المال، أنا مفلسة».

– لم أتردد للحظة.

– كم تريدان؟

– مائة ألف.

في ذلك الوقت هذا مبلغ كبير من المال.

– سيكون أمامك هنا غداً، أديلا.

احتفظت بذلك المبلغ وأكثر في صندوق حذائي.

عانقتني أديلا بعاطفة، بقيت على هذا النحو لبضع لحظات، وبعد ذلك تحدثت معي كما لو كانت قد استيقظت للتو من كابوس، كما لو أن ما أخبرتني به سابقاً كان هلوسة.

– «حتى لو كانت حياتي هي الثمن، فلا» – قالت فجأة، وقد صدمت.

– لماذا، أديلا؟ هل أموالك ليست طيبة؟

– كيف يمكن ذلك، إذ إنك كسبت كل ذلك من عرق جبينك! لكن تبقت لدي بعض الكرامة. على الأقل أريد أن أحملها معي، عند موتي.

عانقتها مرة أخرى بشدة، ثم أمسكت بإيدويها من الخصر وهبطنا الدرج، بينما وقفت أستاذتي ترقبنا متكئة على درابزين الدرج. خرجنا إلى الساحة وأخذنا نزهة في صمت. عند باب البار، متكئاً على الإطار، مع ويسكي في يده، رأينا مارو في حالة من السكر.

– صرخ في وجهي عندما رأني، اللعنة، الفاشل! تكتفي الآن بالرطوبة بينهما... أو بكليهما؟ – وأطلق ضحكة ساخرة.

– واجهته إيدويها، غاضبة «اخرس، أيها الحيوان! أنت فقط تبلل حلقك، أيها الخنزير!».

أخذتها بعيداً، جاذباً إياها من ذراعها. ظل مارو يضحك، ثم صرخ:

– يا تافه! أخبر أمك أن تأتي وتلقي حديثاً آخر! أريد أن أربها شيئاً، إنها أكثر سخونة منك، ذات المؤخرة الكبيرة!

حاولت إيدويا أن تفلت نفسها، أرادت أن تذهب إليه لترسله إلى مثواه.  
حملتها بالقوة تجاه الجانب الآخر من الساحة.

– خنزير مقزز!

ذهبنا في نزهة بالقرب من منطقة حدائق الخضراوات، حتى هدأت تماماً. لم  
أرغب في العودة إلى المنزل بعد، سرنا عبر إحدى الطرق. مررنا بسقيفة  
مارو، في الظلام وإيدويا تسير بالقرب مني.

– قلت: «أديلا ليست بخير».

– نعم، للغاية.

## 17

عند وفاة فيرجيل بطل رواية هيرمان بروش، الشاعر الفاضح، على فراش  
الموت، يعبر عن رغبته في حرق الإنيادة، العمل العظيم الذي يحاكي روح  
روما، روح الإمبراطورية التي ترجع أصولها إلى ابن الآلهة، إينيس، البطل  
الطروادي الذي فر من مدينته المدمرة من قبل المتوحشين اليونانيين بقيادة  
يوليسيس، حيث احتفظ في طروادة بالكنز الأسطوري الذي لا يفسد الذي  
منحته الآلهة إياه، التي امتلأت جدرانها ببراعة، بأبطال فاسدين اختزلوا  
التاريخ لاحقاً في أحداث بائسة لأفعال بشرية، خرقاء وتافهة، ولكن هنا ينجو  
أينيس، حاملاً في دمه إرث الآلهة، فيؤسس روما، المذبح الجديد حيث تمنح  
الآلهة مباركاتهما للشعب المختار الجديد ليصبح السيد المادي والروحي  
للعالم.

ويريد فيرجيل حرق الإنيادة، رمز الوهم العظيم للخيال البشري.

وبنفس الطريقة، تسكن قوة خيالية ضخمة داخل كل شخص: الذاكرة،  
الوحش العظيم، الذي لا يعكس ما كان، ولا يمكنه إحياء ذرة مما انقرض.

أحياناً أود محو كل ذكرياتي، مثل القرص الصلب الذي يتم إعادة تهيئته، مثل  
إنيد على حاوية هاوية سحيقة، وكتابة حياة جديدة على صفحة نظيفة. ربما  
هذا ما يتكون منه الموت، ربما يعتمد معنى التناسخ الذي تعلنه بعض  
الثقافات على حقيقة إعادة كتابة قصة جديدة أخرى على قرص صلب بكر.  
طالما أحياء، لن يتمكن أحد من محو ذكرياتي، وإلقاء الإنيادة في النار، إلا إذا

أصبحت فارغاً تماماً وفقدت عقلي وذاكرتي. بالنسبة للباقي، فإن الطريقة الوحيدة لمحو بعض الذكريات هي استبدالها تدريجياً بقصص جديدة، والكتابة بحيث تغطي الرسالة الجديدة على الرسالة القديمة، لمعرفة ما إذا كان بإمكانني بهذه الطريقة تجديد معنى وجودي، المهمة الوهمية حيث يوجد هم.

يجب أن أعود في الوقت المناسب، إلى مرآب والدي. أنا وخوسيه ماري نعزف على تكسالابارتا. شاحنة والدي لا تزال هناك، أنظفها، أعيد تأهيلها، اعتني بها في ذاكرته.

– ماذا ستفعل بالشاحنة، خوانيتو؟ – خوسيه ماري يسألني.

– لا أعرف. لم نتحدث عن ذلك.

– شاحنتي على وشك التكهين. إذا أردت، سأشتریکها.

والدتي لم تعترض على البيع. فحصت الشاحنة مرة أخرى وسلمتها إلى خوسيه ماري.

ثم رافقته إلى ساحة الخردة، لترك شاحنته المتهالكة، ثم ذهبت وراءه بسيارتي، كي أعيده إلى المنزل. في طريق العودة، دعاني لتناول العشاء في مطعم.

بينما كنا نتناول العشاء، تطرقنا في المحادثة إلى موضوعات مختلفة، حتى أدت في النهاية إلى السياسة. تذكر خوسيه ماري باشتياق اجتماعات الساحة.

– كانت هناك رغبة، كان هناك وهم، اللعنة!

كنت دائماً أشعر بالفضول لمعرفة ما كان عليه خوسيه ماري خلال تلك السنين، تذكّرت أنه انتقل مع أشخاص من الجمعية السادسة، لا سيما مع أولئك من أورت. سألته:

– وأنت، ماذا كنت تفعل؟

– في إيتا – أجايني بشكل طبيعي.

انتابني زهول شديد من قوله، كنت أتوقع انضمامه إلى مناظلي الجمعية السادسة، وهي جزء من منظمة إيتا التي اختارت النضال السياسي والنقابي

وشكلت أو انضمت إلى حركات على مستوى مؤسسي، برؤية دولية، تم  
وصمهم جميعاً بأنهم مؤيدون للمتأسبين من قبل أعضاء الجمعية الخامسة،  
الذين تابعوا كفاحهم المسلح.

– ولكنك اعتدت التسكع مع مناضلي الجمعية السادسة أكثر من غير  
المؤيدين!

– لأنهم كانوا أصدقاء لتلك الحركة، قبل الانفصال الذي حدث بين الخامسة  
والسادسة. وأنا أيضاً فعلت ذلك لدرء الشبهات. من منا ضمن منفذي  
العمليات استخدمنا تلك الطريقة للتمويه.

– هل قمت بتنفيذ عمليات؟ – ظللت أنظر إليه في حيرة، ولم أجرؤ على  
طرح السؤال التالي.

– «هيا أفلته»، خمن خوسيه ماري ما يدور بخلدني. أعرف ماذا ستسألني.  
ترددت قليلاً.

– هل... هل قتلت شخصاً ما؟

– لا. نَقَذْتُ عمليتين فقط، هما حرق مزرعة وسرقة بنك. ثم تركتهم. اكتفى  
ضميري بذلك كي يصحوا من غفوته. ما زلت أحلم بالنار، الجدة التي أرادت  
البقاء في الداخل وبكاء الأطفال.

– ماذا عن البنك؟

– لم يجر الأمر على خير وجه، شعرنا بالخوف وهربنا بدون المال.

انضم خوسيه ماري، مثل العديد من الشباب الآخرين، إلى الحركة دون  
التفكير كثيراً في الأمر، بسبب شخصيته الاندفاعية، تم القبض عليه على  
الفور، في البداية كمتعاون ومسجل، مثل شخص لا يريد الانخراط في أمر  
ما لبث أن وجد نفسه في خضم المشكلة. وصف لي الانطباع الذي انتابه  
عندما وضع رئيسه مسدساً في يده، من ناحية ذلك الشعور المتصلب  
المتعطش للدماء مثل مصاص الدماء، ومن ناحية أخرى، عاطفة الشعور  
وكانه فيروس جودري حقيقي، مرض السكري الغامض لمن يرغب في  
تقديم دمه.

– ولماذا تركت الأمر؟

اعتقدت بأنه سيلقي على مسامعي نفس إجابة أديلا، مؤكداً عبارة نيتشه ويعترف لي أنه فعل ذلك ليس من أجل المبادئ أو التفكير الأيديولوجي، ولكن من أجل الميول العاطفية. ومع ذلك، كان لدى خوسيه ماري سبب واضح جداً لترك الأمر.

– لقد فعلت ذلك لأن مجموعتي تلقت الأمر بالقتل. في البداية تم إرسالنا إلى الجبهة الثقافية لتشكيل حركة من شأنها تعزيز الوعي الوطني والاشتراكي، ولكن بين عشية وضحاها وجدت نفسي أشكل جزءاً من مجموعة اغتيلية، كما لو أن المرء محاصر في شبكة تترابط من حولك دون أدنى ملاحظة منك، أنت تعرف كيف يمكن لشباب متهور أن يتصرف.

– من كان من المفترض أن تقتل؟ – غطيت فمي، كنت أسأل كثيراً.

– لا، لا، سأخبرك، على الرغم من قراري أنه لم يكن من المهم من؟ ولكن عملية القتل نفسها. كان علينا تصفية رقيب في الحرس المدني، يدعي بانيزو، الجلاد، كما اتهموه. بإمكانك أن تتذكر بنفسك كيف أمر بإطلاق النار على الجمعية في أيام اجتماعاتنا في الساحة.

نعم أتذكر ذلك، كنت لا أزال طفلاً، لكنني شاركت في ذلك التجمع، مختبئاً في زاوية، متناسياً تحذيرات والدي. تجمع عدد كبير من الناس أكثر من أي وقت مضى، للتحضير للإضراب العام الذي تمت الدعوة إليه احتجاجاً على مقتل العديد من العمال في فيتوريا خلال تعبئة الثالث من مارس المصيرية. لم يكن هناك ثقب إبرة خال. عندما شعرنا بوصول الحرس المدني، انزلت من البوابة الصغيرة للساحة، لكن الناس تحركوا بشكل عشوائي للغاية، أعاقوا طريق بعضهم بعضاً. كنت أهرب على طول «الطريق الشيوعي» عندما سمعت صوت الطلقات، شعرت بها كما لو أنها أصابتنني في رأسي. أسرعت أكثر، كنت على وشك الطيران، دون أن أتذكر عرجي على الأقل. توقفت للعودة نحو الحي، عبرت البساتين، ثم التففت خلف سقيفة مارو. وجدت أشخاصاً يختبئون هناك، منتشرين حول البساتين وخلف الحظائر. من مخبئي شاهدت أفراد الحرس المدني يضعون الناس في سياراتهم الرياضية، تم تحميل الجرحى مثل الأكياس. كنت أخشى أن يتحولوا في المناطق المحيطة، لذلك كنت على استعداد للخروج والتصفير ومساعدة أولئك المختبئين هناك عن طريق إيضاح طريق هروب في الظلام. ومع ذلك، كان الحرس المدني قد اكتفى بالفعل بصيده في ذلك اليوم، مع فيضان

السيارات ذات الدفع الرباعي، أمروا أولئك الذين لم يتمكنوا من الدخول بالاستلقاء على الأرض، قاموا بركلهم. بينما قام شخص ما بالصراخ من إحدى النوافذ قائلاً:

– يا قتلة!

رفعوا بنادقهم، وهددوا أولئك الذين كانوا ينظرون من النوافذ والشرفات، واستمروا في ركل المعتقلين.

عندما غادروا، ركض المختبئون لمساعدة أولئك الذين تعرضوا للضرب، كما خرج الناس من المنازل. من ناحية أخرى، حتى عندما رأيت أن الخطر قد زال، لم أقوَ على الانتقال من حيث اختبأت بسبب رعدة غشيت جسدي كله، حتى رأيت والدي ويداه علي رأسه، يسأل في جميع أنحاء الساحة عما إذا قد شوهدت. فخرجت من مخبأي وركضت إليه. اعتقدت أنه سيضربني بشدة على تلك الحماقة التي ارتكبتها والتي سببت لهم قلقاً مميتاً، ولكن لم أهتم، أردت فقط معانقته. حينما رأني أركض نحوه، لم ينبس والدي ببنت شفة، فتح ذراعيه وركض نحوي بدوره. عانقنا بعضنا بعضاً بشدة، بقوة، كما لو لم يحتضني من قبل. في الطريق إلى المنزل، ظل يخبرني: « كن حذراً يا بني، كن حذراً جداً.»

يلعب خوسيه ماري بالملعقة الصغيرة في طبق الحلوى.

– هو بانيزو فعلاً؟ – سألته.

– بعد كل شيء، لقد أمرنا بإعدام قاتل مفترض، باسم الشعب.

لكنني حاربت عقوبة الإعدام عندما عقدت محاكمة بورغوس، وفي مناسبات أخرى.

– لكن الأوامر هي الأوامر....

– ليس مزاحاً بالطبع. لكنني فعلت ذلك، على الرغم من الخوف.

لم يرغب خوسيه ماري في قتل، أو حرق المنازل، أو سرقة البنوك، أو ابتزاز الأموال، لم يكن يريد أن يشعر باللمسة الباردة للمسدس المتعطش للدماء في يده.

– ومع ذلك، فإن قتل بانيزو يعني إعدام جلاد. ألم تكن لتفعل ذلك مع هتلر أو فرانكو، إذا ما مُكِّنت؟

– لا أعرف بماذا أجيبك بالتأكيد. كل ما أعرفه هو أنني ضد عقوبة الإعدام. ولكن هناك ظروفاً وظروفاً. إذا ما أمسكت بانيزو وهو يعذب أنا أو أي شخص آخر، مع تلك الحمية، لأطلقت عليه النار مرتين دون أن تهتز يداي للحظة. هتلر أو فرانكو في خضم الحرب أيضاً، بالتأكيد.

– لا محاكمة ولا شيء؟

– بدون محاكمة، المحاكمة غير متاحة في مثل تلك الحالة.

– ألسنت تناقض نفسك؟

– ربما.

– بانيزو، هل يمكن الحكم عليه؟ ألم يكن هتلر مصغراً؟

– ربما هو كذلك، لكن مقدار الشر مهم في هذه الحالات. ما الذي تغير عندما قُتل بانيزو؟ لا شيء. ولاحظ ما سأخبرك به: على الرغم من أنني لم أر الأمر بهذه الطريقة في ذلك الوقت، من المنظور الحالي، حتى مقتل كاريرو بلانكو يعتبر بوهيمية غير ضرورية.

– حسناً، لكنك احتفلت، بالشمبانيا وكل شيء.

– حقاً، فعلت. الآن أعتقد أنني كنت غير مسؤول.

كما سيتم الاحتفال بوفاة بانيزو بالشمبانيا من قبل العديد من أولئك الذين عانوا من ضرباته. على وجه التحديد قتلوه بالقرب من الحي، بعدما تقاعد بالفعل من الحرس المدني وامتحن الحراسة في شركة ما. أخبروا ألبرتو بأن يسرع إلي الطابق السفلي، لأن الرجل الجريح، الذي يحتضر، يطلب كاهناً. لم يصل ألبرتو في الوقت المحدد. لطالما تمثَّبتُ معرفة ما هيّة اعتراف بانيزو الأخير. ما الذي يمكن أن يعترف به الجلادُ وهو على فراش الموت؟ بكم كان ديكتاتوراً؟ كم من إبادة جماعية ارتكب؟ كم كان إرهابياً متعطشاً للدماء؟

عاد ألبرتو ورأسه متدلية لأسفل، اختلط وهجُ الغضب مع دموع العجز في عينيه، وكرر بدون توقف: «يا لبشاعة الانتقام، يا لبشاعة الانتقام...»، وأضاف: «إلا ما نصبوا من كل هذا، ما هي تلك الحرية، يا لها من طريقة شنيعة لبناء أمة، يا لها من حماقة مقدسة...؟». جاء إلى منزلنا، يبحث عن بعض الدفء والراحة الأمومية، احتضن والدتي، مثل الطفل الذي يلوذ من خوفٍ أَلَمَّ به. عندما هدأ قليلاً، قال إنه جاء لمقابلتي وأمسك بذراعي، «إلى أين نحن ذاهبون، خوانيتو، إلى أين؟ ما العالم السخيف الذي ننوي تركه للأجيال القادمة؟»، كان يفكر بصوت مرتفع، دون انتظار إجابة، غارقاً في حاجة من العجز الكامل والشقاء في مواجهة حياة لا معنى لها. رأيت الإيمان يترنح في عينيه، ورأيت عجزاً منهزماً، وفجأة غزاني شعور بالعطف والتآخي لدرجة أنني عانقته عن كثب.

بقي للنوم على الأريكة في غرفة المعيشة.

عندما ذهبت إلى الفراش، لم أستطع النوم. تأججت الأفكار في ذهني، حتى أنني روادتني فكرة رغبتني في الحصول على أخ أكبر مثل ألبرتو. مثل ذلك من الأفكار.

– بعد انفصالك عن إيتا، لم تواجه أية مشاكل؟

– لا لم أواجه المشاكل. فرد مبتدئ، ولم أدر الهيكل الإداري الأعلى من مجموعتي. علاوة على أنه بسبب رفضي للقتل، إذا لم أنفصل، لقاموا بطردي.

– وفي الحي؟ ألم يضايقك مؤيدو منظمة إيتا؟

– الأمر يدعو إلى الفضول. اعتدت الحصول على نفس الصداقات كذي قبل، سواء بين ما يسمون مؤيدي دولة إسبانيا وبين مؤيدي دولة الباسك. نظراً لسرية انضمامي إلى إيتا، فإن رفاقي ورئيسي المباشر في «التدرج» هم وحدهم الذين عرفوا أنني أنتمي إليهم، ولم يكن أي منهم من الحي الذي أعيش فيه، لذلك بقي الحال كما هو دائماً.

– إذن، لم يتغير شيء في حياتك؟

– بالفعل تغير شيء ما: شعرت أنني فعلت ما كان عليّ فعله بكامل إرادتي. هذا هو الشيء السيئ، خوانيتو.

يتبادر إلى ذهني أنه في كثير من الأحيان نطلق على أفعالنا قولة التصرف بإرادة حرة، للتستر على المواقف التي يقودنا إليها الخوف. من الصعب بالنسبة لي التمييز بين الإرادة والخوف، لأن الخوف هو أول وميض تحذيري، شرارة أولى للوعي. لم يتسبب ترك إيتا في عواقب فورية على خوسيه ماري، ولكن في وقت لاحق ظهر هناك من كرسوا وقتهم لنشر الأكاذيب والافتراءات عليه: إنه جبان، وإنه قد اعترف بما لا يوصف عندما ألقى الشرطة القبض عليه، إنه على صلة بخوليو، وإن اعتقاله ليس أكثر من غطاء... بالنسبة للكثيرين، أصبح خوسيه ماري شخصاً غير جدير بالثقة. اعتقدت بأنه إذا ما كان هذا ما قد قيل في حقه، فإن الأمر قد طالني أنا الآخر كوني صديقه، على الرغم من أنه من الوارد جداً بالنسبة لأولئك الذين كرسوا أنفسهم لنشر الأكاذيب ضد الخونة والتبرئة والتورية لصالح أولئك الذين ارتكبوا «جرائم حرب»، لم أكن أكثر من شقي بدون رمح لا يستحق النظر إليه بعين الاعتبار.

على الرغم من انتشار الشائعات، لم يراودني شك في أي وقت من الأوقات في نزاهة خوسيه ماري، بل زاد إعجابي به ذلك الذي أعلنته له منذ الطفولة. أعتقد أنه من الملائم الإعجاب بشخص ما. نميل إلى الإعجاب بالأشخاص المشهورين، في أحسن الأحوال أولئك الذين قدموا الخير للبشرية، وفي أسوأ الحالات، الحمقى الذين يستغلون غيابهم لإيقاظ الغباء المخزن في أكثر فترات الاضمحلال غير المتوقع للنفس البشرية. الأهم من الإعجاب بالشخصيات، الرجال والنساء العظماء، بغض النظر عن مدى جدارة أفعالهم، هو الإعجاب بالأشخاص الذين شاركوا جزءاً من حياتهم وروحهم يوماً ما معك، مثل الإعجاب باجتهاد أنا وثباتها، إصرار خوسيه ماري، عشق والدي الهادئ لأمي ولي، نعم، بالنسبة لي. كم شكرته على هذا العناق الشديد المدفون في جسده لسنوات طوال، في الساحة! حب أمي للحياة، مرح وطيبة قلب ألبرتو، الكاهن الذي أحبته في النهاية، عذوبة ماريسا، حب إيدويا الكامل، إنسانية وحنان أديلا التي تركت إنسانيتها العميقة درساً محفوراً في كياني، وفي هويتي، في اسمي الخفي. إن معلمتي إنسانة، أكثر من إنسانة.

أفضل إذن أن أعجب بهؤلاء الأشخاص الذين تتقاطع مساراتهم معي في حياتي، لأن هذا الإعجاب يساعدي على تتبع مسار، مسار حيوي، نحو شيء جدير بالاهتمام وملموس، وليس حتماً سرعان ما يتبخر. بعض الناس بحاجة إلى المسيح، بوذا، كريشنا، محمد... يتم تلخيص هذا الإعجاب الملموس في نموذج أولي مثالي، ولكن إذا لم يتم تشكيل هذا النموذج الأولي وإضفاء الطابع الإنساني عليه وتحويله إلى شعور بشري ناقصين من لحم ودم، فإنه

يصح التمثيل الإيمائي النقي، المسكن النقي الذي يمنعك من مواجهة انعدام الأخلاق المنتشر في الحياة اليومية، والذي لا يسمح لك بالتفرقة بين الخير والشر. لا تسلك الأخلاقيات الملموسة اتجاه واحد، بل هي غير مستقرة.. يضطر الفرد الكامل للقتال من أجل الحفاظ على أخلاقياته، بدون نقاط ثابتة، وبدون تلك النماذج الفريدة التي بررت عبر التاريخ أعظم الهمجية الأخلاقية والمعنوية التي اعترموها معالجتها نظرياً. إن الأشخاص الذين يعبرون عن أنبل تطلعاتنا، حتى لو فعلوا ذلك بطريقة غير كاملة وبشيرة للغاية، فهم يضعون لنا أسساً مرجعية للمضي قدماً نحو تكوين شبكتنا الأخلاقية الخاصة. هذا الأمر برمته مشابه لمحاولة النظر إلى صورتك المعكوسة في مياه عكرة، عليك أن تنتظر حتى تتوقف حركتها وتهبط الرواسب، ثم حينئذ ستمكن حتى من الشرب منها.

لكنني لم أعرف كيفية الانتظار، اعتدت النظر إلى نفسي في مرايا قدرة، مدفوعاً بالعطش الشديد، شربت دون قيود، مثل بغل يسير في أرض قاحلة. وكما كان متوقفاً لم تكن تلك المياه تناسبني، لم تناسب وأولئك الذين يسعون إلى إطفاء عطشهم فيها.

## 18

إن أعرق الأنهار هي تلك التي تناسب بأقل وضوء.

### كينتو كورثيو

أقدر وضوح وعفوية إيدوبا، وقد أدركت طوال الرواية عظيم الخير الذي أنبتته طريقة معاملتها لي خلال واحدة من أصعب مراحل حياتي. غير أن الكلمات لا تعبر عن كل شيء، بأي حال من الأحوال، إنها مثل أسطح المياه التي ما إذا انزلقت في الأنهار الضحلة تتحرك بشكل خفيف محدثة صوتاً عذبا، مما يسمح بأن يُرى قاع النهر من الشفافية، من ناحية أخرى، في الأنهار العميقة حيث لا يُرى القاع، تنزلق الكلمات مثل الأوراق الجافة تقريباً، على ظهر عملاق يزحف بصعوبة، ويدقق في أحشاء الأرض، دون أن تلاحظ الأوراق الجافة ما يفعله هذا العملاق.

فسرت المحادثة التي أجريتها مع أدبلا عند تناولنا العشاء في منزلها بعض شكوكي، وساعدتني أكثر على حل اللغز. ومع ذلك، فإن نهرها، الواسع والعميق، كان يجر في الأعماق شيئاً لم أستطع رؤيته، وهو أمر أقلقني. لم أتحدث إلى إيدوبا مرة أخرى عن شكوكي بشأن أدبلا، لم أكن أرغب في

إفساد فرحتها وسعادتها، مما يجعلها تتبنى مخاوف أكثر مما لديها وأنها تمكنت من عدم خسارة قدرتها على التصرف الجيد المطبوع دائماً في شخصيتها. التحقت بمدرسة التمريض وكانت متحمسة جداً لدراستها. في العديد من الأيام، اعتدنا الاجتماع معاً للعمل في صمت، أصبحت مشاركة الصمت مع إيدوبا، وهو أمر بدا مستحيلاً، تجربة مثيرة، تماماً كما هو الحال عندما ترسم. عند الدراسة تعتمد التركيز بكل حواسها وبحماس شديد، لدرجة أن حماسها يشعرنني، كما لو كنا نمارس الحب، في صمت تام.

– «لا أعرف ما إذا كنتما تخرعان شيئاً ما»، قالت والدتي ملاحظة الوقت الذي قضيناه محبوسين في الغرفة.

– أجابت إيدوبا: «نعم، درسنا طوال الوقت، ماريبا. حسناً، تقريباً كل وقت».

– حقاً تعلمتما الكثير جداً.

الكلمات التي نطقت بها أديلا عند مغادرتنا منزلها بعد العشاء ما زالت تطن في أذني، تلك الإشارة الواضحة إلى الموت، مثل هاجيس، بعد أن طلبت مني فجأة المال، كما لو طلبته وهي نائمة، ثم رفضت رفضاً قاطعاً تلقيه، كل ذلك يشكل استغاثة، رسالة مساعدة واضحة. شعرت أن مفتاحاً مهماً لفهم ما كان يحدث له كان مخفياً في تلك التفاصيل، لقد أعطتني بعض القرائن عند مرورها بحالة مفاجئة من العجز، مثل سفينة تحولت إلى حطام تطلق صافرات الإنذار أو تلقي مشاعل. ما الذي دار بخلد أديلا؟ ما هو هذا الألم القديم الذي ينبض بداخلها؟ هل تعاني من اضطراب عقلي خطير؟ لم ألحظ أبداً أي إشارة لأي مرض معروف، ولا شيئاً غريباً في سلوكها وطريقتها في التعبير عن أفكارها، على العكس تماماً. إذا ما أخبرت بأن خوليو مريض نفسي لأيدته على الفور. ولكن ما هي تلك الأمراض التي يمكن إخفاؤها في نفسية هذه المرأة الملائكية تقريباً؟ ربما صدمة الطفولة الناجمة عن ماضي والدها الصعب؟ عقب تلك النظرة الأمومية، هذا التفاني والعطف، ذلك الاستقرار الفكري... هل انطوت نفسها عن القليل من الاضطراب النفسي الذي تجلى بدقة بطريقة غريبة ومتناقضة؟ لا، كانت أديلا سليمة ومركزة بشكل جيد للغاية بحيث إن نزاهتها مجرد واجهة. تفانيها للآخرين، عملها الجيد كمعلمة، نتيجة لاضطراب عصبي؟ رفضت أن أصدق ذلك. ربما تحررها الجنسي؟ هل سببه اندماج طفولي متضارب لشخصية الأب؟ لكن الحقيقة هي أن التحرر الجنسي هو قضية أيديولوجية، موقف واسع الانتشار إلى حد ما في قطاعات معينة من اليسار. قررت دراسة الأمر بعمق أكبر، والتشاور

مع أخصائي التحليل النفسي، وقراءة فرويد، لمعرفة ما إذا كان بإمكانني وضع بعض النظام في وسط فوضى التخمينات.

لكن التنظير لم يكن كافياً، كنت في أمس الحاجة إلى مزيد من التفاصيل عن حياة أديلا، وعن الحياة التي تعيشها بعد إغلاق باب المدرسة والتجول كما يحلو لها، وعن الأشخاص الذين اعتادوا زيارتها، وعن جداولها، وعن خروجها ودخولها. قررت التلصص على تحركاتها. لقد قمت بتغيير موضع طاولة الدراسة الخاصة بي، والتي كنت قد وضعتها بطريقة تجعل الضوء المنبعث من النافذة يدخل من اليسار، ثم وضعتها أسفل النافذة مباشرة، حيث يمكنك رؤية جزء من منزل المعلمين وجزء آخر من النبتة، مع زاوية مربعة في منتصف كليهما. كان على أي شخص خرج أو دخل منزل المعلمين أن يمر من هناك.

بحجة الاستفادة القصوى من الوقت، بمجرد عودتي من العمل والاستحمام، كنت أجلس هناك، وأتناول العشاء دون الانتقال من المكان وأواصل الدراسة حتى منتصف الليل، أنظر في اتجاه الساحة مرتين كل ثلاث ثوانٍ. داومت على تلك الفعلة حتى عند مرافقة إيدويا لي، اعتاد بصري على ملاحظة كل ظل يتحرك في ذلك المكان، دون أن أفقد التركيز على ما أدرس. عند اكتشاف أي ظلال متحركة، أركز نظري على خلفية المربع. عندما يتعلق الأمر بأديلا، كنت أتعرف عليه على الفور، فإن الزائر يصعد حتى الطابق الثاني ثم الوقوف ثم يرجع إلى منزل المعلمة التي لم تكن تخرج كثيراً.

اعتدت على أن أشاهدها يومياً، حتى أيام السبت والأحد، بحجة الانشغال الشديد. لم تتأفف إيدويا من عدم الخروج ولا بقاءنا في غرفتي، لأنها مشغولة أيضاً. عند سئمها من الدراسة، كان ترتاح بالرسم، وأحياناً تطلب مني الحلوى، في تلك الحالة فقط أتخلى عن مقر حراستي. كنت سأصبح ساموراي رهيباً، لأنه يقال إن الساموراي لا يترك مركز حراسته أبداً ويظل يقظاً دون أن يأكل وبدون نوم.

توصلت إلى بعض الحقائق المثيرة للاهتمام خلال فترة عملي كجاسوس. في ثلاث مناسبات رأيت مارو يدخل مبنى المدرسة، في ذلك المبنى تم وضع مبولة عامة في الجزء السفلي، بجوار المدرسة، إذا ذهب إلى المبولة، فلا بد أن مارو كان لديه مائة عملاقة، شغلت فترة وجوده بأكملها، لأنه استغرق وقتاً طويلاً في الخروج. كنت مقتنعاً بأن مارو كان يبيع أدوية المخدرات وأن أستاذتي عانت من ضائقة مالية خطيرة بسبب ذلك. من ناحية أخرى، انتابني حزن وغضب شديد أن أتخيل نوع العملة التي يحصل عليها مارو مقابل تلك

الديون غير المسددة. لكن كل ذلك اعتبرته تخميناتٍ وافتراساتٍ، دون دليل واضح لتأكيدھا. الآن أصبح لدي المزيد من القطع، بعض القطع القيمة لحل اللغز، ولكن من خلال تخيل اللغز المكتمل فمن المقدر أنني قمت بسوء تقدير خطير.

– أراك غريباً – أخبرتني إيدويا ذات مرة، والتي راقبتني بينما ترسم.

– غريب؟ لم؟

– لا أعرف ما الذي تنظر إليه بمثل هذا الاهتمام من النافذة. هل ترى أي شخصٍ عارٍ؟

– ابحتي بنفسك – دعوتھا.

– أنا لا أرى أي شخص عارٍ، أو يرتدي ملابس.

– حسناً، تعرفين إلام أنظر الآن.

– إذن، إلام تنظر؟

– حسناً، إلى الشارع، إلام تعتقدن سأنظر. إنه يريحني أثناء الدراسة.

– الشارع هو دائماً نفس الشارع. أنا لا أعرف ما الذي يستدعي النظر في ذلك الشارع.

– حسناً، كما هو الحال عندما تنظرين إليّ وأنا أنظر إليك، نحن دائماً نفس الشيء، لا أدري ما هو المهم في ذلك.

– اسمع، لا تقارني بشارع قدر.

– لا، يا سميتني. كانت مجرد مزحة. تعالي إلى هنا.

– لا تدعوني بالبدينة.

– حسناً، ولكنك سمينة قليلاً.

– هذا هو بالضبط السبب.

– ولكن ألا تريدني مني أن أتحدث إليك بوضوح دائماً؟

– نعم، لكنك أخبرتني بالفعل مرةً واحدةً بوضوحٍ شديدٍ، لست بحاجة إلى تكرار الأمر. حسناً؟

– حسناً، لا تغضبين، لم أكن أعتقد أن ذلك سوف يزعجك...

– توقف الآن، ولا تحاول تغيير الموضوع. قل لي ما تجده مثيراً للاهتمام في نفس الشارع القديم.

– الاختلافات في الظلال. يجب على الرسام أن يفهم ذلك.

بعد بضع سنوات، أطلقوا فيلم «الضباب الدخاني» سيناريو بول أوستر، حيث يلتقط بطل الرواية صوراً يومية بالأبيض والأسود لنفس الشارع في نفس الزاوية في نفس الأوقات، ويسجل الاختلافات في نفس الوقت، في كوكبة من الفروق الدقيقة. إنه لأمر مدهش كم عدد الاختلافات في نفس الشيء.

لم أكن أرغب في إشراك إيدويا في بحثي حتى يصبح لدي شيء لأبني عليه ببعض الصلاة وليس على مجرد تخمين. فكرت في عمل فخ، إلقاء طعم لتحقيق بعض الأدلة القاطعة. لكنني لم أستطع التفكير في أي شيء. واصلت مراقبة مبنى المدرسة، بينما إيدويا جالسة معي اعتدت على فعل ذلك في خفاء. وهكذا اكتشفت تفصيلاً آخر: بغض الطرف عن مارو، رأيت شخصاً آخر يدخل المبنى، من ثم انقلبت هذه التفاصيل رأساً على عقب، قطعُ الأحجية التي جمعتها حتى ذلك الحين لم تعد تتناسب معاً. في إحدى الليالي، رأيت ألبرتو، الكاهن، يدخل، في البداية لم يكن الأمر غريباً بالنسبة لي، لأنني اعتقدت أنه سيصعد بالتأكيد للتحدث مع أدبلا حول بعض الأنشطة مع أطفال المدارس، على الرغم من أن الشيء الأكثر طبيعية هو أن يأتي ألبرتو خلال النهار للتحدث مع المدرسين. المعلمة الأخرى لم تقطن ذلك المبنى، كانت تأتي وتذهب يومياً. كان من الصعب احتواء قطعة ألبرتو هذه، وأكثر من ذلك عندما انتظرت، ظللت منتظراً، حتى الواحدة صباحاً أرقبه، معتقداً أنه ضللتني ولم أشاهد ألبرتو يغادر، ثم بعد ذلك رأيته عبر زاوية الساحة واختفى عبر زاوية النبتة. وعلى الفور استنتجت أن ألبرتو على علاقة بأدبلا، إنه كاهن متمدن، يبدو جيداً، الرجل الذي أدبلا يمكن أن تحب. إلى جانب معرفة الحرية التي مارست بها أدبلا الجنس دائماً، كان ذلك أكثر من مجرد احتمال. لكنني اعتمدت فقط حقيقة رؤيته يدخل ويغادر، البقية اعتبرتها تخمينات.

سرعان ما جاءت الامتحانات واضطرت إلى طلب بضعة أيام إجازة، اعتدت الذهاب إلى الجامعة والعودة في نفس اليوم، ثم أدرس مثل رجل ممسوس، لذلك توقفت عن المراقبة في الوقت الحالي. مرت إيدويا أيضاً بنفس فترة الامتحانات، بالقليل من الهستيرية، نجتمع معاً فقط لفترة من الوقت، نمارس الحب ونحمس بعضنا بعضاً. في النهاية، تمكن كلانا من اجتياز كل شيء. للاحتفال، طلبتُ من المدير قضاء أسبوع آخر من الإجازة في يوليو، لم يعترض. هكذا غادرتُ أنا وإيدويا إلى الريفيرا الفرنسية. هذه المرة، ذهبنا للتخييم. قضينا وقتاً رائعاً؛ استحمنا على الشواطئ على طريقة الأفلام وصعدنا حتى نيس في جولة لمشاهدة معالم المدينة. بما أن إيدويا تتحدث الفرنسية بطلاقة، تنقلنا مثل بيدرو في منزله. كنت قد درست الفرنسية في المدرسة الثانوية وفي مادة اللغة، خضت محادثات بطريقة جيدة. فقط حادثة صغيرة عكرت صفو رحلتنا السعيدة قليلاً.

كنا نستحم بعد ظهر أحد الأيام على شاطئ الفردوس مع بعض الفتيات اللواتي كن يلعبن بالكرة في منتصف الأمواج. خرجت إيدويا من الماء واستلقت على الرمال، بينما واصلتُ السباحة. خرجت الفتيات أيضاً، باستثناء واحدة، احتفظت بالكرة، تلعب. فجأة، رمتها لي، أعدتها إليها مرة أخرى، وهكذا بدأت اللعب معي. كانت الفتاة تكتسب الثقة، وفي النهاية رمت نفسها فوقي للحصول على الكرة. حينئذ قفزت إيدويا إلى الماء، وسبحت نحو الفتاة ودفعتها بعيداً. ثم خرجت من الماء، وألقت وجهها على المنشفة وانفجرت في البكاء. أصابني الذهول، لا أعرف كيف أتفاعل، الأمر بالنسبة إليّ لعبة فقط، هراء، إلى جانب ذلك، كانت الصورة، التي كونتها لإيدويا، فضفاضة جداً، لدرجة أنها بدت أحياناً وكأنها متحررة جداً، لا يناسبها مشهد الغيرة المفاجئ، الذي لم يكن لدي أي سابقة له. لم أصدق ذلك، بدا لي أنني أمام شخص آخر. وصلت إليها، لمستها، لكنها تحولت بعيداً باكية.

— إذا ما سأمتني، أخبرني، فقط.

ما بدا وكأنه عمل ضئيل بالنسبة إليّ، ومع ذلك، تم خدش شيء ما في الداخل، انكسر شيء بيني وبين إيدويا، ربما ليس شيئاً أساسياً، لكنه بدا كتصدع في أذني الميكانيكية. «لدينا عطل صغير»، قلت لنفسِي.

المضي قدماً بضعة أشهر، بضع سنوات، العودة... ما هي أهمية تحديد الوقت؟ هذه ليست وقائع تاريخية، تاريخ الروح له تواريخ أخرى، حساب آخر،

على غرار أمواج البحر، ولكن دون انتظام ولا اتجاه.

لذلك سأقفز قفزة زمنية. أنا بالفعل في العام الأخير في دراسة اللغة. في العام المقبل سألتحق بالدكتوراه، حتى أنني قد أعددت ملخص أطروحة الدكتوراه التي درستها لعدة أشهر: «استعارات الحب في شعر القرن العشرين». في ذلك الحين، لست مع أيديا بعد الآن، لقد انفصلنا، إنها قصة معقدة بعض الشيء، حتى الآن ما زلت مندهشاً منها، وسأقصها عليكم لاحقاً.

قبل أن أبدأ في هذا المقطع، سأشير أولاً إلى حدث تاريخي هز حياتي مثل الزلزال: وفاة خوسيه أريجي، وهو مواطن من إحدى قرى المنطقة، لديه عائلته المعروفة في الحي. شارك خوسيه في تجمعات الجبهة خلال الحركة المناهضة لفرانكو، على الرغم من أنه لم يكن من أولئك الذين تميزوا بتدخلاته، لأنه ظل رابضاً مع آخرين من مؤيدي اليسار. أتذكره جنباً إلى جنب مع خوسيه ماري، صامتاً، يراقب كل شيء.

انتشر الخبر في جميع أنحاء الحي: تم التجمع في الجبهة، مر وقت طويل منذ أن تم استخدام هذا المكان للأنشطة الثورية، بشكل أو بآخر منذ بداية الانتقال السياسي، لكن هذه المرة تصرف الناس متأثرين بنوع من التفكير اللحظي، متذكرين أوقاتاً أخرى، راغبين في توديع خوسيه. جاء الناس من جميع أنحاء المنطقة، كانت الساحة مزدحمة وكان الناس يتزاحمون في الساحة عند مدخل الجبهة. رأيت وجوهاً لم أرها منذ سنوات، بعضها أكثر تجعداً، تمتلئ رؤوسهم بشعر أبيض: حضر أيضاً رجل منظمة اليسار الشيوعي الذي يشغل الآن منصباً رفيعاً في حكومة الباسك وكان ناشطاً في الحزب الوطني الباسكي. شهد التجمع تواجد أعضاء المنظمة العمالية الثورية عن بكرة أبيهم، معظمهم الآن من المسلحين أو المتعاطفين مع حزب هاري باتاسونا. تواجد أيضاً أشخاص نشطون في أحزاب يسارية متطرفة أخرى، متقاعدون الآن أو نشطون في تشكيلات أخرى، وأشخاص من حزب اليسار الباسكي، ومن حزب المؤتمر الوطني، وأحزاب ومنظمات أخرى نددت بشدة تعذيب الشرطة. والعديد من الجيران. لقد ميزت المرموق بفضل مكانته، الذي في أوقات أخرى اتهمه الجميع تقريباً بتأييده لخضوع الباسك تحت هيمنة الدولة الإسبانية. رأيت أديلا وألبرتو ممسكين بعضهما بعضاً من الذراع، رأيت معلمتي مستاءة للغاية، بجوارها كلاً من خوسيه ماري وأنا يقفان.

من بين الحشد تعرفت على رجل كان في وقت الحركة ذا شعر كثيف وطويل اللحية بشكل مبالغ فيه، متحدثاً جيداً، قال عنه مؤيدو انفصال الباسك إنه أحد أعضاء الحركة السادسة، ثم أحد مقاتلي الجانب العسكري لحركة إيتا، الذي تم نشر اعتقاله وهروبه لاحقاً في الصحف: ضرب الشرطي الذي أحضر له الطعام، وارتدى ملايسه وغادر مركز الشرطة وهو يلوح عسكرياً للشخص الذي يقف حارساً عند الباب ويتنكر بإيماءة اللحي، ثم، بنفس الطريقة، ذهب إلى معهد بينيافلوريدا، حيث كان يدرس كو، عبر المدخل الخلفي من ذلك المبنى، الذي كان يقع أمام مقر الحكومة المدنية مباشرة، ودع زملائه الطلاب، لأنه سيغادر إلى المنفى. ذلك الرجل المشعر مع كرتين وبعض الزيت في رأسه، الآن ذو شعر مهذب جيداً وحلق لحيته، حيث إنه مسؤول رفيع المستوى في الحزب الاشتراكي العمالي الإسباني، ولكن هكذا قدم نفسه.

دام الاجتماع مدة قصيرة وبسيطة. تمت قراءة بيان، وأحرق بعض الأشخاص المقنعين العلم الإسباني، وصرخ العديد من الحاضرين تحيا إيتا، وغنوا يوسكو جوداريك<sup>(24)</sup>، وغادرنا في تظاهرة. دعاها عضو مجلس حزب هاري باتاسونا، وهو مناضل سابق في حزب اليسار الباسكي، وشريك أنا في ترشيح مستقل، دعاها إلى جانب خوسيه ماري لحمل اللافتة في الصف الأمامي، كما دعا الرجل القوي لمنظمة اليسار الشيوعي والعضو السابق في الرابطة الشيوعية الثورية من بين آخرين. غادرت التظاهرة، وغزت طريق المنحدر من جانب إلى آخر، باتجاه الحي أدناه. عبر الشخص ذو المكانة المرموقة عن عدم رضاه، لم يستطع التسامح مع أن بعضاً ممن اعتبرهم خونة يحملون اللافتة.

– متأسبين لعناء!

أجبره رفاقه أنفسهم على الصمت.

من الصعب تفسير ردود الفعل البشرية. إنها لا تعتمد مباشرة على الأيديولوجية المعترف بها أو حتى على التعليم الذي تلقاه كل شخص، وإن كان تأثير هذه العوامل قوياً بلا شك، ولكن ليس حاسماً.

أصبح كلُّ من عضو مجلس حزب هاري باتاسونا والرجل مرموق المكانة الآن يقاتلان في نفس الجبهة وأصبحا أصدقاء. في وقت من الأوقات، من ناحية أخرى، في وقت مجالس الجبهة، لم يكن من الممكن رؤيتهما، لأن عضو

المجلس كان في ذلك الوقت مجرد «قومي إسباني» لـ منظمة العمال الثورية، أحد أولئك الذين دائماً ما واجههم الشخص المرموق في المجالس.

ذات يوم، في وقت تجمع البديلة، في حانة في الحي أدناه، كان المرموق والذي تم إطلاق عليه لقب عضو مجلس هاري باتاسونا، المناضل في منظمة العمال الثورية، في ذلك الوقت، تجادلاً بشدة. خوسيه ماري قابع في الحانة، يتناول مشروباً مع أصدقائه فشهد كل شيء. أخبرني كيف جاء رجل عجوز من مقاتلي الحزب القومي الباسكي، عجوز، عندما سمع المرموق يدافع عن الكفاح المسلح.

– أخبرني: كم عدد المدافع الرشاشة التي تمتلك؟

– ما دخلك أنت! – أجاب المرموق.

– كم عدد البنادق؟ كم عدد البنادق والقنابل وقاذفات القنابل...؟

– ما اللعنة...؟

– أجب بالتقريب: ألف؟ خمسة آلاف؟ والدبابات، هل لديك؟

– ليس لدي... – قاطعه المرموق.

– «سأخبرك بشيء يا فتى»، صرخ عليه الرجل العجوز: «في الحرب امتلكننا الآلاف من الأسلحة، وكانت قليلة، وكنت كتائب، عدداً قليل من السفن والدبابات وحتى الطائرات... شيء تافه لشن حرب بدون قوى دعمتنا، وقبل كل شيء كان لدينا دعم غالبية الناس، وهو أمر نسيتته أنت، ملايين من الناس مسلحين، منظمين. هزمنا أيها الصبي. وعانينا في السجن، ورأينا كيف أطلقوا النار على رفاقنا، وأنقذنا البعض منا بمعجزة، رأيت كيف أطلقوا النار على والدي، وأجبروني على مشاهدته، حافي القدمين ومكبل اليدين... هل تريد مني أن أقول لك أكثر؟».

– أعرف كل ذلك بالفعل.

– قال عضو المجلس: «حسناً، إنك تتصرف وكأنك لا تعرف».

– ليس لديك حتى الحق في الكلام، أيها الخنزير الناطق بالإسبانية! بسببك نحن في هذا!

– «نعم»، أجاب عضو المجلس. على ما أتذكر، فقد خدم والدك في جانب فرانكو، وليس فقط خلال الحرب.

ضم الشخص المرموق وجهه، على وشك أن ينفجر في غضب. ثم لكم البار وهرع خارجاً. مرر عضو المجلس ذراعه حول كتف العجوز.

– لقد كنت رائعاً يا (باتكسي)! الجولة القادمة من الشراب على حسابي.

– لم يجبر والده مثل الشباب الآخرين على الانضمام إلى جيش فرانكو، كان متطوعاً، لأنه كان بالفعل في سن معينة. عندما تم إطلاق النار على والدي، كان هو أحد أولئك الذين احتجزوني حتى لا أدير وجهي. الآن هو عجوز بلا فائدة، وانظر أين يحارب ابنه، مفارقات الحياة.

في تلك اللحظة فتح باب الحانة وظهر وجه أخت عضو المجلس.

– أمي في انتظارنا لتناول العشاء.

ودعه عضو المجلس، وغادر الأخوان معاً. بعد فترة، سمعت صيحات وإهانات وسباً. خرج كل من البار في التو. كان المرموق وثلاثة آخرون غير منضمين لأي حركة، ولكنهم دائماً على استعداد للدخول في معارك، يضربون عضو المجلس وأخته بوحشية، اللذان انهاراً في تلك اللحظة مستلقين على الأرض بلا حراك. تم ضرب عضو المجلس على أساس الخير. بدأ خوسيه ماري مثل الثور وصدم أحدهم، وألقى به من فوق الحاجز في مجرى يمتد بجانب البار، على بعد مترين تحت مستوى الشارع. ثم تولى أصدقاء خوسيه ماري أمر الآخرين، لكنه انتزع الرجل المرموق منهم.

– «الآن اضربني، أيها الجبان البائس» – صرخ في وجهه.

دخلا في معركة طار فيها المرموق أيضاً فوق الحاجز في النهر. كان عضو المجلس في حالة ذهول وأخته فاقدة للوعي. تم نقلهم مباشرة إلى المستشفى.

يقول سالوستيو أن كل شخص هو من يصنع مصيره، وهو مبدأ يمكن استخلاصه تماماً من نص بوذي أو هندوسي. ويشير كورنيليو نيبوت إلى أن شخصية الرجل هي التي تصوغ مصيره. وفقاً لهذه البديهيات، من الواضح أن مواقفنا وردود أفعالنا تشكل ما نحن عليه وما سنكون عليه. وهناك أيضاً تصريحات من هذا القبيل من مانيلوس، «على كل واحد أن يتحمل

مصيره»، مرتبطة بالناجين الأولين، النتائج التي تشكل العدالة الكاملة، ولكن في حد ذاته يشكل الظلم العظيم للوجود، لأن قدسية فكرة أن كل واحد يجب أن يتحمل مصيره؟ تحاول المسيحية تعويض الأمر بعطايا ما بعد الموت، والعدمية، من جهة أخرى، تطالبنا بتحمل كل شيء من أجل العدم. تلك تعميمات، عندما يتم تجسيدها في الحياة اليومية وفي ماضي كل شخص، تكتسب أصباغاً وأنماطاً لا تنفصم بالنسبة لنا، حتى من مواقف نهائية مثل العدمية. ومن هنا تولد الحاجة إلى الإعجاب بالأشخاص المقربين غير الكاملين، كما هو الحال عند الإعجاب بشروق الشمس، وغروبها، والمناظر الطبيعية من أعلى الجبل، والتقلبات البسيطة لتجعيد تيار يتلوى للأعلى نحو المجهول.

أكتب كل هذا لأعكس نفسي، لأحاول أن أفهم زمني، لأنني ابن ذلك الزمن المتميز بالدم والنار، وأصبوا إلى إيجاد بعض التفسيرات لكل هذا، لأن عدم فهمي لما حدث وما يحدث يحرقني من الداخل، بنفس الطريقة التي أحرقني بها عدم فهمي لما كان يحدث مع أدبلا، بطلتي، مثلي الأعلى في المراهقة، معبودتي، تحولت إلى شخصية فرجينيا وولف، ثم تحولت إلى أليخاندرنا بيزارنيك في المرحلة الأخيرة من حياتها، في ألفونسينا ستورني، في سيلفيا بلاث. ما الذي حدث لمعلمتي؟ ماذا؟ وماذا حدث لإيدويا؟ ما حدث لعلاقتي التحررية والحيوية، والتي أعطتني القوة لأكل العالم؟ ماذا حدث؟ كيف يمكن للناس أن تتبدل هكذا، بين عشية وضحاها؟ علام تنطوي بحق الجحيم ظلال الروح البشرية، والتي تأخذنا دائماً على حين غرة؟ ماذا يحدث للناس؟ ماذا حدث بحق الجحيم لأولئك منا الذين تجمعوا في تلة، مليئة بالحماس؟

## 20

يتحدث كلاوديو ماغريس عن إيسن في حلقة كلاريس ويشير إلى أن هذا الكاتب المسرحي يلتقط توعك المجتمع بوضوح لا يرحم وشك عميق. الشك هو أحد محركات التفكير النقدي، إنه يدفعنا إلى الشك، والاكتشاف، وعدم الاكتفاء برؤية معينة، وإعادة اختراع التفسيرات، والنظر إلى الأشياء من زاوية أخرى. هناك أيضاً، من ناحية أخرى، الشك الغبي للشخص الذي يتمسك بتفسير واحد و يرفض كل تغيير في المنظور، والشك في الشخص الذي يتبنى موقفاً ثابتاً ويتحول على الفور إلى مشبوه وخبث لجميع أولئك الذين لا يتوافقون معه، شكوك الشخص الذي يتمسك بالحقيقة من وجهة نظره فيما يخص أحد أنصاف قطر الدائرة و يعلن أن جميع أنصاف الأقطار

الأخرى أبعد عن المركز، شكوك الشخص الذي يفكر دائماً بشكل خاطئ، لأن التفكير الخاطئ هو دائماً على حق، نظراً لأنه في كل عملية معقدة، هناك شيء يحدث بطريقة أو بأخرى بشكل خاطئ أو لا مركزي حتماً. يشير ماجريس أيضاً إلى المعضلة بين الفوضى والقمع، لا تزال دون حل، والتي لا تزال تشل وجودنا، ويتحدث عن محاولات مان وفرويد التقريب بين هذا التباين، يبدو لي أن الإخفاقات مدوية، لأن التناقضات يتم التوفيق بينها من خلال إيقاف الوقت عبر تركيبات عقلية بحتة والتي عندما يتم تشغيلها تصبح غير متوازنة وتنتهار. أعود إلى الوقت الذي فيه امتلكننا هاتفاً في المنزل. كنت لا أزال مرتبطاً بإيدويا. كانت والدتي لا تزال تشارك في أنشطة الكاهن. أصبحت صداقتي مع ألبرتو أقرب، بين الحين والآخر كان يأتي إلى المنزل لتناول العشاء وكان مهتماً بتقديمي في العمل والمدرسة، لقد أعجب بقدرتي على الجمع بين كلا الجانبين والانضباط، على الرغم من الساعات التي اعتدت تمضيها في ورشة العمل الميكانيكية.

– اعترفت، «أنا مدين في هذا الجزء لأمي، إنها تنظم كل شيء من أجلي، لا أشغل بالي حتى بما أكسبه».

هذه هي الحقيقة المجردة، لم أدرك حتى كم من المال امتلكت في صندوق الادخار. لقد استخدمت صندوق الأحذية، حيث احتفظت بالإضافات، ولم أقلق بشأن حساب مقدار ما قد تراكم، أدركت فقط أن هناك صندوقين للأحذية في الخزانة مليئين بالعملات التي لم أملك الوقت لإنفاقها.

بعد ظهر أحد أيام السبت عندما التزمنا أنا وإيدويا المنزل للدراسة، طرقت والدتي باب غرفتي، بعد عودتها من قبو الكاهن برفقة ألبرتو. فتحت الباب ووجدتهما في مواجهتي وجهاً لوجه.

– مرحبا، أيها الزوجان! – لوح ألبرتو من الردهة.

قالت والدتي: «سيتناول ألبرتو العشاء معنا. أولاً، سنراجع حسابات المركز. هل ترغبان في تناول العشاء معنا، أم لديكما خطط أخرى؟»

نظرت إلى إيدويا وأومات برأسها.

ثرثر ألبرتو كثيراً خلال العشاء. في بعض الأحيان، وددت لو قمت بإزعاجه فيما يخص قضية الدين، لكنني خشيت إغصاب والدتي، لأنها لا تحبني وأنا أشكك في تعاليم الكنيسة، ما زالت تحافظ على إيمانها ومعتقداتها. لذلك عضضت على لساني وتابعت محادثتي مع ألبرتو. من ناحية أخرى، كان هناك

خطر أن تلقي إيدوبا، من لحظة إلى أخرى، بكلمات تدور حول الواقي الذكري والعلاقة الجنسية بدون الزواج، بنبرتها المعتادة غير المقيدة، لكنها لم تتطرق إلى ذلك، ربما لأنها على دراية بأن ألبرتو يختلف مع الموقف الرسمي للكنيسة بشأن هذه القضايا على وجه التحديد، وحتى اعتقدت أنه يجب على الكهنة أن يتمكنوا من الزواج وتعتقد بعدم وجود سبب يمنع النساء من ممارسة الكهنوت.

أخذت المحادثة اتجاهات أخرى، تحدثنا عن الدور المجتمعي الهائل الذي يدين به العالم الأول نحو العالم الثالث. أشار ألبرتو إلى أن التعليم الرئيسي للإنجيل هو تقديم خدمة نكران الذات للمحتاجين.

جحظت عينا إيدوبا مثل الأطباق، كانت مهتمة جداً بمعرفة المزيد من التفاصيل حول المهام الإنسانية التي قامت بها الكنيسة في أمريكا الجنوبية وإفريقيا وآسيا. عاش ألبرتو في الهند، بالتعاون مع مؤسسة الأم تيريزا دي كالكوتا، التي لم يكن اسمها في ذلك الوقت معروفاً كما سيصبح بعد سنوات. تحدث ألبرتو بحماس عن العطاء غير المشروط لتلك المرأة، عن المستشفى التي أنشأته للمحتاجين الذين كانوا يموتون في الشوارع، في كل ركن وزاوية، مصابين بأمراض عديدة. استمعت إليه إيدوبا باهتمام بدا لي مفرطاً.

– وماذا كنت تفعل هناك، ألبرتو؟ – سألته إيدوبا.

– كنت أمتهن التمريض. قبل أن أصبح كاهناً، درست التمريض.

فغرت إيدوبا فاهها، على وشك أن تخرج منها «أوه!»، دهشتها وإعجابها كانا ينموا بوضوح. بدأت أشعر بعدم الارتياح قبل هذا الإفراط. من المحتمل أنني انتابني شعور بالغيرة قليلاً. استمر ألبرتو في سرد العديد من الحكايات، بينما استمعت إليه إيدوبا ونظرت إليه نظرة عاشق، مفتونة بأميرها. في الهند، وفقاً لألبرتو، لم يكن كل شيء بؤساً وأمراضاً:

– رأيت الكثير من الألم والبؤس، وشاركتهم معهم، لكنني عشت أيضاً أسعد لحظات حياتي هناك. لم أشهد أبداً الكثير من السلام كما شهدت في ذلك الوقت. بطبق من الأرز وابتسامة المرضي الممتنة، وغروب الشمس الخلاب، شعرت بسعادة جمّة. بدا لي جلياً أنني لست بحاجة إلى أي شيء آخر لأشعر بالسعادة ولكي يكون لحياتي معنى كامل.

واصلت إيدويا الاستفسار عن التفاصيل والمزيد من التفاصيل باهتمام أثار قلقي، لدرجة أنني اعتقدت أنها، بقدر ما كانت متهورة، ستذهب إلى كالكوتا مع الأم تيريزا أو تدخل في علاقة مع ألبرتو.

– اسمع يا خوانين، لما لا نذهب كلانا إلى كالكوتا هذا الصيف، لتقديم يد المساعدة كمتطوعين؟ إذا ما اتفقنا على كل شيء بالطبع.

كنت متحجراً، لم أكن أعرف بماذا أجيب. صعب عليّ الأمر بسبب كل ما تقدم من الإعداد، لكنني لم أجد طريقة لأبرر بها رفضي، أردت اختلاق عذر: ماذا لو كانت الوظيفة...؟

– أوضح ألبرتو: «عليك فقط دفع ثمن الرحلة». طالبة تمرّض ستكون بالنسبة إليهم كسقوط المطر في شهر مايو.

– وأنا، ماذا أفعل هناك؟ – سألت.

– يا للعجب! هناك الكثير للقيام به... – أجاب ألبرتو. – يمكنك العمل كميكانيكي، كمساعد صيانة في المستشفى، في البناء، في المرافق الزراعية...، هناك الكثير للعمل عليه.

– اللعنة، سببت في داخلي. هل أصابكم مس من الجن أم ماذا؟ لم يكن لدي أدنى نية لتنفيذ تلك الخطة المجنونة، نويت أن أبقى على إيدويا معي بأي شكل من الأشكال، إذا ما ذهبت إلى الهند، وداعاً لما بيننا، في تلك اللحظة، كانت علاقتنا معلقة في الميزان. ليس لدي أدنى استعداد لفقدان إيدويا بسبب ترهات ألبرتو التي يغرسها فيها، يا له من ساذج. «إنهم مجانيين».

– «سأفكر في الأمر» وعدت، لكسب القليل من الوقت، لأنه كان من الواضح لي أنني لن أذهب وأنني سأفعل كل ما هو ممكن حتى لا تفعل إيدويا أيضاً. «أود ترتيب ذلك مع صاحب ورشة العمل، وهناك أيضاً والدتي...».

– قالت لي والدتي: «لا تقلق بشأنني. سأكتشف ذلك».

«يا الله! حتى والدتي لا تنوي مساعدتي؟». وضعها ألبرتو كخاتم في إصبعه، كل ما قاله الكاهن بدا جيداً بالنسبة إليها، وهذا ما يؤلمني من الداخل.

«سنذهب، سنذهب»، لخصت إيدويا الأمر بحماس تسبب لي في رجفة. وبعد ذلك، عندما نتهي دراستنا، سنقضي فترة طويلة هناك، عاماً، أو أكثر... ما رأيك، خوان؟

«نعم، بالفعل، طوال حياتي» قلت في قرارة نفسي، بينما كنت أهلوس بسماع مثل هذه الترهات. يتوجب عليّ تصميم استراتيجية لإجهاض مثل هذا الهراء. لا تعجبني مثل تلك البعثات، ليس لأنني لا أرغب في مساعدة المحتاجين وكل ذلك، ولكن بسبب كل «الزوائد» الدينية التي تتلخخ بها مثل تلك البيئات.

على أية حال، لن أجبر على المرور بمثل تلك النشوة الرائعة لأن العلاقة بيني وبين إيدويا لم تستمر حتى الصيف. ذهبت إلى كلكوتا بنفسها، لم تفقد حماسها، على العكس تماماً، زادت حرارة حماسها. أمضت هناك ثلاثة أشهر من الإجازة، وعندما لم يتبق لها سوى دورة واحدة لإنهاء الدراسة. ثم تعود لتبقى هناك.

لم أكن أتخيل قط أن إيدويا التي عرفتها، المنفتحة، المتطورة، التي تستمتع بالجنس في تحرر... قد تشترك في شيء من هذا القبيل. لم أفهم شيئاً، الأمر كما لو أن الشخص الذي شاركت معه عدة سنوات من حياتي قد تحول فجأة إلى شخص مختلف تماماً، كما لو أن جرثومة كامنة قد تطورت بداخلها حتى أنها لم تشك في أن شيئاً مكنوناً بداخلها. الحقيقة هي أن الجميع، في أعماقهم، يحملون صندوقاً من المفاجآت في زاوية خفية من شخصيتهم، ثم يفتح، فيتحول إلى صندوق باندورا. إيدويا كلها عبارة عن صندوق من المفاجآت أذهلني منذ اللحظة الأولى بجوانبها غير المتوقعة، مثل الساحر الذي يخرج من قبعته أبعد الأشياء عن توقعنا. بمرور الوقت نعتقد أننا نعرف الناس بعمق، وأن ردود أفعالهم أصبحت مكشوفة لنا، حتى أنه في يوم ما يحفز عاملٌ مختلفٌ جانباً مخفياً من جوانب الشخصية، ليس مخفياً بتعمد أو عن طريق عملية مواراة ملتوية ومحسوبة، ولكن لأنهم هم أنفسهم لم يعرفوا ذلك. حتى أن الواحد يتفاجأ من نفسه، عندما يتلقى التحفيز الذي ينبض بداخله سلسلة من الاهتزازات الموسيقية التي حتى تلك اللحظة لم تهتز فيه. تعمل القدرة على تنبؤ تحركات الأشخاص ضمن حدود ضيقة جداً، حتى أن المرء يطيل رقبتة، لينظر إلى ما وراء الجدار الاستنادي، فينتهي به الحال بالقفز فوقه. كذلك الأمر مع والدي، مع أدبلا، مع خوسيه ماري... ومع إيدويا نفسها، ولكنها ارتفعت إلى السلطة أ.

ما زلت أشعر بالفخر والسعادة لأنني أحببتها، بطريقة ما، ما زلت أحبها. لديها دائماً الشجاعة لفعل ما يمليه قلبها، على الرغم من أن بعض قراراتها قد أمتني، وجعلتني أعاني، وتركتني وحيداً خاوياً. أتخيلها سعيدة، أينما حلت، مع طبق الأرز الخاص بها، وابتسامة مرضاها وغروب الشمس الذي يغطي منطقة الفقر بالذهب.

بعد أيام قليلة من العشاء مع ألبرتو، كنت أدرس وحدي في غرفتي، عندما طرقت والدتي الباب.

– خوانيتو، أجب على الهاتف. إنه ألبرتو.

ألبرتو؟ ما الذي يريد ذلك الكاهن مني؟ ألم يقيم برج بيت الدجاج بما فيه الكفاية؟ لنرى ما إذا كان يخطط كي أصبح الإكليريكي الآن. غادرت الغرفة بهدوء، فلينتظر، ذهبت إلى الخزانة التي وضعنا عليها الهاتف.

– «لا تبقيه ينتظر»، استعجلتني والدتي. نظرت إليها بغضب شديد.

أنا عصبي جداً، لقد جعلني متوتراً جداً بسبب موقفه مع إيدويا.

– «لا تكن هكذا»، همست والدتي لي، غاضبة من موقفي.

– نعم، ألبرتو...

– خوانيتو، من فضلك تعال إلى منزل أديلا. تريد رؤيتك.

لقد صدمت. ركضت خارج الباب، مرتدياً حذاء منزلي، دون إعطاء والدتي الوقت لتسألني إلى أين أذهب. صعدت سلالم منزل المعلمين اثنين في اثنين، مستنداً إلى جانب السلم للتعويض عن ساقى العرجاء، لأنني لم أرتد حذائي ذا الكعب المزدوج.

فتح ألبرتو الباب لي.

– تعال – قادمي إلى غرفة أديلا.

وجدتها مستلقية، مع وجه مليء بالكدمات وعين منتفخة بشكل رهيب. حاولت أن تبسم، تتنفس بصعوبة شديدة، كما لو يؤلمها التبسم، كما لو أحد أضلاعها قد كسر.

– ماذا فعلوا بك؟ بحق الجحيم!

همس لي ألبرتو بأنها تعرضت للضرب المبرح، وأنها قد اغتصبت. شعرت وكأنني أصبت بطعنة في منتصف الصدر.

– سأقتله – لقد خرج الكلام من داخلي، لأنني كنت أعرف على وجه اليقين من أي مخلب جاءت الآفة.

– «خوانيتو، اقترب»، همست أديلا بضعف.

اقتربت حتى وضعت أذناً قريبة من فمها.

– هل علمتك أي شيء يستحق العناء؟

– كل شيء، أديلا، كل شيء.

– إذن، كيف لك أن تتفوه بمثل هذا؟

لم أقو على الإجابة، التزمت الصمت، داعبت شعرها، متحسناً تجاعيد شعرها الذي نزل على جانبي جبهتها. بعد ذلك، خرجت إلى الردهة مع ألبرتو، أخبرته بأنه يجب نقلها إلى المستشفى. «إنها لا تريد ذلك، خوانيتو، إنها لا تريد ذلك»، إذا أخذناها إلى المستشفى، فستكون هناك دعوى قانونية، سيفتضح الأمر، سيخطر على الشرطة، «إنها لا تريد أن تمر بذلك كله». أجبتهم أنهم سيفتقدونها في العمل، سوف ينتهي بهم إلى معرفة كل شيء. لكنهم خططوا لذلك بالفعل: لم يتبق سوى يومين حتى عطلة عيد الميلاد، سيتحدث ألبرتو إلى المعلمة الأخرى، وستتولى هي الفصل.

بالنسبة لشخص مثل أديلا، ثوري، مقاتل، لكان أكثر واقعية فضح ما حدث، الإبلاغ عنه، ترويجه مع الشجب العام ضد اضطهاد المرأة، وهو موقف في ذلك الوقت احتل مكانة متزايدة في المجتمع. ولكن بدا أنه هناك متغيرات أخرى جعلت أديلا تريد أن تتحمل معاناتها في صمت وعزلة.

– أصررت، لأنني رأيتها بشكل سيئ للغاية. إنها بحاجة إلى الشفاء: «على الطبيب أن يراها، ألبرتو».

– لهذا اتصلت بك. أريدك أن تحضر بيتركيو.

بدت فكرة جيدة. ستكون أديلا في أيد أمينة، أدركت ذلك عن طريق التجربة.

طلبت مني أدبلاً الاقتراب مرة أخرى.

– «لاحقاً، أريد أن أطلب منك معروفاً آخر» – أسرت لي.

– يمكنك أن تطلبي أي شيء تريدين، أدبلاً، أيا كان ما تريديه.

– لاحقاً، خوانيتو.

خرجت باحثاً عن البيتريكو بالسيارة. أخبرت أمي أنني يجب أن أقوم بشيء  
لألبرتو.

– هل هناك شيء خطير؟

– سأخبرك عندما أعود. أما الآن فلا داعي للقلق، كل شيء يسري على ما  
يرام.

لم يكن البيتريكو سعيداً جداً من اضطراره إلى علاجها سراً، توجب عليه  
توخي الحذر كل يوم حتى لا يتعرض لمشكلة مع قانون الطب الرسمي. لكنه  
لم يرفض، منذ أن شفى ساقى وأنا طفل، أصبح صديقاً لوالدي، وقد كان  
لذلك تأثير على قبوله. دفعت له قدراً كبيراً من المال حتى يتوخي الحذر  
الشديد.

بمجرد وصوله إلى شقة المعلمة، بدأ عمله في جسد أدبلاً، جعلها تن من  
شدة الألم، لكنها ضغطت على شفيتها قامعة صراخها.

– عشرة أيام في السرير – قال البيتريكو. ثم، تعود إلى الحياة الطبيعية.

عليها أخذ جرة من هذه الزجاجات ثم تدهن قليلاً بهذا المرهم، أخرجه من جيبه  
وأعطاه إلى ألبرتو.

– تكرر هذا أربع مرات في اليوم. في غضون عشرة أيام، لن يتبقى لديها أي  
علامة.

بدا لي وقتاً قصيراً جداً فيه تختفي الكدمات، لكن بيتريكو على دراية كاملة  
بما يفعل، لقد تحققت من فعالية المراهم والتدليك بنفسه.

أعدت البيتريكو إلى منزله. ثم عدت على الفور إلى منزل أدبلاً ودخلت  
بالمفتاح الذي أعطاني إياه ألبرتو. كان الرجل المسكين، المنهك، يشخر

على الأريكة في غرفة المعيشة. ذهبت على رؤوس أصابعي إلى غرفة أديلا، المظلمة، استمعت إلى تنفسها، تمهلت قليلاً. اعتقدت أنها كانت نائمة ثم شرعت في العودة أدراجي.

– همست: «خوانيتو».

اقتربت في الظلام، تحسستها بلطف وربت على شعرها.

– «أريدك أن تسدي لي معروفاً، خوانيتو»، همست مرة أخرى.

– أيا ما تريدين، أديلا. أسألي ما تودين.

– افتح طاولة السرير وأخرج صندوق المجوهرات.

التفتُ مستنيراً بالمصباح نحو السرير وفعلت كما قيل لي.

– «افتحه»، تابعت. «هل ترى سوار الذهب المطعم بالأحجار الكريمة؟».

– أوه، نعم! إنه رائع.

– أريدك أن أبيعك إياه... بمئة ألف.

فهمت على الفور قصدها.

– سأعطيك مئة ألف، لكن احتفظي بسوارك. لن أخذه تحت أي سبب.

– هل تتذكر لماذا لم أقبل أموالك المرة الماضية؟

– أتذكر تماماً.

– إذن، اشترينه.

– سأشتريكه الآن.

قررت الذهاب إلى المنزل والعودة بالمال. أمسكتني أديلا من ذراعي.

– سأطلب منك خدمة أخيرة، خوانيتو، أنت أفضل صديق لي.

– قولني، أديلا.

– ضع مئة ألف بيزيتا في مظروف وألقها من تحت باب منزل مارو. سوف يفهم.

التفتُّ مثل نمر جريح. كان عليّ أن أبذل جهداً كبيراً حتى لا أرفع صوتي.

– إلى ذلك الخنزير، ليس فلساً واحداً! سيدفع ثمن هذا، نعم، سترين كيف يدفع الثمن.

– خوانيتو، يتعرض لضغوط، لا يدرك ما يفعل.

– اللعنة! – ظللت أهمس، بغضب أحاول احتواءه – . ضغطوا عليه. يا له من موقف يحسد عليه هذا المسكين. انظري، يا أديلا، أنا لن أعطيه شيئاً، الله! بعد ما فعله بك. لأنه كان هو، أليس كذلك؟ – أشاحت أديلا بنظرها –. عندما ينمو ما حدث لك إلى علم خوسيه ماري وعدد قليل من الآخرين، لن يتبقى من مارو حتى نعل تلك الأحذية العسكرية المثيرة للاشمئزاز التي يرتديها. وإذا كانوا لم يرغبوا في فعل ذلك، فسأفعل ذلك بنفسي.

– خوانيتو! – ضغطت على ذراعي بإحكام، ثم تركته كما لو سببت لها تشنجات، ثم بدأت تن من الألم.

– يا إلهي، (أديلا)! أنا فقط لا أستطيع...

– لقد علمتك شيئاً... لا تخذلني، لا تخذلني...

بكت. فعدت لمداعبة شعرها مرة أخرى.

– لا بأس يا (أديلا). سأفعل كما تقولين.

– «تعال يا صديقي، أعطني قبلة» – همست.

قبلتها على إحدى المناطق القليلة في وجهها التي لم تصب بكدمات، تركت المفتاح على الرف وخرجت. كان ألبرتو لا يزال نائماً على الأريكة. لم أر أحد في الشارع. وقفت مكتئباً على إحدى النواصي. قضى مارو أحياناً ساعات في نافذة منزله ليلاً، لأنه كما اعتاد الترديد بأنه يعاني من كوابيس مروعة، رآه أكثر من شخص عند الفجر نائماً على النافذة، ورأسه متدلٍ على السور، وهو يشخر.

ذهبت مباشرة إلى منزله بالمال، كنت في خطر مقابلته عند النافذة، في هذه الحالة، لن يلتزم الصمت، سيستفزني، سيخرج ليضربني. كنت بحاجة إلى شيء للدفاع عن نفسي، سكين، قضيب حديدي، تحسباً لذلك، لأن الوحش كان يزن أكثر مني بثلاثين كيلوغراماً على الأقل. أو ربما حان الوقت لاستخدام المسدس.

ذهبت إلى البيت. تسللت بينما والدتي نائمة في غرفة المعيشة، في انتظاري. ذهبت على أطراف أصابعي إلى غرفتي، وذهبت مباشرة إلى الخزانة، وأخذت المسدس والرصاصة من بطانة سترة بدلة زفاف والدي، حيث أخفيت السوار بدوري. وضعت الرصاصة في الداخل، ثم وضعت المسدس في جيبتي. ثم أخرجت أحد صناديق الأحذية حيث احتفظت بالمال، وجمعت مئة ألف بيزيت، ووضعتها في مظروف وغادرت المنزل بهدوء شديد، حتى لا أوقظ والدتي.

عندما اقتربت من منزل مارو، قمت بتصويب البندقية ووضعتها على فخذي، ووجهتها على الأرض، من ناحية أخرى كنت أحمل الظرف. اقتربت من المنزل من زاوية، ثم التصقت بالحائط، ووقفت مستمعاً. إذا ما وقف في النافذة، فسيُسمع صوت رثيته المصابتين بالربو أو يرى جمرة السيجارة التي قيل إنه يدخنها، واحداً تلو الآخر، عندما يقف عند النافذة. لم أسمع أو أَر أي شيء. اقتربت من الباب الأمامي، ثم دفعت المغلف تحته. ثم مشيت بعيداً.

– أيها الأحمق اللعين! – بدا صوت مارو خلف ظهري – . كنت أعرف أنها سترسل إليك أو إلى الكاهن الأحمق.

عدت. كان ظل مارو يخرج من السقيفة، مترنحاً. لا بد أنه عرفني من طريقة مشيبي، لأن إضاءة الساحة بالكاد لم تصل حتى إلى تجعيد المنزل. وقفت ساكناً، ممسكاً بالمسدس بإحكام على فخذي.

– ماذا تريد، أيها الأبله، عمولة؟ انتظر، سأعطيك عمولة.

– تعال، إذا ما لديك الجرأة – أجبته متحسباً الزناد بإصبعي.

ضحك مارو ضحكة ربو.

– ليس الآن، يا أبله. ذات يوم سأضاجعك، لقد كنت أرغب في ذلك لفترة طويلة. لكن اليوم أنا مجهد.

– جرب ذلك! – لقد استفزته. حاول الآن! هل أنت متعب؟ إنك مثل إناء أجوف.

ضحك مرة أخرى.

– يوماً ما سأتي إليك، يا أبله. لكن ليس اليوم. عندما أشعر برغبتني في فعل ذلك أكثر. سأتيك قريباً.

ذهب إلى منزله. دخل وأغلق الباب. بعد فترة، أطلق ضحكة أخرى خلف الباب. عدت أدراجي. في المنزل، ما زالت والدتي نائمة في غرفة المعيشة. أسدلت عليها بطانية وذهبت إلى الفراش. لم أستطع إغلاق جفن، في الصباح ذهبت إلى العمل دون أن يغمض لي جفن.

في الأيام التالية، زرت أديلا يومياً، برفقة إيدويا أو والدتي التي أخبرتها بما حدث للمعلمة، عقب أن أخذت عليهما العهد بالحفاظ على السر. زرتها لأرى كيف حالها، ولكن أيضاً لأنني كنت أمل أن تتحدث معي في أحد تلك الأيام بإسهاب عن قطع الأحجية المفقودة، والتي ظلت غير مكتملة في ذهني.

عشية عيد الميلاد، تناولت أنا وأمي وألبرتو العشاء في منزل أديلا، بقيت إيدويا مع عائلتها. أعدت والدتي العشاء، ووصل ألبرتو تماماً في نفس اللحظة التي شرعنا فيها الجلوس على الطاولة، بسبب ذهابه لزيارة المرضى في المستشفى في مثل هذا اليوم المهم. بينما تحضر والدتي العشاء، صاحبت أديلا في غرفتها، أصبحت تشعر بتحسن كبير، لكن كان لزاماً عليها عدم مغادرة سريرها، كما نصح البيتركيو. لتناول العشاء، أجلسناها على الأريكة مع بعض الوسائد، حتى تتمكن من تناول الطعام بشكل مريح مستلقية. في الوقت الذي قضيته معها وحدي بالغرفة، انتهزت الفرصة وسألتها مباشرة عما يتلغ عقلي.

– أديلا، أعتقد أنه حان الوقت لتتحدث أنا وأنت عن بعض القضايا.

– نعم، خوانيتو. لقد حان.

أمسكت بيدي محدقة في عيني.

– لقد خذلتك، خوانيتو.

– أبدأ، أديلا، أبدأ.

– لقد تربيت على يد مدمنة مخدرات، على يد شخص مجنون.

– بورك جنونك.

– كيف يمكن أن أكون قد سقطت منخفضة جداً؟ يمكنني أن أحاول تبرير نفسي، لكن كثيرين آخرين، في وضعي، لم يتصرفوا على هذا النحو.

كشفت أديلا لي على مصراعيها كل ما هو مخفي من خباياها، تضررت روحها أكثر من جسدها، وليس هناك من البيتريكيو أو مرهم للتخفيف عن حزنها. عندما دعنا والدتي إلى المائدة، اكتسبت الفطائر اللذيذة التي أعدتها مذاقاً مريباً في فمي.

يؤكد ر. جريفز في الإلهة البيضاء، من الواضح أننا لن نتمكن من التخلص من صعوباتنا حتى ينهار النظام الصناعي لسبب أو لآخر، مثلما بدأ على وشك الحدوث في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، ثم تعيد الطبيعة الهيمنة بنفسها عن طريق نمو الأعشاب والأشجار بين الأنقاض. لقد عانيت من شعور مماثل بعد حضور كارثة الثورة البروليتارية التي على أغلب الظن كانت قريبة جداً من السنوات الأخيرة لفرانكو، كان هناك حديث عن وضع ما قبل الثورة، صقلت الأحزاب اليسارية المتطرفة استراتيجياتها حتى تنتقل السلطة إلى أيدي الطبقة العاملة. ومع ذلك، في غضون بضع سنوات، كان هناك حنق عام، اندفعنا جميعاً نحو مجتمع ما بعد الصناعة، بعد إضراب وحشي، وإعادة هيكلة وحشية. ظهرت الحاجة إلى العودة إلى الطبيعة على الساحة بقوة غير عادية، لكن ثقل الصراع السياسي الذي لم يتم حله أبقى الآلاف من الشباب مقيدين بالسلاسل في صراع أعمى وعنيف. من بين أولئك الذين ظلوا منخرطين في النضال الاجتماعي، والتكيف مع الواقع الجديد كل بطريقته الخاصة، لوحظ تغيير في المزاج العام، على شكل مشاريع أغانٍ مهمتها الإشارة إلى شيء غير ملموس، ينتمي إلى تضاريس الغامض، خارج الواقع الظاهري القاسي. صحيح أنه في الحركات اليسارية كان هناك دائماً هذا الدافع الشعري، بين الملحمة والأغنية، لكنه في الوقت المحدد حرر نفسه من الالتزام الاجتماعي الصارم وأصبح أكثر غنائية واستقلالية. ومن الأمثلة على هذه الولادة الغنائية المغني إيمانول، الذي أدى نهجه في الشعر الأكثر حميمية إلى تعميق القوة العاطفية لأسلوبه، على مر السنين، وبسبب موقعه الأيديولوجي، حاصرته العديد من القطاعات المؤيدة لاستقلال الباسك.

غنى إيمانول عدة مرات في الحي: المرة الأولى، في الساحة، في تجمع غير قانوني في زمن فرانكو، عندما اعتاد أن يطلق على نفسه لقب ميتكسيل إتكسيجاراي. جاء من منفاه في فرنسا بعد عبوره الحدود سراً. لم يكن هناك مكان لدبوس في الساحة، تسلقت شجرة بجانبها، في الساحة، لأرى بشكل أفضل، مع مراقبين آخرين مثلي. لم تكن هناك كراس، افترش الناس الأرض على ضوء الولاغات. تردد صدى صوت إيمانول القوي في أوراق الأشجار، من وقت لآخر، وقف الناس يلوحون بالقبضة بحماس، مع خفقان العاطفة في صدورهم. في المرة الثانية التي جاء فيها، كان قد أطلق عليه بالفعل إيمانول، غنى في الكنيسة المزدهمة بالناس مع باكو إيبانييز وأمايا زبيريا وآخرين. انضمت إلى الكورال. في تلك المناسبة سمعنا إيمانول حساساً أكثر من ذي قبل، غنى أغنية «أنا مجرد شاعر صغير يكتب باللون الأزرق في منتصف الليل». بدا لي أنه يعنيني، شخص أبله كان يفرز ذكرياته ويحاول منحها القليل من اللون الأزرق.

يتحدث الناس عن الذاكرة التاريخية بعبارات رنانة. ما فائدة تذكر الماضي بينما لسنا قادرين على الاحتفاظ بالذاكرة العالمية للبشر، ورحلة حياتهم، ونثني عليهم أو ندينهم وفقاً لما يحدده معيار الوقت الحالي.

لقد استمعت إلى إيمانول وباكو إيبانييز معاً مرة أخرى في إيرون، في قاعة أمايا. ذهبت مع إيدوبا، كانت من محبي باكو إيبانييز، احتفظت بجميع تسجيلاته. أقامت والدتها صداقة مع باكو في باريس ذات مرة، وعندما انتقلت للعيش في إقليم الباسك، استضافت باكو أكثر من مرة في منزلها، عندما جاء لتقديم جولات موسيقية.

بعد حفل أمايا، لم نشعر بالرغبة في العودة إلى المنزل بعد وذهبنا إلى فوينتي رابيا، للتسكع على طول كورنيش بوترون وعلى طول الكورنيش الذي كان مظلماً لأن الأضواء التي تميزه حالياً لم يتم تثبيتها بعد. في نهاية الكورنيش، جلسنا نشاهد انعكاسات الأمواج المتمايلة، ومنازل هندايا، وخليج تكسينجودي، وأضواء قوارب الصيد التي خرجت للصيد. في ذلك اليوم لاحظت بأن إيدوبا أكثر هدوء من المعتاد، لديها نظرة تائهة قليلاً، كما لو تفكر على شيء ما. اعتقدت أن السبب هو فترة الحيض، أو ربما كان الحفل قد أثر عليها أكثر من المتوقع، وانتابها عاطفة بشكل خاص، مع كل تلك الاستعراضات الحركية، اعترف باكو بتجاربه الحميمة، وإيمانول مليء بالشعور والحساسية...

– خوانين، يجب أن أخبرك بشيء.

لم تكن الجملة لتزعجني لولا النعمة التي قيلت بها، نعمة جديدة، مرتجفة قليلاً، متشككة، مختلفة عن طريقها الحازمة والمندفة للتعبير عن نفسها.

– هل تتذكر صديقتي لير؟

احتضن نسيم البحر المداعب صوت إيدويا، دون أن يسمح له باختراق أذني تماماً.

– لقد مارسنا الحب معاً...

سمعت ذلك بوضوح، لكنني تركت الكلمات تتهادي في الهواء كما لو أنها موجهة إلى شخص آخر، كما لو تخص واقعاً غريباً لا يعنيني.

– ألن تعلق بشيء؟

ماذا يمكنني أن أقول لها؟ إذا ما اعترفت لي بأنها قد نامت مع رجل آخر، لأطلقت عليها وإيلاً من النيران عبر شفتي ولغادرت كما لو أصابتنني ضربة من البحر، متخلياً عنها عند أول الممشى البحري. لكنني لم أتمكن من الرد على ما قالت، كنت مخدراً، لا مذهولاً ولا غاضباً أو أي شيء، لكنني أبرد من الصخور التي يلعقها لسان البحر الجليدي.

خفضت إيدويا رأسها ودفنته بين ركبتيها، ممسكة بها بإحكام. مع موقفي، نشأت فجوة بيننا، ثم زادت اتساعاً، مما دفعنا بعيداً مثل ضفتي بيداسوا التي لعقتا البحر قبل الاستلقاء تحت الأمواج. اقترن صمت إيدويا الحزين باللحن الناعم للمصب.

لأصبحت المفاجأة أكثر «قابلية للهضم» بالنسبة لي، لفهمتها بشكل أفضل، إذا ما أظهرت إيدويا مسبقاً، دعنا نقول، رفضاً جسدياً لي، أو إذا ما اكتشفت مواقف نسوية متطرفة فيها، لأننا كنا في زمن ظهرت فيه النسوية بحيوية متفاقمة، حتى أنني سأقول، بطريقة جامحة ولم تكن من الغرابة بمكان، حالات النساء اللواتي يرسلن شركائهن لعمل أشياء غير مهمة، لقضاء الوقت مع أخرى، بطريقة أكثر انسجاماً، فهمن، ثم دافعن عن أنفسهن بضراوة تجاه ذلك المجتمع الرجولي، وهكذا انتشر سحاق التمرد النسوي الذي هدد بالاستغناء عن الرجال تماماً. لكن لم يكن هذا هو الحال مع إيدويا.

على أي حال، لم تستمر علاقتها مع لير لأكثر من بضعة أشهر، لكنها كانت كافية لخلق فجوة بيني وبينها. في الصيف، غادرت إلى الهند، كما هو مخطط

لها، وفي العام التالي، بعد الانتهاء من دراستها، عادت إلى هناك إلى الأبد، بالتعاون مع الأم تيريزا دي كلكتوا. أتخيلها كمبشرة أعطت نفسها، بلا هوادة، نعمة سقطت من السماء للمرضى، واحة من العسل في وسط صحراء البؤس.

على الرغم من مدى صعوبة الانفصال عن إيدويا بالنسبة لي والأيام العديدة من الكرب والإحباط التي عانيت منها، على الرغم من الألم والحزن الذي ألمَّ بي، لم أعتبر نفسي قد تعرضت للإجحاف من قبلها أو أخطأت في حقها بأي وقت من الأوقات. لقد اتباني شعور غريب بالسلام النفسي. أعتقد أنني ما زلت أحبها في ذاكرتي، دون استياء أكال، نظيفاً، كما أحبنتي. على الرغم من الطعم المرير الذي تركته في فمي، إلا أنه كان شيئاً جميلاً. موقفها الواضح والقوي، حتى لو ألمني، هو العسل النقي والواقع كما هو، ليس في فظاظته الصارخة، ولكن في نقائه المؤلم.

عدنا في صمت إلى السيارة، وغادرنا فوينتي رايبا ثم أوصلتها إلى منزلها. بعد ذلك، كنا نرى بعضنا بعضاً عدة مرات للدردشة حول ما ينجزه كل منا ويشجع أحداً الآخر، وخاصة هي بالنسبة إلي، لأنني كنت في حالة تدهور. ومع ذلك، بعد أسبوعين من المرور بحالة من الاستياء، حدث شيء بداخلي لم أتمكن من تفسيره: بدلاً من الشعور بالتدهور والانكسار كما في بداية الأمر، أصابنتي حمى مجنونة للاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية، التي هدأتني ورفعت معنوياتي وتمكنت من استيعاب الكارثة العاطفية في وقت أقرب مما كان متوقعاً. أتذكر خصوصاً ليلة واحدة في الراديو الكلاسيكي، سمعت صوت ماريا كالاس تعزف أغنية مشهورة من أوبرا بيليني نورما، بدا الأمر أمومياً مثل أغنية كورال، لدرجة أنني شعرت بعاطفة قوية تسمو في حلقي. عندما انتهت من عزف القطعة، رميت نفسي على السرير، ووجهي لأسفل، وانفجرت في البكاء مثل طفل عاجز، بدا البكاء وكأنه لن ينتهي أبداً، ربما استمر لساعات أو بضع دقائق بدت أبدية، حتى نمت، مرتدياً الحذاء.

مر فصل دراسي دون رؤية إيدويا. في نهاية شهر مايو، قبل الامتحانات، ذهبت لزيارتها في المنزل بعد ظهر يوم السبت، معتقداً أنني سأجدها تستذكر دروسها. في الواقع، فعلت. فتحت الباب ورحبت بي بعناق حار.

– أتيت لأودعك كما تستحقين، إيدويا.

نظرت إليّ في حيرة كما لو تتساءل ممن ستأتي الضربة هذه المرة.

– إيدويا، لا أجد الكلمات لأعبر عما شعرت به معك، وددت كتابة قصيدة، لكن لم يخرج شيء يستحق العناء. لقد قدمت لي أبسط وأوضح راحة داخلية، يا إيدويا.

تحمست إيدويا جداً. ابتعلت ريقها.

– لقد قمت بنسخ كلمات شخص يعبر عما أشعر به أفضل مني.

مددت لها خطاباً ملفوفاً، حيث قمت بنسخ قصيدة بقلم ت. روزاك، من كتاب شخص الكوكب، وحزمة صغيرة.

– «لم تخبرني بما يوجد هنا»، قالت وهي تأخذ الطرد الصغير.

أسقطت الورقة وفتحت صندوق المجوهرات الصغير بالداخل. نزل سيل من على أحد خديها.

– إنها جميلة، خوانين.

– فقط أنت من تستحقين ارتدائه.

مددت يدي وأخذت السوار، الذي «اشتريته من أديلا»، من صندوق المجوهرات، وألبستها إياه، بينما أخبرها:

– يؤلمني فقدانك، لكن السعادة التي شاركتنيها أكبر بلا حدود.

فكت الخطاب ثم بدأت في قراءة القصيدة، دون أن تتوقف الدموع عن التدفق.

(...) أنت وأنا التقينا كغرباء، كل منا يحمل لغزه.

لا أستطيع القول من أنت، قد لا أعرفك أبداً على الإطلاق.

(...) لن أفرض عليك هويات، بل سأتركك تكونين أنت على سجيتك دون وجل، بلا خوف.

سأبقى مساحة مفتوحة لك في العالم...

لم أرها مرة أخرى. اكتشفت من ألبرتو أنها بعد الانتهاء من دراستها غادرت إلى الهند. أتخيل أنها تقدم نفسها دون تحفظ لمهمتها الجديدة، أن وجودها فقط يخفف من معاناة المرضى، مما يجعل الفجور تلمع أكثر سطوعاً.

## 22

بعد أسابيع قليلة من الضرب الذي تلقتة أدبلا، رأيت دراجة مارو النارية من نوع السانجلاس في الورشة، تفحص بواسطة شريكى. ثم في فترة ما بعد الظهر، رأيت الدراجة مرة أخرى أصبحت جاهزة بالفعل، خرج شريكى لاختبار سيارة بينما صاحب الورشة يتحدث في الخارج مع أحد العملاء. اقتربت من الدراجة، انحنيت، ثم بمفتاح تلاعبت بالفرامل.

فكرت من كل الجوانب في المحادثة التي أجريتها مع خوسيه ماري في المطعم حول شرعية القتل في بعض المواقف. متأثراً بشدة بالتعاليم التي لقيتني إياها أدبلا، تيقنت بعدم وجود مبرر تحت أي ظرف من الظروف لقتل إنسان آخر، إلا في حالة الدفاع القسوى عن النفس. ومع ذلك، ما ترسخ في أيديولوجيتك والمعتقدات التي تدافع عنها هما شيء، والدوافع النابعة من اللاوعي النفسي للشخص هي شيء آخر، حيث إنها تدفعنا إلى التصرف بطريقة معينة. إذا ما قام مارو بمهاجمتي ذلك اليوم الذي دفعت فيه بمظروف المال تحت باب منزله، لأطلقت عليه النار من مسافة قريبة دون تردد، ولن يحدث ذلك بسبب الدفاع الشرعي عن النفس على وجه التحديد.

والآن تلاعبت بفرامل الدراجة النارية بنية لا يمكن دحضها أن يتعرض مارو لحادث ويقتل نفسه، شرعت في تطبيق العدالة عليّ، في الواقع، أردت الانتقام منه، ليس فقط لما فعله بأدبلا، ولكن لما فعله بي في السقيفة عندما كنت مجرد طفل. من ذلك البعد الزمني ومع إمعان التفكير في الأمر بهدوء، لا ينبغي أن أنجرف بعيداً عن طريق الرغبة الانتقامية المتنكرة في زي الحارس. ومع ذلك، عندما يتعلق الأمر بالتفكير، من الضروري وضع في الاعتبار الهمجية التي ارتكبتها المرء في مرحلة ما من حياته، ودمجها في وعيه، لرسم صورة حقيقية لنفسه، دون التجرد مما يخفيه في ظل العقل الباطن، ما يزعجه أو ما يتركه يتضاءل أخلاقياً، دفيناً في الكرب الوجودي، في العجز الأخلاقي، في اليتيم من الشعور بأن ما يجب القيام به لم يتم، بدون أبوة إلهية للترحيب بشخص ما بعمل صفحة نظيفة مع الماضي... بدون قدسية الاعتراف، منظف الضمائر، ممسكاً بالحديد الأحمر الساخن الذي يظهره لك الشيطان عن نفسك، ناظراً إلى وحشك وجهاً لوجه.

ينعكس الألم الوجودي بفضاظة فولاذية في آية ميكيل لاسا: «لديَّ الله بارد في روعي». إنها آية تجمد ضميري في كل مرة أتذكرها.

رأيت مارو يخرج من الورشة، راكباً السانجلاس، ارتجف جسدي بشدة. بعد نصف ساعة، عاد ببطء شديد، مع المصباح المكسور، وكلها مغطاة بالطين وغارقة، أطلق سبأباً كالمجنون:

– اللعنة عليكم! من قام بفحص الدراجة!

خرج الرئيس لتهدئته، وكذلك فعل شريكى. بقيت على الجانب الآخر من ورشة العمل. وأشار مارو لي:

– هو من قام بذلك، ابن العاهرة هذا! اللعنة!

– «لا، كنت أنا، لا أفهم....»، تدخل شريكى.

ذهب مارو إليه، وأمسك به من رقبته، على وشك خنقه إذا لم يتدخل صاحب الورشة.

– اهدأ! – صرخ عليه وهو يدفعه بعيداً – . اهدأ! دعنا نرى! ما حدث!

أوضح مارو بين الشتائم أن الفرامل قد خذلتها على منحني، اصطدمت الدراجة النارية بشجرة وسقط على جسر في النهر، والذي كان ممتلئاً بالمياه، إذا لم يتمكن من التمسك بفرع، لجرفه التيار بعيداً.

– لم أغرق بمعجزة! اللعنة!

اختبر الرئيس الفرامل.

– لا أفهم، كيف حدث هذا.

لم يفهم شريكى ما حدث أيضاً، استنبطت ذلك من الإيماءات التي بدرت عنه.

– «ستتركها لك جديدة، مجاناً» – وعده الرئيس.

– والقرف الذي اعتراني، ماذا؟

– أجاب الرئيس بجدية: « سأصلح الدراجة من أجلك، وهذا كل شيء. لا أرى أيَّ ضرر فيك. لم يحدث شيء لك».

– يا للسخافة! يقول إنه لم يحدث لي شيء!

سار مارو بعيداً مطلقاً وإبلاً من الشتائم.

– صاح الرئيس في وجهة: «ستكون جاهزة غداً!» ثم أضاف بين أسنانه، «كان يجب أن يتلعلك النهر أيها الوغد، لن يفتقد أحد الكثير».

بعد إثم بلدي الحاقد والخبيث، عانيت من صراع داخلي بين الحاجة الملحة لأن أفعل شيئاً ضد تلك النزاهة النشطة والبوذية التي طالبتني أديلاً بالالتزام بها. لكن في ظروف معينة، تصير البوذية بالنسبة لي موسيقى بعيدة، وتوازناً بعيد المنال، غير مشمل في بنية دوافعي العقلية، بل يقع في البنية الفوق العقلية، بطريقة مثالية من مجال وجودي آخر.

يقول تاسيتو إنه من خصائص البشر فقط أن تكره الشخص المصاب. يصبح مصاباً ومكروهاً أيضاً، كما لو أنه توكيد للضرر، تماماً كما فعل مارو بي، أو خوليو. إنه أكثر شيوعاً، على أي حال، العكس: إنهم يؤذونك، تكرههم، إنه رد فعل شبه تلقائي للنفس البشرية، خاصة عندما يؤذونك كثيراً، في موقع ألمك، بجانب سوء النية. في بعض الأحيان تبقى الكراهية مخفية فيك لسنوات وسنوات، إنها أخطر الكراهية، بحسب سينيكا، الحقيقة هي أنه في يوم من الأيام قد ينبث شيء وحشي من تلك الكراهية لا يؤذي فقط من أذوك، ولكن العديد من الآخرين الذين لا علاقة لهم بالضرر الذي ألحقه بك. وهكذا، اختبأ بداخلي على مر تلك السنين ضرر خفي لم أبوء به لأحد، ولا حتى إيدويا، ربما ذلك هو الشيء الوحيد الذي أخفيته عنها: كراهية الطفل، التي كبرت مع نمو جسدي، مع شبكة كاملة من الآثار الموجهة مما يشعرك بأن «الله بارد في الروح».

عانت أديلاً طفولة قاسية، بعد أن فقدت والدها في ظروف مؤلمة، وواجهت سن الرشيد دون دعم والدتها. بدأت حياتها المهنية والسياسية مع العبء الثقيل لتاريخها الشخصي. من الممكن أن تلك الحالة، المرتبطة بمجموعة من الظروف، قادتني إلى الوقوع في بئر المخدرات، النشاط السياسي والتربوي، اليوغا، البوذية... لم تكن كافية لملء فراغها الداخلي. ومع ذلك، كل هذه الانعكاسات ليست أكثر من تخمينات لدي، حتى أن أديلاً نفسها لم تكن تعرف الأسباب الحقيقية لانهايارها العقلي. لا يسعفني التحليل الفكري لتوضيح كيف حدث مثل هذا الشيء لمعلمتي الشابة، التي يوماً ما حلت

بحينا كملاك ينحدر من السماء، مستبصر، ديناميكي، يضحك، بصناديق الطباعة والحبر الأزرق لتطبيق طريقة فرنيت، بقصصها، أسئلتها عن الحياة والمستقبل الذي أردنا بناءه، طريقته في معاملتنا، حنونة وحازمة في نفس الوقت، دون ضرب أو عقوبات، تدعو إلى نوع آخر من المدارس تشبه إلى حد كبير سمرهيل الشعبي، حتى بالنسبة لمجتمع بدون مدرسة مثل تلك التي أعلنها إيفان إيليتش، أعادت أدبلا تفسيرها على أنها تسعى لتحويل المجتمع نفسه إلى مدرسة. تلك هي المعلمة التي حلت بحينا. وهكذا عملت ببراعة لأشهر وسنوات، بأفكارها الثورية واليوغا والبوذية.

لا أستطيع أن أفهم كيف يسقط في هاوية التدمير الذاتي كائن بهذا القدر من الحكمة والذكاء؟... كيف لها بهذا الغباء لدرجة سقوطها في براثن الإدمان؟ الحياة في بعض الأحيان مثل لوحة الشطرنج، لا بدَّ من حساب كل حركة بدقة بالغة، ثم بشكل غير متوقع تهب الرياح وتقرع قطعة رئيسية، ثم حينئذ ترسل الاستراتيجية التي خططت لها بكل التفاصيل أدراج الرياح. حينئذ تتركك غير مدرك لشيء على الإطلاق مما حدث.

استفاد مارو من فترات الضعف التي عانت منها أدبلا. لم يلاحظ أحد الحالة الحقيقية للمعلم، باستثناء ذلك الوحش، عادة ما يكون للوحوش مثل مارو حاسة سادسة تنبؤهم وتشير إلى الضحايا المحتملين. أخذ كل المال الذي يستطيع الحصول عليه منها وتركها غارقة في الديون. أسوأ شيء هو أن أدبلا انجذبت إلى مارو، على وجه التحديد بسبب شخصيته البرية والبرية. من الصعب لي أن أجمع بين معلمتي الدؤوبة والحنونة مع مثل هذا الحيوان الذي لا ينطوي قاموسه على أي مبادئ أو اعتبارات، ربما أيقظ افتقارها للخوف والحدود في أدبلا وهم التخلي عن العبء الثقيل الذي طغت عليه الحياة في الحضيض. هذا ممكن. الحقيقة هي أن مارو استغلها لسنوات، حتى دخل هو نفسه في دوامة من الصعوبات الاقتصادية فرفع السعر. وأصبح غير راض عن الحصول على أمواله بطريقة عينية.

اكتشفت كل هذا في ذلك اليوم المشؤوم، ليلة عيد الميلاد، عندما مات بداخلي كل ما تبقى من براءة الطفولة، كنز طفولتي. نظرت أدبلا نحوي من السرير ووجهها مصاب بكدمات.

عانقتها بينما داعبت هي رأسي.

أخبرتني أن خوليو حذرنا من مارو، ربما لأنه شعر بالغيرة، أراد حمايتها من ذلك الوحش أكثر حتى من «اليساريين الخطرين». كان هو الذي شجب

مارو – أخبر أدبلا بذلك في خضم إحدى المناقشات الساخنة العديدة التي أجروها – الذي نجا بصعوبة من الذهاب إلى السجن، على الرغم من أنه اضطر إلى الذهاب إلى المنفى، تاركًا الطريق خاليًا لفترة من الوقت. عندما عاد مارو من منفاه الغريب، وجد أدبلا ضعيفة، ثم في خضم انهيار عام للحماس الثوري، مع عدة محاولات محبطة للارتباط بها، على وشك مغادرة الحزب الذي هي عضوة فيه. في مثل هذه البيئة الخصبة، لم يستغرق مارو الكثير لنفث سمه، ليصبح عاشق أدبلا المتقطع ومورد المخدرات. كل الحب الذي يمكن أن يوفره لها مارو كان مرتبطاً بشكل مباشر بالمحفظة الموجودة في جيبها والطرف المجاور الذي يقذف فيه غرائزه الحيوانية، بالنسبة إليه لم يكن هناك شيء آخر.

كأثر جانبي للمخدرات، أو بسبب أزمته الوجودية، أو لأي سبب من الأسباب، بدأت أدبلا تعاني من الاكتئاب المرضي، للخروج من تلك الحالة بدأت في تناول المزيد من المخدرات، ودخلت في دوامة خطيرة دفعتها إلى التفكير في الانتحار. في الأوقات التي مرت فيها بالأزمات، حاولت في مرات عديدة الإقلاع عن المخدرات وممارسة تمارين اليوغا بقوة، والطعام الصحي... ولكن عندما غرقت مرة أخرى، غاصت في القاع أكثر وأكثر.

– لماذا لم تزوري طبيباً نفسياً؟ – اقترحت عليها.

– حتى الآن أهل الحي، أولياء الأمور، لم يعرف أحد بحالتي. أعلم أنه في مناطق أخرى تم وصفي على أنني مناهضة للقومية الباسكية، يسارية، متحررة من حيث الجنس، وحتى عاهرة. ولكن فقط أنت، ألبرتو ومارو من هم على دراية بموضوع المخدرات. لا يزال لدي ذرة من الكرامة، على الأقل بين الأطفال والآباء وزملاء العمل...

– لهذا السبب بالتحديد، أدبلا، من أجلهم جميعاً، عليك أن تستشيرني أخصائياً. سأخذك بنفسني، إذا أردت، إلى الجانب الآخر من الحدود، للحفاظ على السرية. سأحدث مع ألبرتو.

– وفي هذه الأثناء، ماذا؟ إذا ما حدث لي ركود نفسي آخر مرة أخرى، كيف يمكنني التغلب عليها بدون مخدرات؟ لا أعرف كيف أفعل ذلك.

وقفت أنظر إليها في صمت. ابتسمت لي بنظرة حزينة. بعد فترة، خطرت لي فكرة: سأحصل لها على المخدرات بنفسني. لن أسمح لمارو ببيعها حتى جرام واحد من المسحوق مرة أخرى.

– أتعرف ما تقول؟ – شعرت بالقلق عندما أفصحت لها عن نواياي، لم تكن على استعداد للسماح لي بالمخاطرة بسبب أي شيء في العالم.

– لا يوجد بديل آخر، أديلا. عليك الاختيار: إما أنا أو مارو.

ابتسمت أديلا مرة أخرى. في تلك اللحظة، دخلت والدتي وألبرتو الغرفة، لمساعدة أديلا على الوصول إلى غرفة المعيشة، إلى الأريكة المعدة بالوسائد. تناولنا عشاءً مبهجاً ثم عدت أنا وأمي إلى المنزل. بقي ألبرتو لينام في شقة أديلا. في الطريق علقت والدتي:

– سيكونان زوجين رائعين.

– من؟

– من برأيك: أديلا وألبرتو.

– لكن...

– إنهما عشيقان.

عجز فمي عن الكلام. تخيلتهما يمارسان الجنس، لكن ليس بينهما علاقة جدية. قلت لنفسني على الفور: « كان يجب أن تشك في ذلك، يا للسخافة، العلامات بدت الآن جلية.»

في الأيام التي تلت ذلك، ذهبتُ بسيارتي إلى أماكن معينة في سان سيباستيان ورينتيريا، في محاولة مني للتواصل مع مورد يمكنه تزويدي بما بحثت عنه. أخيراً، تواصلت مع اثنين من العجرات اللذين عرضا عليّ سعراً جيداً، بشرط شراء كمية كبيرة منهما، والذي تتضمن به أديلا الإمداد لمدة ليست بالقصيرة. هكذا مرت أولى اتصالاتي بعالم المخدرات.

عندما أتاحت لي الفرصة، أخذت إجازة لبضعة أيام وذهبت إلى الجانب الآخر من الحدود للعثور على طبيب نفسي جيد. فكرت في الاستفادة من الاتصالات التي أجريتها مع اليساريين الذين عادوا من المنفى للحصول على المعلومات التي أحتاجها بتكتم.

ومع ذلك، اتخذت الأحداث منعطفاً غير متوقع وتحولت في اتجاهات غير متوقعة.

عندما ظهرت للعلن علاقة الحب بين المعلمة والكاهن، أحدث الأمر ضجة واسعة في الحي، ولكن بحلول ذلك الوقت كان ألبرتو قد ترك «مهنته» بالفعل وبحث عن شقة مستأجرة في سان سيباستيان، في حي للطبقة العاملة.

جرت الأحداث جري الماء عند الفيضان.

## 23

احتاجت أديلا إلى تغيير من شأنه أن يجدها من جذورها: كاحتضان مسار روحي، ربما دين (تذكرت إيدوبا، متطوعة في الهند)، ليس عن طريق العقل مثلما دعت البوذية، ولكن من خلال تجربة التصوف، إيمان غير متحفظ، مما قد يؤدي بها إلى تحول نفسي ربما يتسبب في شفائها تماماً. ومع ذلك، أستاذتي امرأة ذكية وعقلانية للغاية بحيث لا تستطيع إغلاق عينيها و«الثقة» بإيمان غير متحفظ، بالمعنى النقدي الذي عبر عنه سي ماغريس.

بالتأكيد، فكرت أديلا ووزنت كل هذه الاحتمالات وغيرها الكثير. ولم تجد من بد في الوقت الحالي، لم يكن لدي خيار سوى الاستمرار في تزويدها بالمخدرات. لم تسمح لي بتحمل النفقات، كما أرادت، ودفعت لي بالتقسيط. في بعض الأحيان، شعرت وكأنني فارس مجنون ضال، يقتحم أراضي الجنون – كم عدد الآخرين الذين أدمنوا المخدرات؟ – ، والتي تشكل خطر إصابة المرء بالشلل. يقول دون كيشوت لسانشو: «ضد العاقل والمجنون، فإن أي فارس ضال ملزم بالعودة من أجل شرف المرأة، مهما كانت، يكتسب الأمر أهمية قصوى إذا ما كانت المرأة من الملكات ذوات المقام الرفيع والمؤيد».

تحسّن مزاج أديلا بطريقة تحررت من اعتمادها على مارو وسعيدة بصحبة ألبرتو، وشهدت وقتاً سمّت فيه مرة أخرى. للاستفادة من الطفرة النفسية، أخذناها أنا وألبرتو إلى الجانب الآخر من الحدود، إلى طبيب نفسي، قمنا أيضاً بزيارة طبيب تجانسي. من ناحية أخرى، كانت أديلا في إجازة مرضية منذ أن غادرت الحي مع ألبرتو لبدء حياة جديدة، وتجنب القيل والقال، وقبل كل شيء إغفال مارو، التي لم تتوقع ردود أفعاله، لم يكن معروفاً ما الذي يمكن أن يفتعل لاستعادة موكله المفضل.

عندما غادر ألبرتو وأديلا الحي شعر رواد قبو الكاهن بالفراغ الشديد، على الرغم من أن والدتي وأصدقاءها، أنا وخوسيه ماري وآخرين قلائل، استمروا

في تنظيم الأنشطة بدون كاهن، لأنه لم يكن هناك ما يكفي لحضور جميع الأبرشيات.

تركت أديلا فراغاً كبيراً في قلوب طلابها مختلفي الأعمار، في مدرستها، التي كانت رائحتها بالفعل كما لو هي جزء من جسدها. رفضت هي وألبرتو رفضاً قاطعاً تلقي أيّ هدايا وداع، لقد ودعا الحي ببساطة مع بعض الشوكولاتة وبعض الباستا.

منذ ذلك الحين، امتلكت أديلا شيئاً لم تحصل عليه من قبل: تجربة العيش مع شريكٍ مستقر، شخص تشارك معه مشروعاً طويلاً الأجل. وجدت في ألبرتو توازناً لم يقدمه لها أحد حتى ذلك الحين، أو لم تدرك كيف تجده في أي شخص.

ربما كان هذا «الاستسلام» للعيش مع شريكٍ مستقر بطريقة تقليدية إلى حد ما حدث نتيجة استنفاد أديلا روحياً، وحاجتها إلى وقف تقلبات الحياة وخلق ملاذ للسلام النفسي، من أجل البقاء، ربما كالمهزوم الذي يتقاعد نحو ملاذ آمن، ربما كالحكيم الذي أخيراً أدرك ما في الخمر – قد يكون كلاهما نفس الشيء – مثل السفينة التي تصل إلى الميناء بعد فترة طويلة وعشوائية من الملاحة. ومع ذلك، في بعض الأحيان يكون الوقت متأخراً، ترسو السفينة في الميناء، مترنحاً، حيث غمرت الماء أحشاءها.

الآن سأقوم بقفزة زمنية صغيرة، لا يهتم للأمام أو للخلف، لأن من يعرف المكان الذي يشغله الزمن في استعادة الوقت الضائع، في عملية تدرية الوقت كالرماد يهرب الوقت مثل مياه الأمطار في حقل حجري. وحدة الزمن هي أمر مثير للشفقة في خضم تقلب الوقت الأوردوني الذي يتسع ويتقلص، مثل وقت فنان البلياتشو الذي يقفز مبتسماً من أرجوحة إلى خيط، ومن الخيط إلى شبكة، ومن الشبكة إلى سحابة. بالنسبة للبعض، بدأت حرب 36 في وقت لاحق، في المستقبل، لأنهم عانوا بعد عقود من عواقبها. بالنسبة للآخرين، انتهت للتو، وبالنسبة للبعض الآخر لم تكن هناك حرب على الإطلاق. كانت حرب 36 حاضرة وحيوية في اجتماعات الجبهة، لا تزال الحروب الكارلية حاضرة في أذهان القوميين.

أؤدي قفزة زمنية إلى الوقت الذي أخبر فيه صاحب ورشة العمل شريكي وأنا بأنه لم يعد مهتماً بمواصلة العمل. خطط لبيع الورشة والذهاب للعيش مع زوجته في أليكانتي.

– قال لنا: «عملت مثل لقيط طوال حياتي، هذا يكفي. زوجتي تعاني من الروماتيزم الذي يزداد سوءاً من يوم لآخر. سأصطحبها إلى مكان يمكننا فيه الاستمتاع بالسنوات المتبقية من حياتنا. سأقاعد».

توجهنا أنا وشريكي في تلك اللحظة مباشرة نحو مباشرة البطالة، وفي تلك السنوات ليس هناك ما يمكن فعله. اقترح المالك نفسه فكرة الاحتفاظ بورشة العمل، على الرغم من أنها بدت مهمة مستحيلة بالنسبة لمدخراتنا الضئيلة. أصر المالك على أنه يمكننا القيام بذلك، لقد «طوى» واقترح علينا أكثر من مجرد شروط مغرية. في اليوم الآخر، أجاب شريكي بنعم، لأن والديه عرضا بيع مكان يمتلكانه وضمان بقية القرض. تكمن المشكلة فيّ أنا. طلبت من والدتي أن تريني صندوق الادخار، ودهشت عندما وجدت أنني ادخرت مبلغاً كبيراً ولم أكلف نفسي عناء التحقق منه. المال الذي أحتفظ به في صناديق الأحذية لم يكن كثيراً جداً أيضاً. على أي حال، كنت لا أزال أفقد مبلغاً جيداً للوصول إلى المبلغ المطلوب، كان القرض الذي توجب عليّ طلب الحصول عليه مفرطاً.

من ناحية أخرى، لم يتبق لي سوى القليل لإنهاء الدراسة. اعتقدت أنه عن طريق إعانة البطالة يمكنني الصمود حتى أحصل على وظيفة كمعلم، لكن الحقيقة هي أنني لم أنجذب للفكرة، حتى لو كان النموذج الملهم في حياتي مدرّستي. في المساء، عرضتُ عليّ والدتي بعض الأوراق.

– لقد ذهبت إلى البنك، خوانيتو. استثمر والدك في بعض الأسهم...

كان مبلغاً جيداً من المال.

– عليك الاحتفاظ به لكبرك يا أمي.

– مستحيل! أنا الآن عجوزة بالفعل. هناك لحظات في الحياة يتعين عليك فيها شوي كل اللحمة التي لديك، وهذه واحدة منها: نضع كل المدخرات معاً، ونرهن الشقة، ونذهب إلى المرآب.

لم أوافق ولم أعطها أيّ بادرة موافقة ولا مقابل العالم كله، عندما طرحت والدتي الأمر اكتسبتُ قوة الثبات لشجرة بلوط عمرها قرن من الزمان. هكذا أصبحتُ أنا وشريكي أصحاب ورشة العمل. في البداية، اهتمت والدتي بالمحاسبة والأوراق، حتى وصلت أجهزة الحاسوب، في وقت كنا نقوم فيه بعمل جيد للغاية، ثم تعاقدنا مع مديرة إدارية.

عملت بجد للدفع بورشة العمل قدماً. في وقت فراغي، كنت لا أزال أكرسه للدراسة، دون أن أمنح نفسي الفرصة لخوض مغامرات حب جديدة أو الخروج مع الأصدقاء. تدريجياً، أصبحت عازباً كارهاً للبشر. دافعت عن رسالتي وواصلت الخوض في مختلف مجالات الأدب والفلسفة، وسدت ثغراتي بالكلمات، رغم أنها ظلت فارغة.

بدا لي الحي بدون أديلا وكأنه كوكب بدون محور. لسنوات عديدة، شكلت أستاذتي النقطة المرجعية المركزية لوجودي، محور كوكبي، بعد مغادرتها، استمر الكوكب في الدوران، لكن مع دورانه لم ينتج عنه ذلك الوخز في تجويف معدتي، مما جعلني أفتح عيني عن آخرهما وأشرب الألوان والأوقات، سعياً لتذوق «العاطفة» في كل لحظة حاولت العيش فيها.

في أحد أيام الجمع، الساعة الثالثة صباحاً، منتهياً من استذكري وقراءتي، لأننا لا نفتح ورشة العمل يوم السبت، بينما أنا على وشك ارتداء البيجاما للذهاب إلى الفراش سمعت دوي طلقتين. دون إيقاظ والدتي، التي خلدت إلى النوم على الجانب الآخر من المنزل، سارعت إلى أسفل الدرج وطرقت باب خوسيه ماري. خرج في قميص، فرك عينيه. في تلك اللحظة، دوى صوت طلقتين أخريتين.

– سمع صوت مارو من بعيد: «اللعنة عليكم! سأقتلكم! اللعنة عليكم! أظهروا وجهوكم!».

ارتدى خوسيه ماري سترة، ثم انطلقنا مسرعين. في الساحة، حيث ظهر التوهج، صادفنا العديد من الجيران الذين لم يجرؤوا على الاقتراب من مصدر الطلقات والأصوات.

– منزل (مارو) مشتعل. جن جنونه، يطلق النار في كل مكان ببندقيته الآلية.

نظرنا من إحدى الزوايا. شاهدنا مارو يطلق النار باتجاه المنازل دون سيطرة. سمع ضجيج الزجاج المكسور.

– اللعنة عليكم! سأقتلكم جميعاً!

أمسك خوسيه ماري بذراعي.

– لنذهب!

أخذنا منعطفاً عبر البساتين وانقضضنا على مارو من الخلف. حسناً، انقض خوسيه ماري، وأخذت أنا بندقيته.

– سأقتلك أيها اللعين!

ثبت خوسيه ماري مارو على الأرض، بينما ركضت لمناداة الناس.

– لن تقتل أيّ شخص، أيها الوغد!

قام العديد من الجيران بتوصيل خرطوم الحريق وحاولنا إخماد الحريق. اتصل أحدهم بفرقة الإطفاء، لكن عندما وصلوا، اشتعلت النيران في المنزل بأكمله. بقيت الجدران الخارجية فقط قائمة، كان الداخل عبارة عن كتلة من الأنقاض.

نما إلى علمنا لاحقاً بأن عدداً قليلاً من الرجال الملتئمين فاجأوا مارو في أثناء إيقافه للدراجة النارية، وضربوه ضرباً وحشياً، وبعد ذلك أشعلوا النار في المنزل القديم، المبني من الحجر والخشب، والذي احترق مثل الورق. زحف مارو إلى السقيفة، وأمسك ببندقيته المتكررة وأثار كل هذه الضجة.

تعرض مارو للتهديد من قبل إيتا، متهما بأنه مهرب. كنا في خضم حملة ضد تجار المخدرات، الذين، وفقاً لإيتا، شجعوا الشباب على تعاطي المخدرات وألغوا قدرتهم على التمرد.

على ما يبدو، لم يكن مارو منزعجاً كثيراً مما حدث. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتعرض فيها للضرب، ولكن حتى فقدان منزله لا يبدو أنه يؤثر عليه كثيراً. وادعى في الحانة، بصوت عالٍ، أنه يعرف من ضربه وأنه سوف يمثل بهم جميعاً عندما يمسك بهم. نظراً لأنه لم يكن لديه مكان يعيش فيه، فقد جهز مرتبة قديمة، وخيمة، وحوض غسيل، واستقر في السقيفة. لقضاء حاجته، اعتاد الذهاب إلى المبولات العامة في مبنى المدرسة.

بدلاً من أن يكون خائفاً، جن جنونه كرد فعل من مارو لما حدث، باحثاً عن فرصة للانتقام. في إحدى الليالي، أشعل أحدهم النار في سيارة النحيل صاحب المقام المرموق، لم يكن هناك شهود، لكن كل الأدلة تشير سراً إلى مارو. أياً كان المتسبب في الحريق، لم يشبع مارو عطشه للانتقام، واستمر في إظهاره في الحانة في جميع الاتجاهات. انتاب الحي بأكمله خوف من أن يرتكب في أي يوم بعض الفظائع، وليس تلك التي اعتدناها، ولكن أخرى كبيرة.

ما هي الكيمياء التي تربت في أدبها منذ طفولتها المبكرة؟ تتكون العملية الأساسية التي تحدث في البوتقة الكيميائية من تحويل الرصاص إلى ذهب، ما هو ثقيل وكثيف وباهت إلى خفيف ودقيق وبراق. وجدت أدباً نفسها عندما كانت طفلة مع الرصاص الذي أغرق شخصها في الغموض الأكثر إثارة للقلق، وقامت بالتسلق بصعوبة، تماماً مثل دفع سيزيف الحجر الأثقل على الإطلاق. أتساءل عما إذا كانت ممارسات اليوغا والبوذية والنضال السياسي... أصبحت علاجاً أو مسكناً، إذ تمكنت من ترسيب خيوط الذهب في الأذنان أو اقتصرت ببساطة على جعل الرصاص يلمع. لقد بذلت جهداً جهيداً مستمراً لسنوات طويلة، وعلى هذا شهدت. هل وصلت إلى اللمعان الذهبي؟ هل فشلت؟ يهتم البشر أولاً وقبل كل شيء بالنتيجة، من أجل التمكن من توضيح ما إذا كان المسار الذي تم قطعه له معنى أم لا، استحق ذلك أم لا. لكن، في النهاية، هي النتيجة أهم شيء، عندما نعرف على وجه اليقين أن كل نهاية، ناجحة أو غير ناجحة، محكوم عليها بالفناء مع الموت الذي لا يرجم. وبالتالي، ما فائدة النجاح؟ ماذا عن الفشل؟ بالنسبة لي ما هو مهم حقاً ليس النتيجة، لأنه لا يوجد سوى نتيجة واحدة هي نفسها للجميع، المهم حقاً هو كل خطوة منحوتة بدءاً من الدرجة الأولى، خدش من الصفر، حتى تصبح ضربة ذهبية لفرشاة الحياة.

الشيء الأخير في بوتقة الكيمياء هو تحويل الرصاص إلى ذهب، أو ما يهمهم هو عملية خلق الضوء كدرب صاعد للبراع على درج الحياة، تقطير اللمعان مع ترك ثقل الوجود وراءه؟

لا أعرف: في بعض الأحيان، يسعى شيء بداخلي للتمرد متيقناً بأنني ساذج يهيمن عليه انطباع طفولي قوي لا يسمح لي برؤية الأشياء كما هي، ورؤية الناس كما هم، بالنسبة لبعض الناس، أنا وجوس ماري أوغاد، وألبرتو لوزج، وأديلا... ربما تكون امرأة حزينة مدمنة للهيرويين منذ أيام دراستها، ذات علاقة ببيئات معينة في برشلونة من البرجوازية، ولعب التقدم والثوري والهبي في نفس الوقت. ولكن بعد ذلك، صوت خيالي يعوي بداخلي ينكر كل شيء، لا أسمح لأي شخص أن يلمح ذرة واحدة من فتاتي، وأنا مستعد لخوض مبارزة ضد أي عملاق من الظلام يحاول منعي من رؤية عالم كان موجوداً بالنسبة لي كما وصفته، حيث ركبت على صخرة الثورة، تملأني مشاعر الأخوة...

هل يهم كثيراً معرفة كيف انتهت قصة أدبياً؟ لا أجب بلا، لكن المعلمة التي يقطر منها الضوء، وبراءة الأعمال اليومية التي استمرت عاماً بعد عام، أيقظت همم الأطفال، ألهمت بالحماس نحو الحياة وفضول المعرفة، المعلمة التي أولت أهمية كبرى إلى العلاقة الشخصية قبل كل شيء، ستبقى محفورة في داخلي إلى الأبد. أدبياً، اليرقة ذات النظرة الواسعة مثل أفق البحر. أدبياً أو اللامعة، عنوان جيد لمعامل كيميائي.

يقول يونغ في علم النفس والكيمياء إن الناس يفعلون أكثر الأشياء سخافة للابتعاد مما جبلت عليه أرواحهم، يمارسون تمارين اليوجا الهندية لأي احتفال، يحترمون تعاليم الصيام، تُتعلّم الثيوصوفيا عن ظهر قلب، يصلي المرء وفقاً للنصوص الصوفية لكل الأدب العالمي، وكل هذا لأن المرء غير قادر على مواجهة نفسه، ولأن هؤلاء الناس لا يؤمنون بأن شيئاً مفيداً يمكن أن ينبثق من روحهم. لا ينبغي أن تنطبق كلمات يونغ هذه على أدبياً، بالنسبة لها، لم يكن الأمر مجرد مسألة سبل، وطريقة للهروب من نفسها، كما ينتقد يونغ. على العكس من ذلك، كان عمل أستاذتي متعدد الأوجه وسيلةً لمواجهة نفسها، كما أستطيع أن ألحظ بدقة من التفاصيل. شعرت أدبياً بروحها الخاصة، ووجدتها مقسمة إلى ألف قطعة، لكنها واجهت عواقب عدة في محاولاتها لتجربة الاندماج، ثم ولدت هي على شاكلتها من رحم تلك المحاولات، المعلمة التي غيرت حياتي وحياة الكثير من الأطفال. اعتبرناها شيئاً وهمياً، قطعة قماش ذهبية تغطي الجسم أكلتها العثة! ليس بالنسبة لي، ليس لزملائي في الفصل، وليس لألبرتو، وليس لآنا وخوسيه ماري...

في الكتاب المذكور أعلاه، يقتبس يونغ مقطعاً غامضاً من ديموقراط، واصفاً إياه بأنه أحد أقدم الكتاب الكيميائيين: «أذهب إلى تيارات النيل وهناك ستجد حجراً لديه روح. خذ هذا الحجر، اقسمه إلى نصفين، ادخل يدك في الداخل وأخرج القلب. روحه هي في الواقع القلب. ثم استخرج عبارة من نيتشه، هذه هي الطريقة التي تحدث بها زرادشت: «في الحجر هناك صورة تنام لي».

في النهر الموجود في هذه القصة التي رويتها، ذهني هو حجر انقسم إلى قسمين بسبب مناقضاتي، مع بحثي غير المثمر عن معنى فريد ومتكامل. لقد وضعت يدي في الداخل وشعرت بالروح، وفي الداخل وجدت صورة أدبياً كرمز للغموض المبهم لنيل الحياة، ولكن في نفس الوقت كفجر يوخز أصابعه على قمة الأهرامات وينزف الضوء من خلال الحواف، وينزلق على وجوه متعددة، الوجوه المذكورة تحولت إلى اللبن الذهبي المغذي لإرادة الحياة.

كانت أديلا تتحسن يوماً بعد يوم، توصلت إلى الاعتقاد بأنها من خلال العيش مع ألبرتو وجدت طريقة لإعادة توجيه اضطرابها، بطريقة ذلك المفتاح الذي يظهر أحياناً بشكل غير متوقع عند منعطف من منعطفات الحياة. في العديد من الأحيان اتصل بي ألبرتو عبر الهاتف، متحمساً، أخبرني أنه تم تعيينه للتدريس في أكاديمية للعام الدراسي الجديد، وأن أديلا سعيدة في وجهتها الجديدة، في إحدى مدارس الحي. ثم تضع أستاذتي سماعة الرأس مخبرة إياي بأنهما يريدان إنجاب طفل قريباً، أو تبنيه إن لم يحدث حمل. أخبرتني أنها دائماً ما تتذكرني، وأنها مهتمة بكيفية سير العمل في الورشة وعن هواياتي الفكرية، وأعربت عن أسفها لأن علاقتي مع إيدويا قد انتهت، وشجعتني على البحث عن فتاة جيدة.

– أنت شخص يمكنه إسعاد امرأة، خوانيتو.

أنا، حتى لا أناقضها، أجبته أن نعم، أعمل على ذلك، لكنني لم أتمكن بعد من الحصول على أي شخص يعجب بي. سألتني عن مارو – اختنق لعابي واضطرت إلى بذل الكثير من الجهد لعدم نطق كلمة بذيئة – ، لقد علمتُ بالفعل أن منزل الرجل المسكين قد احترق، وأنها لا تكنُ أيَّ ضغينة تجاهه، وأنه مجرد رجل مسكين، أكله عدم قدرته على الحب، ضحية، بعد كل شيء. لم أرغب في اتباع هذا المسار، لأن مجرد سماع اسم ذلك الرجل جعل أمعائي تتخبط، وقمت بتغيير المحادثة:

– متى ستعودين في الأنحاء، يا أديلا؟ عليك أن تأتي لتناول العشاء في أحد هذه الأيام، تكرر والدتي هذا الطلب كثيراً.

لكنهما لم يشعرا بالرغبة في العودة إلى الحي حتى بعد مرور وقت معقول. يجب السماح للدموع والجروح بالشفاء بشكل صحيح.

– قالت أديلا: «دعونا نفعل الأمر بطريقة أخرى، أنتم يا رفاق ستعودون إلى المنزل لتناول العشاء».

هكذا ظهرت أنا وأمي يوم السبت في منزل أديلا وألبرتو.

فتح ألبرتو لنا.

– تفضلاً. أديلا ليست على ما يرام. لقد قضت وقتاً طويلاً في السرير، لكنها ستستيقظ لتناول العشاء.

ساعدنا ألبرتو في إعداد العشاء، وعندما جهّز، نهضتُ أديلا. بالكاد تناولتِ الطعام، ولاحظنا أنها بذلت جهداً كبيراً لتشاركنا الحديث وتقضي معنا أمسية ممتعة. عندما قررنا المغادرة، عانقتني بعطف. في عناقها الشديد، أدركت شيئاً لم أدرك كينونته. هل هي على وشك السقوط مرة أخرى في هاوية الاكتئاب؟ عندما نزلنا إلى البوابة بحجة أنني تركت مفاتيح السيارة، عدت.

– أحتاجين إلى أي مساعدة؟

– أجابت أديلا: «لا، خوانيتو، ليس هذه المرة، أنا لا أهوى. لا تقلق، سأتحسن قريباً».

وعانقتني مرة أخرى بكثافة غريبة.

في الأيام التالية، اتصلت مستفسراً عن صحة أديلا. أجروا فحوصاتٍ طبيةً، لكن لم يكن هناك دليل على أي مرض. مع تدهور حالتها الصحية بمرور الوقت، أجري لها اختبار بحثاً عن السرطان، لكن تبين أن التشخيصات كانت سلبية.

بعد بضعة أسابيع، اتصل بي ألبرتو.

– أريد التحدث معك.

التقينا في كافيتيريا فندق دي لوندريس في سان سيباستيان، وجلسنا ننظر إلى البحر. عندما نقل لي الخبر، اعتقدت أن الفندق بأكمله كان يسقط فوق رأسي: أديلا، ضحية مرض غير معروف آنذاك، لعنة العفن.

غير آبهين بمن حولنا، كلانا على حد سواء بكينا متعانقين. بعد ذلك، مشينا في صمت على طول باسيو دي لا كونشا، نستمع إلى أمواج البحر الهائج التي هزت الساحل تماماً كما هزت تلك المشاعر روعي.

– يمكنك الاعتماد عليّ، ألبرتو، لفعل أي شيء، لأخذها إلى أي مكان.

– لا يوجد شيء تفعله، لم يبق سوى الاستسلام.

غير ممكن، بدا الأمر قاسياً للغاية لفكرة عدم المقدرة على القتال من أجل احتمال ضئيل. كان علينا في النهاية تجربة علاجات البيتريكيو، لن نقف مكتوفي الأيدي.

– خوانيتو، إفهم، لا يوجد شيء يمكن القيام به. أنت لا تعرف ما كلفني لقبول ذلك. لم يتم اكتشاف أي علاج.

إذا ما طعنت بالسيف فلن يكون جرحي أعمق من الآن.

– ماذا عنها، البرتو؟ هل تعرف ذلك؟

– من اللحظة الأولى.

– ثم؟

– لقد تسببت لي في حيرة. منذ أن اكتشفت ذلك، هدأت أكثر، وحتى أنني أراها سعيدة. لا أفهم رد فعلها.

من أين لها بهذه السعادة التي أظهرت، لا تفيق من لعنة إلى لعنة، في خضم أعظم مصائبها؟ لا يزال من الصعب عليّ أن أفهم ذلك اليوم. ربما ما اعتبرته أعظم مصائبها لم يكن لها.

منذ ذلك الحين، زرتها يومياً. استقبلني بابتسامة عريضة وتذكرنا قصص الطفولة، سواء قصصها أو قصصي. طلبت مني أن أقرأ لها قصائدي، تلك التي كتبتها عندما كنت طفلاً وتلك التي أكتبها الآن، جالسا على حافة السرير، جعلتني أكررها مراراً وتكراراً، كما لو تحاول حفظها. بينما كنت أقرأها عليها، قمت بمداعبة شعرها، ووضعت إصبعاً في تجعيد الشعر ولعبت به.

في تلك الأيام، ذاب قلبي من فرط الحب والصدقة واللفظ. على العكس من ذلك، عندما لم أكن مع أدبلا، اندلعت موجة من الكراهية بداخلي، مهددة بإشعال النار في روحي، مارو، مارو، مارو...

## 25

في اليوم الذي أعلن فيه ألبرتو لي المرض الذي تعاني منه أدبلا، عائداً نحو المنزل، صادفت شخصية مارو، وظهرها متكئ على إطار باب البار. في ذلك الوقت لم تكن لدي أي قوة لأكرهه.

حصلت عليها مرة أخرى في وقت لاحق. مع مرور الأيام، نما الغضب في دواخلي ضد الشخص الذي حول والدتي الثانية إلى رماد. بداخلي صرخ جزء

مني بشدة بأن هذا الرجل النشط ليس له الحق في العيش، الجزء الآخر كان يتحكم في هجمات الكراهية التي هددت بغزو داخلي بالكامل. وأود التفكير في «لا تقتل» متذكراً وجه أديلا ناظرة في عيني وبشدة توجه لي اللوم: «ماذا علمتك، خوانيتو؟ الحقيقة هو أن ما علمتك إياه لم ينفعك بشيء».

تقف الإرادة، في بعض الأحيان، عاجزة عن السيطرة على بعض النبضات التي تنشأ من الأمعاء وتحتل حتى المناطق الأكثر تطرفاً من الجلد. لأول مرة في حياتي، عانيت من الأرق، بسبب سلسلة من الصور الموسوسة التي تزامت في ذهني. لقد عشت مشاهد من الطفولة عندما أرعبنا مارو ونحن أطفال بمجرد وجوده داعياً إيانا بالفئران، مهددين من قبل مثل هذا الغول، لم نجد صياداً يلوح في المشهد ويحررنا منه.

نحمل جميعاً في جيناتنا قصصاً لا توصف قام أسلافنا بدور البطولة فيها، يتم أرشفة التاريخ العالمي للعار في خلايانا، من خلال سلسلة من الشقوق، على غرار تلك التي نحتها على شكل «م»، على الرصاصة التي خبأتها في بطانة بدلة زفاف والدي.

زرت أديلا بانتظام، انحسر هاجسي بجعل مارو يدفع ثمن الضرر الذي ألحقه بنا، عاد عقلي، المهدد بوصول وشيك للجنون، تدريجياً إلى أصله. بدأت أنام بشكل أفضل بالفعل. ومع ذلك، حدث شيء حوّل مرة أخرى حالة الصفاء وأطلق العنان لغضب لا يمكن السيطرة عليه في داخلي.

ذات ليلة، كنت في غرفتي، منغمساً تماماً في دراستي وقراءتي، في انتظار وصول والدي لتناول العشاء، التي واصلت حضور أنشطة قبو الكاهن، حيث إنها استمرت بفضل أشخاص مثل أنا وخوسيه ماري وأصدقاء والدي، على الرغم من أن الديناميكية التي طبعها ألبرتو كانت مفقودة.

فجأة، ضرب طبلة أذني هدير محرك دراجة سانجلاس بتسارع أمام بوابة منزلي، سمعت على الفور صراخ والدي:

– اخرج! أيها المنحط!

هرعت إلى أسفل الدرج أقفز مثل كلب مجنون بحثاً عن فريسته. عندما عبرت البوابة، كان مارو يبتعد مسرعاً بالسانجلاس، يطارده خوسيه ماري، ولكنه لم يستطع اللحاق به. بدأت في الجري أيضاً بدون شعور. قطع خوسيه ماري طريقي، مثل ثور يوقف عدو الحصان، فسقط كلانا على الأرض.

– ليس الآن، خوانيتوا! الآن لن نستطيع اللحاق به!

كانت والدتي لا تزال تحمل المظلة التي هددت بها مارو، لم تكن خائفة، لكنها غاضبة. أنا هي من شاهدت الواقعة وركضت لتحذير خوسيه ماري. كل شيء حدث بسرعة كبيرة.

– «أنا هنا لأقضي على ابنك، أيتها الهرم! حينما أنتهي من وجهه لن تتعرفي عليه حتى، أيتها العاهرة!» – صاح مارو بها، ممسكاً بمكابح الدراجة فجأة محدثاً انزلاقاً بجانب والدتي.

– ابتعد أيها المنحط! – صرخت والدتي وهي تلوح بالمظلة.

– وأنت، أيتها الكهولة ذات الصدر السمين، سأضعه لك من الأمام والخلف! هل تسمعي؟

– اخرج من هنا، يا مقزز!

اندفعت والدتي في مارو بوابل من الضربات، مطلقاً بعض الضحكات المتحشجة، بمخلبة حفر أظافره السود في خد والدتي الأيسر، صنع خدشاً من شأنه أن يترك وجهها مميّزاً بندبة وردية رقيقة. في نفس الوقت خرج خوسيه ماري راکضاً بأقصى سرعة، حينئذ تسارع مارو هارباً، ولكن لم ينس أن يصرخ قائلاً:

– سأستخرج أحشاءك أيضاً، يا خوسيه الشاذ! وسأضاجع الساحرة زوجتك حتى تلد ابناً، لأنك لا تعرف كيف تضاجعها، أيها العضو الأعوج!

كاد خوسيه ماري أن يلحق به، في نفس الوقت كنت أنفذ من البوابة.

انتاب والدتي استياء شديد، لكنها لم تكن خائفة بأي حال من الأحوال.

– لا أهاب هذا الأخرق.

قالت أنا إذا لم نبلغ عنه معاً، فستفعل ذلك بمفردها، وصل الأمر أقصاه، علينا إيقافه قبل حدوث مصيبة («مارو تسبب بالفعل في كارثة، أنا»، قلت لنفسي). وعدناها بأننا سنرافقها إلى قسم الشرطة في اليوم التالي.

في الليل، لم أستطع النوم، بغض النظر عن مدى ممارستي للتنفس المريح. فتح فم كبير ضفتيه عند بطني، أظهر أنياباً حادة، وشملني تماماً، محدثاً سيلاً

من الدماء. غلفتني زوبعة لا يمكن إيقافها بطاقة هائلة، واضطرت إلى النهوض من السرير. لم يكن عليّ التفكير في أي شيء، تصرف جسدي بمفرده. فتحت الخزانة، ووصلت إلى بطانة سترة بدلة زفاف والدي، أخرجت المسدس، وأدخلت الرصاصة وتحققت من أنها جاهزة للإطلاق، ثم ذهبت إلى السرير، وأخذت ساعة جد مارو الجمهوري ومصباحاً يدوياً صغيراً، غادرت غرفتي خلسة وتوجهت إلى سقيفة مارو. لم يكن الباب مغلقاً كما جرت العادة، لم يكلف مارو نفسه عناء قفله أبداً. شغلت المصباح، ودفعت الباب ببطء ونظرت في الداخل، بحثاً عن السرير الذي افترضت أن مارو ينام عليه، كانت المرتبة فارغة. وجهت الضوء نحو النافذة، متوقفاً أن أجد هناك، ربما نائم ورأسه مسند على السور، لكنه لم يكن هناك أيضاً. عبرت العتبة، ودفعت الباب وفتشت المخبأ. لا يمكن أن يكون مارو في الحانة بعد، لأنه سيغلق المنزل بالفعل. أين سيكون؟ خشيت أنه لن يعود في تلك الليلة. ظللت أبحث في السقيفة، حتى اصطدمت بالبندقية المتكررة. بحثت عن بعض الخراطيش، وقمت بتحميلها. ثم وضعت المسدس في جيبي، مدنياً البندقية على كتفي ثم صعدت السلم العلوي، جلست على القمة، حيث أشاهد الموقع بأكمله، تركت البندقية على أرضية الدور العلوي، أطفأت المصباح، وانتظرت في حالة من الهدوء الذي يسبق العاصفة، عندما يستحوذ على جميع حواس الجسم.

انتظرت هكذا لفترة طويلة، لكن أخيراً سمعت محرك سانجلاس يتوقف بالقرب من الباب. قام مارو بإيقاف تشغيل المحرك، ودفع الباب واحتل المساحة، مثل ظل عملاق لدب. وقفت في انتظار، دون التسرع، أبقيت يدي ثابتة، دون أدنى رعدة، في إحدى الهزات وجهت المسدس في اتجاه مارو. التفت نحو المجدد، أمسك زجاجة وأخذ في الشرب. ثم، مشيراً بحزم، أخذت ساعة الجد الجمهوري من جيبي باليد الأخرى، وفتحت الغطاء وتركت الموسيقى تعزف. بقي مارو بلا حراك، والزجاجة في فمه ونظرتة جامدة، كما لو أنه لا يفهم ما يحدث. نظر ببطء ورأني أشهر المسدس نحوه.

– فأر سوف يقتلك، أيها الحشرة! – ألقيت بالكلمات في وجهه بصوت حازم.

ظننت أنه على وشك القفز للبندقية. استعددت لإطلاق النار عليه عند أدنى حركة، إذا لم تصبه الأولى، سأفرغ المكرر عليه. لكن انتابتنى دهشة شديدة، عندما رأيته يلتف ببطء ويميل ظهره على الحائط مثل طفل خائف. بدأت في النزول، وقياس كل خطوة. أين هو ذلك القرف؟ من قال بأنه سيضاجعني؟ اقتربت منه ببطء ووضعت المسدس على مسافة يد واحدة من وجهه، تصبب عرقاً مثل الخنزير. استمرت موسيقى الساعة في العزف

في يدي الأخرى، انتظرت أن يتم عزف اللحن الأخير قبل أن أضغط على الزناد. رفع عينيه. استولت عليّ حيرة من أمري بسبب مظهره، لأنني لم أر علامات الخوف فيه، ولكن سطوعاً تهالكاً بسبب السكر المستمر، كانت نظرة طفل عاجز، مغطى بضباب كثيف من الوحشية والإرهاق، والتعب الشديد الذي رغب في أن ينتهي كل شيء، أو الذي رفض المضي قدماً. داخل ذهني، ظهرت بشكل عابر صورة أديلا، ابتسامتها، ثم اختفت على الفور. ضربت الساعة ببطء اللحن الأخير من موسيقاها الصغيرة. أغلقت الغطاء، ووضعت الساعة في جيبي، ورفعت المسدس قائلاً:

– أنت بالفعل ميت.

خرجت وتوجهت نحو المنزل. أخذت السيارة من المرآب ونزلت التل. عند الوصول بجانب النهر، أوقفت السيارة على الجانب، وأضأت المصباح وذهبت عبر الجدران، نحو البئر العميق. أمسكت المسدس المحشو بإصبعين وأسقطته في الماء. استغرق الأمر بعض الوقت حتى نما إلى سمعي صوت اصطدامه بالقاع. ثم أخرجت الساعة من جيبي وأسقطتها أيضاً. حدقت لفترة في البئر، في ضوء الهلال المنعكس في الماء، تذكرت المنظار المكسور في صندوق السيارة. يُرى البئر مثل المنظار بدون عدسة، مثل الوقت الذي يقودنا إلى حيث لا يمكننا الرؤية، إلى وجهة عمياء حيث تغرق النفوس مثل القطط حديثة الولادة.

عدت إلى السيارة، شغلت المحرك وبدأت في تسلق التل ببطء، في البداية. فجأة، رأيت ضوءاً قادمًا نحوي، بأقصى سرعة، انحرفت وذهبت إلى الجانب. مرت دراجة مارو اليسانغلاس النارية كزفير، كادت تحتك بسيارتني، ضاعطاً دواسة الوقود حتى آخرها. من خلال مرآة الرؤية الخلفية، رأيت أنه لم يضغط على المكابح عند المنعطف، لكنه استمر بشكل مستقيم ثم حلق فوق النهر.

في الصباح، سحب رجال الإطفاء الدراجة النارية من النهر، الذي كان ينحدر منتفخاً بسبب الأمطار الأخيرة. لم يُتمكن من العثور على جثة مارو.

لم يغمض لي جفن طوال الليل. في صباح اليوم التالي، بدلاً من التوجه إلى العمل، ذهبت مباشرة إلى منزل أديلا، أردت أن أتلو عليها الأخبار شخصياً، قبل أن تكتشف ذلك بوسائل أخرى، كنت على استعداد للاعتراف بكل ما احتفظت به منذ الطفولة، على استعداد لكشف النقاب عن تاريخي السري، لأغسل مرة واحدة وإلى الأبد الدهون الفاسدة التي غشيتني.

عندما أخبرتها أن مارو قد مات، انفجرت في البكاء مثل من فقد أخاً.

– يا للمسكين!

طلبت مني أن أعانقها. لم ترغب في معرفة المزيد من التفاصيل، كانت قولتي تلك كافية بالنسبة لها: «مات مارو».

– يا للمسكين!

وبينما أعانقها، ظللت أفكر في كيفية التعبير لها عن كل ما كنت مستعداً للاعتراف به. لكن لم تتح لي الفرصة للقيام بذلك، لأن أدبلاً أرادت أن تظل صامتة، ورأسها على كتفي، تبكي بهدوء.

عدت إلى المنزل دون أن أفرغ الثقل الذي غمرني. عندها اتخذت قراراً بوضع قفل نهائي على باب أوشكت على فتحه على مصراعيه. حبست التاريخ في حجرة من الماضي، في صندوق قديم بداخل روعي مغطى بالغبار.

داومت على زيارتها يومياً. أصبحت تضمحل مثل اللهب الذي يتأرجح في رقصة التآرجح النهائية. كانت نظرتها تتلاشى يوماً بعد يوم، وعلى النقيض من ذلك، اتسعت ابتسامتها على شفيتها لتغطي كامل وجهها. في أحد الأيام عندما انفردنا معاً، أخبرتني كم تكن لي من الحب منذ الطفولة ولكم أحببني دائماً.

– هل تعلم، خوانيتو؟ دائماً ما كنت تلميذي المفضل، الوحيد، مثل ابن رحمي.

– لقد أدركت ذلك دائماً، أدبلاً.

هل يمكن للمرء أن يمتلك أكثر من أم؟ بالتأكيد نعم، أنا ابن لاثنتين. هناك عدة طرق لولادة شخص ما، أحدها هو وضع يدك في النيل والبحث عن الحجر وكسره إلى قسمين، واستخراج القلب لإضاءة روحه. إن من يفعل ذلك لك هو أمك، وهي تلدك وتلدك مرة أخرى في كل مرة تقابلها.

نقلها ألبرتو إلى المنزل، لأن أدبلاً لم ترغب في البقاء في المستشفى لتمديد حياتها لبضعة أشهر أخرى، قررت ذلك بكل صلابة وطمأنينة. توقفت عن تناول أي نوع من الأدوية، وفي المرحلة الأخيرة توقفت عن الأكل، كانت

تَشْرَبُ الْمَاءَ وَقَلِيلاً مِنَ الْعَصِيرِ فَقَط. لَمْ تَكُنْ تَرِيدُ أَنْ يَزُورَهَا أَحَدٌ، بِاسْتِثْنَاءِ  
أَلْبِرْتُو وَأَنَا، ابْنِهَا الَّذِي أَفْرَغَ فِتْرَةً مَا بَعْدَ الظَّهيرةِ يَوْمياً وَقَضَى سَاعَاتٍ جَالِساً  
عَلَى حَافَةِ سَريرِهَا، يَقْصُ عَلَيْهَا كَيْفَ تَجْرِي مَعَهُ الْأُمُورُ، وَمَدَى تَقْدَمِهِ فِي  
أَطْرُوحَتِهِ، وَمَدَى جُودَةِ وَرَشْتِهِ...

فَتَمْسُكُ بِيَدِي بِفَخْرٍ مِثْلَ الْأُمِّ لِطِفْلِهَا، وَتَطْلُبُ مِنِّي أَنْ أَشْغَلَ مُوسِيقَى بَاخٍ.

دَائِماً مَا قَالَتْ لِي: «إِنَّ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهُ الْآنَ، بَاخٌ»، كَمَا  
لَوْ أَنَّ تِلْكَ الْمُوسِيقَى تَشِيرُ إِلَى غُرْفَةِ انْتِظَارِ حَيَاةٍ أُخْرَى.

انطَفَأَتْ مِثْلَ الشَّمْعَةِ بِشَكْلِ غَيْرِ مُحْسُوسٍ تَقْرِيباً. أَمْسَكْتُ أَلْبِرْتُو بِيَدِ  
وَمَمْسَكَةُ بِي بِالْيَدِ الْأُخْرَى، بِيَدِي الْحَرَّةِ دَاعَبْتُ شَعْرَهَا، وَدَاعَبْتُ خِصَلَاتِ  
الشَّعْرِ الَّتِي سَقَطَتْ عَلَى جِبْهَتِهَا. ابْتَسَمَتْ وَابْتَسَمَتْ عَلَى نِطَاقٍ أَوْسَعِ...، ثُمَّ  
غَادَرْتَنَا. أَغْلَقَ أَلْبِرْتُو عَيْنَيْهَا، وَوَضَعْتُ خِصْلَةً مِنْ شَعْرِهَا عَلَى جَفْنَيْهَا.



\_ honen itzulpenak Etxepare Euskal Institutuaren diru  
.laguntza izan du

La traducción de este libro ha sido subvencionada por el  
Instituto Vasco Etxepare

تم دعم الترجمة من المعهد الثقافي (آشيباري) في إقليم بلاد الباسك

Juan Kruz Igerabide

Hauts bihurtu zineten

- (1) يطلق لقب بيتريكيو على معالج متخصص في علاج العظام المكسورة، لقب منتشر في إقليم الباسك في إسبانيا.
- (2) نوع من الدراجات ذات صناعة كتالونية، أسست تلك العلامة التجارية في 1958.
- (3) نوع من الدراجات النارية الفرنسية الصنع، تم تأسيس تلك العلامة التجارية في فترة الحرب العالمية الثانية.
- (4) نوع من الحلويات عبارة عن قطعة كيك ملفوفة محشوة بأنواع من الفواكه أو الأيس كريم، يطلق عليها بالإنجليزية «سويس رول».
- (5) أسطورة صاحب الأقدام المتورمة، الملك الذي نبئ بأنه سيقتل على يد ابنه وأن ابنه سيرث زوجته، فقام بنفي ابنه الذي عاد من المنفى ثم اصطدم بوالده وحرسه حيث قتل والده وتزوج أمه دون أن يكون على علم بذلك، مما أدى به إلى قتل نفسه عند علمه بذلك.
- (6) يوسف ستالين، تاجر جورجي وثاني قائد للاتحاد السوفيتي، رأس في منتصف عشرينيات القرن العشرين وشغل منصب السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي.
- (7) ليون تروتسكي ماركسي بارز أحد زعماء ثورة أكتوبر في روسيا مؤسس المذهب التروتسكي الشيوعي، مؤسس الجيش الأحمر وعضو المكتب السياسي البلشفي إبان حكم لينين.
- (8) يوسف ستالين، تاجر جورجي وثاني قائد للاتحاد السوفيتي، رأس في منتصف عشرينيات القرن العشرين وشغل منصب السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي.
- (9) عبد يوناني عاش بين عامي 620 و560 ق.م تعتبر قصصه رافداً للتربية الأخلاقية للأطفال.
- (10) معبد أبولو في دلفي، يعود تاريخه إلى القرن الرابع قبل الميلاد. بُني على بقايا معبد سابق، يعود تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد.
- (11) هي رواية كتبها فرانز كافكا، نشرت عام 1915. يروي قصة تحول جريجوريو سامسا إلى حشرة وحشية، جرت بعض الأحداث أعقاب ذلك.
- (12) كتيبات مطبوعة بشكل غير جيد تحتوي على روايات شعبية وقصائد وأغان. تم إنتاجها وبيعها في الشوارع ومن قبل الباعة الجائلين في البرازيل، وخاصة في الشمال الشرقي، سميت بهذا الاسم لأنها كانت تعلق بحبل لعرضها على المشتريين.
- (13) أنطونيو كانوباس ديل كاستيو مؤرخ وسياسي إسباني، تولى منصب رئيس مجلس وزراء إسبانيا، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، عرف بدوره البارز في دعم استعادة النظام الملكي البوربوني إلى العرش الإسباني، توفي على يد أحد الفوضويين.

- (14). إيتا، هي منظمة تُعرف باسم أوسكادي تا أسكاتاسونا، منظمة قومية باسكية مسلحة وانفصالية من أقصى اليسار في إقليم الباسك.
- (15). نسبة إلى لينين.
- (16). عملية تم فيها القبض على أعضاء منظمة عمالية وتم اتهامهم بتأييد الحزب الشيوعي والحكم عليهم بالسجن لمدد تتراوح بين 12 و20 عاماً.
- (17). عسكري وسياسي إسباني شغل مناصب عدة في حكومة فرانسيسكو فرانكو. اغتيل من قبل إيتا عندما كان يشغل منصب رئيس الوزراء خلال المرحلة النهائية من الديكتاتورية.
- (18). إحدى وضعيات رياضة اليوجا، يقوم فيها المرء بالجلوس فوق كاحليه المستقيمين ووجه أصابعه ملتصق بالأرض وظهره متسق لأعلي كأنما يجذبه جبل.
- (19). مارسيل بروسست روائي فرنسي عاش في أواخر القرن 19 وأوائل القرن 20 في باريس، من أبرز أعماله سلسلة روايات البحث عن الزمن المفقود، التي تستعرض تأثير الماضي على الوقت الحاضر.
- (20). رمز قديم يصور الثعبان أو التنين وهو يأكل ذيله.
- (21). نوع من الديناميت المضغوط المستخدم في التعدين.
- (22). مفهوم روحي تم اختراعه بواسطة فيلهلم رايش، يوصف باعتباره الطاقة الباطنية أو قوة الحياة العالمية الافتراضية.
- (23). مفهوم روحي تم اختراعه بواسطة فيلهلم رايش، يوصف باعتباره الطاقة الباطنية أو قوة الحياة العالمية الافتراضية.
- (24). النشيد الوطني لجيش الحكومة الباسكية المتمتعة بالحكم الذاتي خلال الحرب المدنية الإسبانية.

ماجهتي من رقاد

ما تبقى من رماد  
خوان كروث إغرابيدي  
ترجمة: محمد صبري عبد الفتاح  
تقديم: د. عبد الهادي سعدون  
عنوان الكتاب باللغتين الباسكية والإسبانية:

*Hauts bihurtu zineten*

*ME QUEDA LA CENIZA*

By JUAN KRUZ IGERABIDE

الطبعة الأولى: يونيو – حزيران، 2023 (500 نسخة)

Arabic Translation Copyrights@Dar Al – Rafidain 2022

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 691 - 28 - 2

(c) جميع حقوق الطبع محفوظة/All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافة نابضة بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخة أصلية من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أي من أجزائه بأي شكل من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.



بغداد – العراق/شارع

www.daralrafidain.com  
info@daralrafidain.com  
daralrafidain@yahoo.com  
Dar ALRafidain دار الرافدين

daralrafidain  
daralrafidain  
dar\_alrafidain  
دار الرافدين daralrafidain

ما تبقى من رماد



www.daralrafidain.com